الفصل السادس
السلطان محمد وحيد الدين
في
كتابات الأتراك المعاصرين والمحدثين

الفصل السادس
السلطان محمد وحيد الدين
في
كتابات الأتراك المعاصرين والمحدثين

مقدمة

اختلفت الأراء حول السلطان محمد وحيد الدين، أخر سلاطين الدولة العثمانية، فبينما يرى البعض أنه خائن للوطن، وأنه رحل على ظهر سفينة إنجليزية، يرى البعض الآخر من الكتاب المعاصرين والمحدثين، أنه بطل أوكل إلى مصطفى كمال مهمة إنقاذ الوطن من المحتلين، فأرسله إلى سامسون من أجل إثارة حركة مقاومة شعبية في الأناضول. وتركزت نقاط الخلاف حول :

أولاً: السياسة التي انتهجها السلطان بعد الحرب العالمية الأولى

1. التقرب من الإنجليز.
2. توقيع معاهدة سيفر.
3. مناهضة مصطفى كمال وحركة المقاومة الشعبية في الأناضول.
4. فتوى الحكم بإعدام مصطفى كمال.
5. إرسال قوة إعادة الانضباط إلى الأناضول، وحادثة آنزافور"جيش الخليفة".

ثانياً: اتهام السلطان بخيانة الوطن ومغادرة استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية

ومن خلال كتابات الأتراك المحدثين، وكتابات وأراء معاصريه هو، نتعرف على حقيقة مواقف السلطان محمد وحيد الدين.

أولاً: السياسة التي انتهجها السلطان بعد الحرب العالمية الأولى

1. التقرب من الإنجليز

ما يأخذه الكتاب الأتراك المعاصرين على السلطان وحيد الدين، أنه على حد قولهم، دأب منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى - التي انتهت بهزيمة تركيا- وطيلة حرب الاستقلال، على انتهاج سياسة مصادقة الإنجليز، والتقرب من الفرنسيين. وذلك اقتداءً بالسياسة التى انتهجها أخيه السلطان عبد الحميد الثاني، الذي أخذ عنه قدرته على التخطيط السياسي، والمناورة دون تهور، وكانت هى أيضا سياسة أبيه السلطان عبد المجيد الأول309. كما يرون أن السلطان كان - حتى خروج مصطفى كمال إلى الأناضول- يدير أمور الدولة بمفرده، ودون أية رقابة. وبينما كان مصطفى كمال في الأناضول منشغلاً بإنقاذ الدولة والشعب، كان وحيد الدين يتربص به، وأنه قد وافق على شروط هدنة موندروس اعتقاداً منه أن إنجلترا لن تغير من سياستها الودية تجاه الدولة العثمانية، وأنه بالإمكان نيل عفوها وصداقتها فيما بعد[310].

الواقع أن السلطان وحيد الدين كان يرى أن إنقاذ وطنه لايكون بالسلاح ومواجهة أوروبا، وكان يؤيد سياسته تلك، الكثير من المثقفين والمفكرين في الدولة، وكثير من الأجانب أيضا. وكان هذا مجرد خلاف في وجهات النظر حول طريقة التفكير وتناول الأمر. وقد وُصم بالخيانة لأنه كان يخشى أن يقال: "إنه دفع بأمته إلى خضم الأحداث الخطيرة وأنه حارب وأراق الدماء، فمكث في استانبول يعاني ذل سياسة التوكل والحذر. فقد كان لايريد المقامرة باستقلال الأمة"311.

إن السلطان محمد وحيد الدين بوصفه رجل دولة، استطاع السيطرة على الوضع المضطرب الذي استمر حتى بعد الصلح، دون أن يكون مسانداً ومؤيداً لدول الحلفاء، بل كان لا يؤمن جانبهم[312]. وكان ينتقد صراحة الذين دفعوا بتركيا إلى الحرب، ويؤمن من

---

[309]- يتناول السلطان وحيد الدين في مذكراته السياسة التي انتهجها فيقول: **"لقد واجهت المصائب التي جلبتها الحرب العامة التي استمرت أربعة أعوام، كما واجهت بعدها مصائب الهدنة. بعد الحرب كان كيان الدولة في وضع خطير، وكانت استانبول وضعها غير مستقراً. لكن بعد الهدنة أبدت الدول المنتصرة رضاها عن بقاء استانبول في تركيا. وفي أثناء الهدنة وقعت أخطاء أخرى بسبب عدم براعة الحكومات المتوالية التي تولت إدارة البلاد. وأنا بوصفي سلطاناً مشروطياً (أي دستورياً) كنت أشارك في تصحيح أخطائهم. وكنت أرى أن مبدأ مهادنة دول الحلفاء الموروث عن والدي من قبل الحرب العالمية هو سبيل النجاة. وأرى أيضا أنه لابد من انتهاج سياسة مسايرة الإنجليز والفرنسيين، وعدم العمل على إغضابهم أو التحرك ضدهم لأنهم كانوا يتربصون بنا، ويريدون الانتقام منا بعد انتصارهم وهزيمتنا**. انظر مذكرات السلطان وحيد الدين في Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.424

[310]- Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", a.g.e. s. 8,9

[311]- مقالة رفيق خالد، نشرها بعد وفاة السلطان وحيد الدين في صحيفة (دوغري يول) التي كانت تصدر في حلب. انظر Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.555

[312] - يروي السلطان لباشكاتبه عن رأيه في الحلفاء فيقول:

"– إن الأجانب لا يؤتمن جانبهم... الله يعلم ما أتحمله ليلاً ونهاراً وأعلمه أنا أيضاً! فقد جعلونا نحل مجلس المبعوثان نتيجة ضغطهم علينا. يعلنون عن أفكارهم بصراحة وبلا إحساس، أنا حاكم دستوري، ولكنهم يعاملونني كأنني حاكماً مطلقاً. ويرجعون إلي مباشرة. وعندما أبحث أي أمر من ناحية دستورية، يواجهوني بقولهم أي دستور هذا، إننا نعرفك أنت فقط، فأنت السلطة الوحيدة التي أمامنا، والتي نرجع إليها ونحن نعهدك طاهراً ونظيفاً، يعني يريدون أن يقولوا إنك إن لم تنفذ كلامنا فلن نعترف بوجودك. لابد من تحمل هذه الأحوال من أجل إنقاذ مستقبلنا،

كل قلبه أنه يمكن إنقاذ تركيا مرة أخرى، بإقامة علاقات جيدة مع إنجلترا[313]، والسعى إلى الصلح معها. وكان كبار رجال الدولة يؤمنون بهذا أيضا، وحتى مصطفى كمال نفسه كان يقول إننا نعتبر الإنجليز أصدقاء. كما قال في صحيفة (وقت) في بيان له: "إنني لا أشك في النوايا الحسنة للدول التي عقدت الهدنة مع حكومتنا، أو في نوايا إنجلترا- التي وضعت شروط الهدنة باسم هذه الدول - تجاه الدولة العثمانية" [314].

كان الإحساس بإمكان مساعدة الإنجليز للأتراك، سببه هو أن الإنجليز كانوا هم القوة المسيطرة على جميع قوات الحلفاء، فلم يكن أمام الأتراك سواهم من يستطيعوا الاستناد عليهم[315].

كان اختلاف وجهات النظر بين أنقرة واستانبول، هو سبب الخلاف الذي حدث بين حكومة السلطان وحيد الدين فى استانبول، والحكومة التي يرأسها مصطفى كمال في أنقرة. فالميثاق الوطني الذي وضعته حكومة مصطفى كمال، كان يهدف بالأساس إلى إنقاذ الأراضي التي حددها هذا الميثاق ويستبعد استانبول، إذ كان مصطفى كمال بهذا يحافظ على أنقرة رمز الدولة التركية الجديدة، ويتخلص من استانبول رمز الدولة العثمانية التي يناصبها العداء. أما السلطان وحيد الدين فكان هدفه هو المحافظة على استانبول لكونها عاصمة الدولة ومقر الخلافة، وكانت سياساته وتحركاته كلها تتجه صوب هذا الهدف. وقد سعى مصطفى كمال إلى إقناع وحيد الدين بضرورة مغادرة استانبول إلى الأناضول بدعوى قيادة المقاومة الشعبية، لكن السلطان وحيد الدين كان حريصاً على عدم مغادرة استانبول أثناء حرب الاستقلال، لاعتقاده أن خروجه من استانبول- وهى عاصمة الخلافة- يعني ضياعها من يد الأتراك[316].

ومن ناحية أخرى فإننا عندما نرجع إليهم في شئ لا يستجيبون في الحال بل يردون بقولهم إن الجنود الموجودين هنا هم المكلفون بالأمر. صحيح إنني أجلس فوق ريش نعام السلطنة، لكن لا أخفي عليك أننى أجلس فوق رماد الوطن المشتعل. الواقع أن أخي السلطان محمد رشاد كان عرشه واقعاً تحت ضغط أغلبية القوى الداخلية. لكن أنا أواجه قوة أقوى من تلك القوى بمراحل عديدة، وإذا كنت أنا من بعده لا أستطيع أن أدير أمور الدولة بكل عدل وأمانة وعدم تحيز، فوالله ما قبلت هذا الحمل الثقيل طوال عمري." انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.151

[313]- Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 27

[314]- وقد اتضح هذا التوجه خلال حديث مصطفى كمال الذي أدلى به لصحيفة (منبر) في 17 نوفمبر 1918، أثناء الهدنة وقبل ذهابه إلى الأناضول، رداً على سؤال ما هو شعوركم تجاه الإنجليز؟ إذ قال: "إنني حاربت ضد الإنجليز في جبهات أريبورنو وأنافارتا وفلسطين. وإنني كنت في هذه الحروب، وفي الحروب الأخرى في المناطق الأخرى، أؤدي واجبي نحو وطني وأمتي من واقع موقعي كجندي، ولكن ليس في قلبي كراهية أو عداوة للإنجليز، ولست أنا فقط الذي أقدر اهتمام الإنجليز برعاية استقلال دولتنا، وحرية الأمة العثمانية، بل إن الأمة العثمانية كلها تحب الإنجليز كثيراً، وتعتبر إنجلترا الصديق الوحيد للشعب العثماني. انظر Gotthard Jaeschke, "Kurtuluş Savaşı ile ilgili İngiliz Belgeleri", a.g.e. s. 99

[315]- Kadir Misiroglu, "bir mazlum Padisah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 182

[316]- والدليل على هذا أن السلطان وحيد الدين، دعى مفيد مظهر بك - الذي جاء للانضمام لمجلس استانبول الأخير، الذي عُقد في 12 يناير 1920 بصفته ممثلاً للأمة- إلي القصر وقال له: **"إن هيئة التمثيل هى درة تاج سلطنتي، ليرضى الله عنكم. أنتم أنقذتم الوطن والشعب والسلطنة والخلافة. فليمنح الله حضرة مصطفى كمال باشا الصحة والعافية. ألا يأتي لتشريف استانبول! إنني أتشوق للقائه. "ثم سأله قائلاً : "ما الخطة التي تفكرون فيها من أجل إنقاذ دولتنا من الأعداء؟" فيرد عليه بقوله: "الحل هو أنكم تذهبون إلى الأناضول أو حتى إلى بورصة، لأن الشعب**

كان السلطان محقاً في قلقه على استانبول، لأن موضوع ترك أو عدم ترك استانبول وهى مقر السلطنة العثمانية في يد الأتراك، لم يكن يشغل الأتراك فحسب، بل كان أيضا يشغل أوروبا. ففي الأسبوع الأول من نوفمبر 1919، تلقى (تي يي هوهلر) أحد المسئولين في المفوضية الإنجليزية العليا في استانبول، خطاباً من وزارة الخارجية الإنجليزية يفيد أنه سوف يتم نقل العاصمة إلى بورصة، وأنهم يقلقون من وحيد الدين. إذ يقول الخطاب: ".. بعد النصر سوف تُمحى الدولة العثمانية من أسيا الصغرى، وستكون بلاد العرب وسوريا وبلاد الرافدين وتراقيا والجزر تحت إدارة أخرى. وستقام دولتي الكرد والأرمن في الشرق والغرب بموجب مبادئ ويلسون، وسوف يُقضى على الأفندي الكبير(يقصدون السلطان وحيد الدين) الذي تملأ ألقابه الكثيرة أولى صفحتي المعاهدة(معاهدة موندوروس)، وسيصبح مجرد رئيساً محلياً غير مهماً، يحمل صفة مبهمة كزعيم ديني مبهم. وليس هناك احتمال أن تصبح استانبول مدينة إسلامية مقدسة. فالأتراك لايعترفون بهزيمتهم، وأن السلطنة صارت الآن شيئاً لا قيمة له"[317].

ومن واقع مذكرات وزير الخارجية البريطاني، لورد كرزون نرى أنه كان يفكر في أمر استانبول، وكيفية إخراج السلطان والخليفة منها بصفة خاصة. ولكن الإنجليز كانوا يخشون ثورة مسلمي الهند وغيرهم من المسلمين[318]، ولذلك اكتفت إنجلترا وقوات الحلفاء بإحتلال استانبول فقط، مع تركها تحت الإدارة التركية، وكانوا يرددون دائماً أن الهدف من إحتلال استانبول هو حفظ النظام لحين يتم إبرام معاهدة الصلح، وليس الهدف انتزاعها من يد الأتراك[319].

2. توقيع معاهدة سيفر[320]

بالنسبة لاتهام السلطان وحيد الدين بالتوقيع على معاهدة سيفر، فهو لم يصدق عليها، لأنها أصلاً لم تكن معاهدة بل مسودة معاهدة، ولم تأخذ أية صفة رسمية حتى وقتنا هذا،

إذا رأى سلطانهم على رأسهم يصبح الأمر مثل ثورة عامة، ولا يقاوم الأعداء هذا. "فاحتد السطان ونهض واقفاً وقال: "هل تريد مني أن أفر من عاصمة سلطنة أجدادي العظام؟" فأجابه مظهر بك: "لا إنني أعرض عليك أن تكون على رأس الأمة مثل أجدادك العظام، في هذا الوقت العصيب الذي يمر به الوطن والأمة". فأشاح السلطان بوجه واستغرق في التفكير. كان السلطان حينئذ يتمني أن يكون بالفعل على رأس الأمة في ذلك الوقت، ولكن كما يعترف هو بقوله: "إذا كنت قد ذهبت إلى الأناضول، كانت استانبول ستضيع وتصبح تابعة للروم. إنني في كل صلاة كنت أدعو الله أن يحفظ استانبول. إنني لم أغادرها إلا بعد أن أقنعوني أن رحيلي عنها سيكون لبضعة شهور فقط، وإنني سأعود إليها مرة أخرى" انظر Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.100-101

[317] Murat Bardakçı , "Şahbaba", a.g.e. s.101

[318] - كان المسلمون في الهند يعلنون في تلك الفترة: "إن تعاطفنا مع الأتراك ليس عملاً من أعمال السياسة، وليس مسألة حدود دول، إنما هو مسألة تتعلق بالدين. فسلطان تركيا هو خليفة رسول الله وأمير المؤمنين، وطاعة السلطان الخليفة بالنسبة لنا فريضة دينية. إن هدفنا هو الدفاع عن ديننا، والعمل على عدم المساس بالأماكن الإسلامية المقدسة، وضمان سيادة الإسلام، وتبعية شبه الجزيرة العربية، وإطاعة الأمر الذي أوصى به نبينا قبل وفاته. انظر Nıyazı Berkes, "Türkiyede çağdaşlaşma", a.g.e. s. 499

[319] - Murat Bardakçı , "Şahbaba", a.g.e. s. 145, 155

[320]- تمت الإشارة إلى هذه المعاهدة بالتفصيل في الفصل الثاني ص 31

ولم تُنفذ. وتوقيعها ليس كافياً لإعطائها شرعية، بل كان يجب التصديق عليها من جانب السلطان حتى تأخذ هذه الصفة، وهو ما لم يتم. فقد كان المفروض ان يقوم مجلس المبعوثان بالتوقيع عليها أولاً، ثم تُعرض بعد ذلك على وحيد الدين فيقوم بالتصديق عليها، ولكن هذا لم يحدث. ففي 11 ابريل 1920 كان المجلس مغلقاً، وبذلك لم يقم وحيد الدين في أي وقت بالتصديق على هذه المعاهدة321. الواقع أن الصدر الأعظم فريد باشا هو الذي وقّع على مسودة المعاهدة، إذ كان يرى أن توقيعها قد ينقذ استانبول، ظناً منه أن الإنقاذ سيأتي على يد الإنجليز. بينما السلطان كان يرى أن كسب الوقت أفضل، وكان كلما طالبه الإنجليز بالتصديق على المعاهدة كان يقول: "إن التصديق عليها سيزيد من ثورة الأناضول، والثوار هناك سوف يتهمون الحكومة بالاستسلام322".

وكان مصطفى كمال يرى أن معاهدة سيفر مجرد مشروع معاهدة. فقد تحدث في خطابه (نطق) عن معاهدة سيفر قائلاً: "أيها السادة بعد هدنة موندروس، اقترحت الدول المخاصمة لتركيا شروطاً للصلح أربع مرات، أولها مشروع معاهدة سيفر التي تم وضعها، وتنظيمها من جانب دول الحلفاء بالاشتراك مع عضو مجلس الشعب اليوناني، موسيو فينيزلوس، بدون السماح بأي نقاش حولها أو التباحث بشأنها. وقامت حكومة وحيد الدين بتوقيعها في 10 اغسطس 1920، وهذا المشروع لم يتم حتى مناقشته في مجلس الأمة التركي الكبير". وبعد ذلك يقارن مصطفى كمال بين سيفر ولوزان، ويذكر سيفر دائماً في كل مرة بإنها مشروع معاهدة . وحتى في ذكره توقيعها قال، تم توقيعها من جانب حكومة وحيد الدين، ولم يقل أن وحيد الدين قام بتوقيعها323 .

وذكر عصمت إينونو[324] في مذكراته، أن سيفر كانت مشروع معاهدة[325]. ويفيد أحمد رشيد ري، وزير الداخلية في ذلك الوقت في مذكراته، أن السلطان وحيد الدين لم يصدق على هذه المعاهدة، وهذا أمر مؤكد، ولكن فريد باشا اضطر إلى توقيعها326.

---

[321]-Murat Bardakçı , "Şahbaba", a.g.e. s. 165-167

يقول السلطان وحيد الدين: "إنه لم يقم بالتصديق على هذه المعاهدة، وأنه كان مستعداً للتنازل عن العرش إذا اضطر إلى التصديق عليها. وكان توقيعها من جانب فريد باشا مجرد كسباً للوقت، ولكن لم يتم التصديق على هذه المعاهدة أبداً." انظر بيان وحيد الدين في Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.32

322- يقول إسماعيل حقي ابن الصدر الأعظم توفيق باشا، وصهر وحيد الدين في مذكراته: "إن السلطان وحيد الدين لم يوقع ولم يصدق على معاهدة سيفر، ولكن فريد باشا هو الذي وقّع عليها على سبيل إنه توقيع مؤقت نتيجة للضغط عليه، وحتى السلطان نفسه كان رافضاًهذا التوقيع المؤقت، وأبدى بشكل واضح أنه لا يقبل شروط الصلح التي تتضمنها هذه المعاهدة. لكن فريد باشا خدع مجلس شورى السلطنة والسلطان وقام بالتوقيع على المعاهدة." انظر İsmail hakkı okday, "Yanya'dan Ankara'ya", a.g.e. s. 384 -386

[323]- مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص 453 ، 454

[324] - ولد عصمت إينونو في مدينة إزمير عام 1884، وعمل ضابطاً في الجيش العثماني، في الأركان العامة في اليمن. وقاد الجيش الرابع أثناء الحرب العالمية الأولى في سوريا، وانضم إلى حركة المقاومة الشعبية أو الملية في الأناضول مع مصطفى كمال. وقد حقق الانتصار في معركتين خاضهما في حرب الاستقلال ضد اليونان في مدينة (إينونو) قرب أنقرة، ولذلك لقب بهذا الاسم. شغل منصب رئيس الأركان العامة عامي 1920،1921، كما شغل منصب وزير الخارجية عام 1922 حيث مثل تركيا في مؤتمر لوزان. وشغل منصب رئيس الوزراء في الفترة (1923-1924) والفترة (1925-1937)، وهو ثاني رؤساء الجمهورية التركية، فقد تولى الرئاسة في الفترة من 11 نوفمبر 1938 إلى 22 مارس 1950. وهُزم حزبه في انتخابات عام 1950 وانتخب جلال بايار رئيساً

نظراً للظروف التي أحاطت بالسلطان وحيد الدين بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، حرص السلطان على انتهاج سياسة كسب الوقت حتى يزول غضب دول الحلفاء من الأتراك، وتتغير الظروف التي تضطره لقبول المعاهدة التي كانت مثار جدل بين جميع مثقفي الدولة. وخلال الوقت الذي أتاحه للوفد الذي أرسله إلى باريس من أجل تعديل شروط معاهدة سيفر، ضمن تزايد فعالية حركة الأناضول. والواقع أن الدولة لم تتعرض للاحتلال بسبب معاهدة سيفر - التي ظلت في حالة مشروع معاهدة، ولم يتم التصديق عليها، والفضل يرجع في ذلك إلى مراوغة السلطان وحيد الدين- ولكن الذي عرّض الدولة للاحتلال هى معاهدة موندروس. فلماذا لم يتم وضع من قاموا بتوقيع هدنة موندروس، في قائمة الـ 150 التي ضمت الأعضاء الذين وقّعوا معاهدة سيفر معلنيين خيانتهم؟ فقد كان رئيس الوفد الذي وقّع معاهدة موندروس هو رؤوف أورباي، وكان مصطفى كمال في ذلك الوقت على رأس جيوش الصاعقة، ذلك الكيان العسكري القوي. وبذلك يكون المسئول عن تعرض الدولة للاحتلال الذي تم بسبب هذه الهدنة، هما هذان الشخصان. فقد أرسل مصطفى كمال برقية إلى القصر من (باغچة) القريبة من (أضنة) من أجل تشكيل وزارة أحمد عزت باشا التي وقعت تلك الهدنة. كما أن رؤوف أورباي وقّع الهدنة باسم هذه الحكومة. وقام مصطفى كمال بعد ذلك بتعيين رؤوف أورباي، نائباً أول لرئيس الهيئة التمثيلية في أنقرة[327].

3. مناهضة مصطفى كمال وحركة المقاومة الشعبية فى الأناضول.

تم اتهام السلطان وحيد الدين بالعمل على استبعاد مصطفى كمال عن استانبول، بتعيينه مفتشاً على الجيش التاسع في الأناضول، بهدف القضاء على الحركات الشعبية التي اندلعت هناك ضد قوات الحلفاء في البداية، ثم ضد اليونانيين الذين قاموا باحتلال إزمير في 14 مايو 1919 بناءً على رغبة قوات الحلفاء المحتلة[328]. كما تم اتهامه بمناهضة المقاومة الشعبية في الأناضول، والعمل على إعاقتها. وباتخاذ إجراءات تعسفية ضد مصطفى كمال - الذي فكر في إنقاذ الوطن بإثارة حركة مقاومة شعبية في الأناضول- مثل السعى لعزله من مفتشية الجيش، وتجريده من الأوسمة، واستدعائه إلى استانبول لمحاكمته والحكم عليه بالإعدام[329].

للجمهورية. تولى زعامة حزب الشعب الجمهوري في الفترة (1938- 1972)، وتوفى عام 1973. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 292

[325]-İnönü'nün Hatıraları, "Ulus Gazetesi", 24 Temmuz 1968

[326]- Ahmet Reşit Rey, " Gördüklerim,Yaptıklarım", a.g.e. s. 299

[327]- Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.264

328- انظر- مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص 7 وانظر أيضا

-Turgut Özakman, "Vahidettin, M.Kemal ve Milli Mücadele", Bilgi Yayınevi, Ankara 2005, s.201-280

[329] - Şükrü Tezer, "Atatürk'ün Hatıra Defteri", a.g.e. s.139

الحقيقة أن مصطفى كمال توجه إلى الأناضول بعد أن عينه السلطان وحيد الدين مفتشاً على الجيش التاسع، بهدف أساسي وهو تنظيم حركة مقاومة شعبية في الأناضول من أجل تحرير البلاد، وتحقيق الاستقلال، وإنقاذ مقامي السلطنة والخلافة. واتفق السلطان - الذي كان يخشي انتقام الإنجليز، والقضاء على عاصمة الخلافة - مع مصطفى كمال على بقاء هذا الهدف سري. أما الهدف المعلن فهو تحقيق الأمن والاستقرار في المناطق الموكل التفتيش فيها. ولذلك ذهب مصطفى كمال إلى الأناضول باعتباره نائباً عن السلطان، لإنقاذ الوطن من المحتلين. ومنحه السلطان فرمان يخوله صلاحيات مدنية وعسكرية واسعة في المناطق المكلف التفتيش فيها، ليتمكن من تنظيم مجموعات المقاومة الشعبية في حركة واحدة منظمة تحت إدارته، لطرد قوات الإحتلال[330].

فالسلطان وحيد الدين هو أول من فكرفي قيام حركة مقاومة شعبية موحدة للحصول على الحقوق التركية بعد كارثة الحرب العالمية الأولى، وبعد سقوط الدولة العثمانية. أما مصطفى كمال فهو تزعم هذه الحركة. والسلطان هو الذي رأى أن إنقاذ الوطن لا يكون من استانبول الواقعة تحت احتلال الحلفاء، فأرسل الضباط الذين يثق بهم إلى الأناضول، وأعد لحرب الاستقلال، وقام بتهريب الضباط والذخيرة الحربية والنقود إلى الأناضول[331].

فحركة المقاومة الشعبية اندلعت بتلقائية في كافة الأنحاء، وشملت الأمة كلها. فلم تكن من فعل شخص واحد، فهى ثورة أمة، وليس لمصطفى كمال ولا لعصمت إينونو دوراً كبيراً فيها. فحين اندلعت الحركة في الأناضول، كان مصطفى كمال في استانبول، بعيداً عن أي عمل ثوري. كان حينئذ منشغلاً بأمور أخرى، فقد كان يسعى لتولي وزارة الحربية. وعندما قرر السلطان إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، أثار هذا قلق الكثيرمن الأتراك، فسعوا إلى منع إرساله، ومنهم الصدر الأعظم توفيق باشا، فقد أرسل مع رفيق بك، مدير الخزينة الخاصة، خطاباً للسلطان يقول فيه: "لاترسل مصطفى كمال، إرسل أحداً غيره"[332]. كما أرسل أنور باشا برقية بالشفرة إلى السلطان وحيد الدين في استانبول، يقول فيها: "إن إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، سيكون بداية مصائبنا"[333].

أما بالنسبة لاستدعاء مصطفى كمال إلى استانبول، فحقيقة هذا الأمر هو أن قوات الحلفاء ارتابت في تحركات مصطفى كمال في الأناضول، فقدموا إحتجاجاً لدى الوزارة القائمة في استانبول المحتلة - وهى وزارة فريد باشا الثالثة (21 يوليو 1919 – 30

---

[330] - Mevlanzade Rıfat, "Türkiye İnkılabının İç Yüzü", Pınar Yayınları, İstanbul 1993, s. 209

[331] - Hüseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", a.g.e. s. 976

[332]- Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 208-210

[333] - في تلك الأثناء كان أنور باشا قد هرب إلى روسيا، بالقرب من الحدود التركية الشرقية. وكان يريد الرجوع إلى تركيا، وقيادة حركة المقاومة، وأرسل برقية يقول فيها راجياً: "دعوني أشترك معكم ولو كجندي بسيط، ولكن مصطفى كمال رفض هذا الرجاء". انظر الرجل الصنم ص 180،181

سبتمبر 1919) - مستندين إلى أحكام الهدنة المعقودة في عهد الوزارة السابقة، وطالبوها باستدعاء مصطفى كمال الذي لم يجب الدعوة. فهدد الحلفاء بمواصلة الحرب ضد تركيا، فاضطرت الوزارة إلى إقالته من منصبه، وعرضت القرار على السلطان وحيد الدين لكنه لم يوافق عليه، وأوصى بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة. ولكن مصطفى كمال رفض العودة، وتكررت دعوته، وتكرر رفضه العودة، وتكرر رفض السلطان التوقيع على قرار إقالته. واستمر احتجاج الحلفاء، فاضطر السلطان إلى التوقيع مكرهاً على قرار الوزارة بإقالته، فأعلن مصطفى كمال استقالته من الجيش. وبرغم إقالة السلطان له مكرهاً، لم يصدر ضده أي أمر، بل قام بإقالة الوزارة التي طلبت إقالته في 2 أكتوبر 1919، وأتى بوزارتين ملائمتين لحركة المقاومة الشعبية التي يتزعمها مصطفى كمال. وهى وزارة علي رضا باشا ووزارة صالح باشا[334].

وفي الوقت الذي رفض فيه مصطفى كمال العودة إلى استانبول، أرسل برقية إلى السلطان وحيد الدين - باعتباره هو الذي أرسله إلى الأناضول - أكد فيها على ارتباطه هو وجميع من في الأناضول من مدنيين، وعسكريين، بالسلطنة والخلافة. وأوضح له أن الجميع هناك يسعون إلى تحرير الوطن، وحماية السلطنة والخلافة. وأكد للسلطان أيضا في هذه البرقية، أن الإنجليز يهدفون إلى عودته هو والوطنيين الذين يخدمون الوطن حتى يتسنى لهم السيطرة على البلاد. وأعلن أنه سوف يستقيل من وظيفته، ويعيش في الأناضول كمواطن عادي، ويستمر في كفاحه لتخليص البلاد من المحتلين، وحماية السلطنة والخلافة، إذا أصرت الحكومة على عودته[335].

إن السلطان وحيد الدين لم يكن في أي وقت من الأوقات ضد حركة المقاومة الشعبية، بالعكس فهو ساندها منذ البداية وحتى النهاية، وهو الذي حاول إقناع مصطفى كمال بالذهاب إلى الأناضول، ومنحه خطاً همايونياً. فالسلطان وحيد الدين هو الذي شكل حكومة على رضا باشا، وأجبر فريد باشا على الاستقاله لأنه لم يوافق على قرارات مؤتمر سيواس، كما سعى بكل جهده حتى أخر لحظة، من أجل إزالة عدم التفاهم الذي أحدثه الإنجليز بين أنقرة واستانبول. وكان السلطان وحيد الدين يدعو جميع المسلمين إلى الجهاد مع القوة الشعبية التي تحارب في الأناضول، ودعمها بالدعاء بالنصر وبالمال. كما كان يدعوا كبار أئمة استانبول إلى حث المواطنين على الانضمام إلى هؤلاء الذين يحملون السلاح ويحاربون العدو في الأناضول، وأدت دعوته تلك إلى ذهاب الكثير من المواطنين إلى الأناضول، وتقديم مساعدة كبيرة للمجاهدين[336].

---

[334] - مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص 452 - 457 . انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق أرقام (30 ، 31) ص 327، 328 - كان مصطفى صبري، شيخ الإسلام يتولى في ذلك الوقت الصدارة العظمى بالنيابة عن فريد باشا الذي ذهب إلى باريس لحضور مباحثات السلام هناك.

[335] - ATATÜRK, Gazi Mustafa Kemal, "Atatürk'ün Söylev ve Demeçleri", c.1, Toplayan: Nimet Arsan, Türk ınkılâp Tarihi Enstitüsü Yayını, II. baskı, Ankara 1961, s. 15-17

[336]- Huseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", a.g.e. s. 976

يقول نجيب فاضل قيصه كورك: "ـ عندما كانت تبلغ السلطان وحيد الدين أنباء انتصارات حركة الأناضول، لم يكن يعرف ماذا يفعل من شدة سعادته. وبعد انتصار (دوملوبينار) تم عمل استقبال رسمي في جامع السلطان سليم بأمر السلطان، وذهب هو إلى هناك وقرأ الفاتحة على الشهداء. وعندما كان يحدث انسحاباً أو فقداً للأراضي كان يحزن حزناً شديداً. وقد بلغ به الحزن أقصى حد أثناء معركة صقاريا والانسحاب، حيث كان خوفه من احتمال سقوط أنقرة يبلغ حد الجنون. أي خطأ صغير يحدث كان يحزنه، ويجرحه. وأي نجاح صغير يتحقق، كان يجعله يطير من السعادة. فوحيد الدين لم يقف أبداً ضد من قاموا بالحركة الشعبية، فقد كان في أشد خوف، واضطراب لاحتمال أن يخسر هؤلاء المحاربين حربهم. وشعوره هذا كان صادقاً إلى أقصى درجة. فالألم الذي تحمله لم يتحمله أي حاكم في التاريخ. وعندما تحقق النصر كانت تُقرأ قصائد المولد على أرواح الشهداء، كما أقام السلطان صلاة شكر في قصر دولمة باغچة"[337].

وعندما دخل الجيش التركي إلى إزمير، وانتهت الحرب على اليونان، أمر السلطان بقراءة المولد الشريف في جامع آياصوفيا إبتهاجاً بهذا النصر، وحمداً لله، بل وذهب إلى هناك للصلاة، والدعاء بنفسه[338].

4. فتوى الحكم بإعدام مصطفى كمال

بعد مضي أكثر من عام على حركة المقاومة الشعبية، تقدم اليونانيون نحو قلب الأناضول حتى كادوا أن يصلوا إلى أنقرة. وعندما لم تقبل حكومة صالح باشا - وهى تُعتبر أخر الحكومات التي تحيرت بين المعاهدة والحركة الشعبية - تكليفات دول الحلفاء المناهضة للأناضول، وبعد ممارسة ضغوط مستمرة، تولى فريد باشا الحكومة للمرة الرابعة. وبتشكيل الحكومة الأخيرة هذه أصبحت استانبول رغماً عن رغبة السلطان، جبهة ضد الحركة الشعبية، واضطر السلطان إلى الخضوع والموافقة على أن يتولى الصدارة شخص مناهض لحركة المقاومة الشعبية. كما اضطر أن يتحمل الأزمة، وألا يبدو معترضاً على ذلك، ولم يكن أمامه سوى أن يدعو من كل قلبه للحركة بالنصر. وكانت هذه هى حكومة فريد باشا الرابعة، التي جاءت في وقت كان فيه السلطان وحيد الدين يراعي حركة الأناضول ويساندها سراً، ولكن علنياً، يتخذ موقف معارض للمقاتلين، ويحاول منعهم على أساس إنهم مخطئين، وهو موقف لا مهرب منه. وبينما كان السلطان وحيد الدين يتخذ موقف المناهض للحركة الشعبية، ممتثلاً لعدوه الذي لم يكن يعرف المدى الذي وصلت اليه الحركة حتى ذلك الوقت، كان في حالة معنوية تجعله مستعداً للتضحية حتى بروحه من أجل نجاح هذه الحركة، وإنقاذ الدولة والعرش. وهذا الموقف المتناقض عذبه لأقصى درجة، حيث كان ممزق القلب والعقل، واضطر من أجل سحق العدو الذي وضع قصره تحت الحصار، ومن أجل إنقاذ الأمة، أن يذعن

[337] Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 124,125

[338] - Goothard Jaeschke, "Kurtuluş Savaşı ile ilgili İngiliz Belgeleri", a.g.e. s. 251 ve Nizamettin Nazif Tepedlenlioğlu, "Ordu ve Politika", a.g.e. s. 367 -370

لقوات الحلفاء. فقد اتهمت الوزارة الجديدة مصطفى كمال بالعصيان والتمرد على السلطان، استناداً إلى فتوى أصدرها شيخ الإسلام (عبد الله دري زادة)[339]، طالب فيها بضرورة إعدام مصطفى كمال. وبسبب صدارة فريد باشا الرابعة، وخصومته الواضحة لحركة الأناضول، اهتمت الأمة كلها بتلك الحركة. والمجلس الذي تم فسخه بمعرفة فريد باشا، قام بتأسيس مجلس الأمة الكبير بممثلين جدد في أنقرة. وهكذا حصلت حركة المقاومة الشعبية على حقوق أساسية. وقام السلطان بإقالة وزارة فريد باشا، وكلف توفيق باشا- وهو من أنصار مصطفى كمال، ومنحاز للحركة الشعبية- بتأليف وزارة جديدة دامت في الحكم عامان، وذلك لإزالة التوتر بين حكومتي استانبول وأنقرة. وقد خدمت هذه الوزارة أهداف مصطفى كمال[340].

وعندما تولى توفيق باشا منصب الصدر الأعظم أمر بإلغاء حكم الإعدام الغيابي الذي كان قد صدر ضد مصطفى كمال، وأمر بإعادة الألقاب، مثل باشا وبك، التي كان قد أُمر بحجبها عن رجال المقاومة، كما أمر بإسقاط الحكم الذي يقول بضرورة محاكمة قادة المقاومة الشعبية أمام محكمة عسكرية، واعتبارهم وطنيين يدافعون عن الوطن[341].

وبالنسبة لعصيان الأناضول الذي اندلع في كل الأرجاء، نجد أنه من الأشياء التي ظهرت بنفسها نتيجة للوضع المتناقض للقصر الذي يدعم الحركة سراً، ويبدو أمام الجميع أنه ضدها. فكان موقف السلطان عبارة عن مجرد أنه أشار بقوله: "نأمل أن يتوقف هذا العصيان"، فلم يتدخل بالفعل، ولم يأمر صراحة بضرورة وقفه. كما لم يعلن انضمامه للعصيان ودعمه للحركة التي بدأت بالإتفاق مع القصر، ثم صارت ضده، حتى لاينكشف ما أراده أن يكون سراً، من أجل إنقاذ السلطنة والخلافة والحفاظ على عاصمة السلطنة استانبول من أن تضيع[342].

كانت فتوى إعلان أن مصطفى كمال واصدقائه عصاه، وأنه لابد من الحكم بإعدام مصطفى كمال، بمثابة فرصة استغلها من اتهموا وحيد الدين بالخيانة. لأن المعروف أن عدداً من شيوخ الإسلام في الوزارة تم الضغط عليهم من جانب الإنجليز لإعلان تلك الفتوى، ولما رفضوا ذلك تم تعيين دري زادة شيخاً للإسلام حتى يصدر هذه الفتوى. يعني أن إصدار هذه الفتوى جاء نتيجة لضغط الإنجليز، وكان إصدارها في تاريخ 11 ابريل 1920. في ذلك التاريخ كان مجلس الأمة التركي الكبير في أنقرة لم يجتمع حتى تلك اللحظة، ولم تكن هناك أي أحداث تجعل السلطان ينفعل ويصدق على هذه الفتوى. فحتى ذلك التاريخ كانت جميع بيانات مصطفى كمال وأصدقائه تفيد أنهم مرتبطون

---

[339] - صدرت هذه الفتوى في 10 ابريل عام 1920، ومضمون الفتوى كالتالي:
إن أعضاء حركة المقاومة الشعبية كفار، وقتلهم فرض، ومواجهتهم واجبة، وعدم مواجهتهم يعتبر ذنباً، ومن يقتلهم يصير غازياً. انظر ملحق الوثائق ص297، وثيقة رقم (32) ص 329

[340] - مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مرجع سبق ذكره، ص 452 - 457

[341] - Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 221

[342] -Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 139

بالخلافة والسلطنة، كما أن العلاقات بين أنقرة واستانبول لم تكن قد ساءت بعد. فقد كان مصطفى كمال خلال فترة وجوده في الأناضول حريصاً على إبراز تأييده وارتباطه بالسلطان، وظهر ذلك خلال مؤتمر أرضروم في 23 يوليو 1919، حيث توضح المادة رقم (2) من مطالب مؤتمر أرضروم هذا الارتباط. إذ تقول المادة: "ضمان سلامة الوطن العثماني، ومصونية مقامي السلطنة والخلافة، واستقلال الأمة". كما نجد نفس التعبيرات التي تدل على مناصرة مقامي الخلافة والسلطنة في مؤتمر سيواس في 9 سبتمبر1919، حيث كان مصطفى كمال يشير إلى الخلافة والسلطنة بقوله: "مقام الخلافة العالي ومقام السلطنة ". كما أرسل مصطفى كمال قبل افتتاح المجلس عدة برقيات إلى السلطان يعلن فيها ارتباطه بالسلطان. وأحد هذه البرقيات أرسلها من أرضروم حيث ينهي هذه البرقية بجمله يقول فيها: "إنني عبدكم الصادق دائما الذي يطمع في رضائكم ودعمكم".

وقال فوزي چاقمق - الذي انتقل إلى مجلس الأمة الكبير في أنقرة في 27 مايو، موفداً من قبل السلطان وحيد الدين - في المناقشة التي تمت في أول ظهور له في المجلس: "بناءً على علمكم فإن تلك الفتوى قد أُصدرت بحراب الإنجليز". وكان المجلس يقابل البيانات التي يدلي بها فوزي چاقمق بالتصفيق. أما الحكم بإعدام مصطفى كمال فقد صدر في24 مايو 1920. إذاً كيف يرسل السلطان فوزي چاقمق إلى الأناضول من أجل الانضمام إلى الكماليين، بعد أن يصدر فتوى إعدام مصطفى كمال؟ فهذا يوضح أن هذا كان من تدبير الإنجليز من أجل إسقاط السلطان ورجال السياسة من عين الشعب.

فهذه البيانات التي توضح مدى الارتباط بالسلطان وحيد الدين في تلك التواريخ، توضح أن قرار الإعدام ليس قرار وحيد الدين، ولكنه صدر بسبب ضغط الإنجليز. وهناك عديد من البيانات أدلى بها مصطفى كمال وأصدقائه من على كرسي مجلس الأمة التركي الكبير توضح أن حكم الإعدام هذا لم تعطِ له أنقرة أية أهمية، وتوضح أنه فُهم على أنه مناورة سياسية. والمعروف أنه عند صدور فتوى من شيخ الإسلام ينبغي أن نعرف في أي ظرف خرجت هذه الفتوى. ولما كانت هذه الفتوى قد صدرت نتيجة لضغط الإنجليز، لذا فإن هذه الفتوى باطلة ولا تأثير لها. وفي النهاية فإن السلطان قد أوفد فوزي چاقمق إلى أنقرة، وأوضح من على كرسي المجلس أنها خرجت بحراب الإنجليز وبضغطهم. كما أعلن مفتي الأناضول والوعاظ هناك، أن الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام بضغط من قوات الاحتلال، باطلة ولا تفرض حكماً"[343].

ويوضح البيان المنشور بقرار مجلس الأمة الكبير، في أي صورة تم فهم هذه الفتوى. وهذا البيان بتوقيع مصطفى كمال باعتباره رئيس مجلس الأمة الكبير إذ يقول: "إن مجلس الأمة الكبير الذي تشكل من وكلائنا الذين جاءوا من كل أنحاء الأناضول، بعد أن فهم وسمع كل ما جرى، رأى لزوم أن يوضح إلى الأمة الحقيقة. إن بعض الخونة المغرضين، المدسوسين من طرف الإنجليز، ينشرون الأكاذيب من أجل خداعكم،

[343] - Tarık Mümtaz Göztepe, “Osmanlıların Son Padişahı Vahiddeddin Mütareke Gayyasında”, a.g.e. s. 268 , 269

وبقصد إحداث الفرقة بين أفراد الأمة. فهم يطرحون كلمة العصيان على السلطان والخليفة من أجل محوكم من جديد، أنتم وإخوانكم في الدين والملة. إخوانكم الذين تمسكوا بسلاحهم لمقاومة احتلال العدو لأطراف إزمير، وأنطاليا، وأضنه، وعينتاب، ومرعش، وأوروفه. إن مجلس الأمة يعمل من أجل إنقاذ خليفتنا وسلطاننا من ضغوط الأعداء، والحيلولة دون تقطيع أوصال الأناضول والاستيلاء عليه، وربط مقر سلطنتنا وعاصمتنا بالوطن الأم. وقد أقسمنا نحن ووكلائكم باسم الله والرسول الأكرم بأن كلمة العصيان التي اتُهم بقولها السلطان والخليفة، عبارة عن كذب والغرض منها هو محو القوات التي تدافع عن الوطن، بأيدي المسلمين المنخدعين، وترك الدولة بلا صاحب ولا دفاع. فلا تصدقوا الأكاذيب التي يصطنعها من أجل خداعكم هؤلاء جواسيس الإنجليز، حتى نستطيع إنقاذ وطننا المبارك من الحال الذي آلت إليه مصر والهند. فلا تستمعوا إلى السفلة الذين يريدون أن يجعلوكم تضربوا من الخلف إخوانكم الذين سقطت دماؤهم من أجل شرف أمتهم، ودينهم، والذين يدافعون من أجل عدم استيلاء العدو على وطننا. فالعدو يسعى إلى الاستيلاء على إزمير، وأضنة، وأورفة، ومرعش. وهؤلاء الخونة سوف نعاقبهم بناءً على قرار مجلس الأمة. ولتساعدوني على ذلك حتى لا يضيع ديننا، ووطننا، وتصبح أمتنا أسيرة. وإنني أعلن رسمياُ أنه باتحادنا لن يقدر العدو علينا. ولذلك يتعين علينا أن ننزع من أنفسنا ومن بيننا النفاق والشقاق، ولعنة الله على الخونة الذين يساعدون العدو. ورحمة الله وتوفيقه على الذين يعملون من أجل إنقاذ الوطن والأمة وسلطاننا وخليفتنا"[344].

وهذه الوثائق توضح أن لا مصطفى كمال ولا أصدقائه قد أعطوا أهمية للفتاوي المعهودة، بل استمروا في طريقهم. وبينما يسيرون في طريقهم لم يتوانوا عن إظهار ارتباطهم بالسلطان وحيد الدين وبمقام الخلافة. فهذه الفتاوي استغلها بعد ذلك بعض الكتاب من خصوم وحيد الدين كوسيلة لاتهام السلطان وحيد الدين بالباطل[345].

5. إرسال قوة إعادة الانضباط إلى الأناضول وحادثة آنزافور"جيش الخليفة"

عندما اشتعلت حركة المقاومة الشعبية في الأناضول، أرسلت قوات الحلفاء مذكرة إلى حكومة استانبول تدعوها إلى ضرورة إخماد هذه الحركة. ولما لم يُستجب لهذه المذكرة أُرسلت مذكرة أخرى أكثر قسوة تطالب بوجوب تأديب زعماء هذه الحركة، وهددت بأنه إذا لم يتم القضاء على هذه الحركة، وتهدئة الوضع هناك، فسوف تتولى هذا الأمر قوات الأمن اليونانية التي تنتظر الأمر بالتحرك في كريت، وأن الحلفاء سوف

[344]- ATATÜRK, Gazi Mustafa Kemal, "Atatürk'ün Söylev ve Demeçleri", c.1, a.g.e. s.15 ve "Tarih Vesikaları", M. E. Bakanlığı, Ankara 1941, s. 7 ve Zabıt Geridesi, c.1, 6.celse Ankara 1940, s. 60, 123 ve Zabıt Ceridasi, c.1, 6 İctima, Brinci celse, Ankara 1940, s. 114

[345] - Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 281

يفتحون أبواب استانبول وأدرنة أمام هذه القوات. وأمام هذا التهديد المباشر من جانب قوات الحلفاء، اضطرت الحكومة إلى تشكيل قوة إعادة الانضباط لمنع دخول القوات اليونانية إلى استانبول. وكانت هذه القوة عبارة عن قوة رمزية، فقائد قوة إعادة الانضباط - وهو سليمان شفيق باشا- كان تحت إمرته من 700 إلى 800 جندي. وقد جاء سليمان شفيق باشا مع هذه القوة بسفينة إلى إزميت، وعادت مرة أخرى بعد الانتظار فترة تزيد عن الشهر، دون أن يُسمح لها حتى بالنزول إلى البر[346].

كان تشكيل هذه القوة مجرد تمويه وخدعة للإنجليز، فلا يمكن أن يفكر السلطان أوالصدر الأعظم في محاربة القوة الشعبية[347] وهما يعلمان المدى الذي وصلت إليه هذه القوة. ويعلمان أيضاً أن 99 % من شعب استانبول، و80 % من شعب الأناضول منحازين تماماً للقوة الشعبية. هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن تشكيل جيش بالمعنى المعروف في الوقت الذي تعجز فيه الحكومة عن فرض كلمتها وحكمها ليس في استانبول فحسب بل أيضا في الأناضول، وفي الوقت الذي تعجز فيه أيضا عن دفع رواتب الموظفين. ولكن تهديد الحلفاء حيرالسلطان وحكومة فريد باشا الرابعة التي رأت - من باب المناورة السياسية- ضرورة إصدار أمر بتشكيل قوة باسم قوة إعادة الانضباط. كانت هذه القوة عبارة عن مجرد حركة توازن، وكان الهدف الأصلي من تشكيل هذه القوة مختلفاً، فقد كانت مجرد محاولة من حكومة فريد باشا لكسب الوقت عندما توالت مذكرات قوات الحلفاء التي كانت تحتل استانبول[348].

"فالسلطان وحيد الدين الذي ذكاؤه لا يختلف عليه اثنان، وجميع من اقتربوا منه شهدوا بهذا الذكاء، هل كان في تقديره أن يقوم جنود عددهم قليل كهؤلاء بالتنكيل برجال الحركة الشعبية؟" ولما كانت قوة إعادة الانضباط لم تقم بأي نشاط، فهذا كافٍ لإظهار أن هذه القوة كانت مجرد خدعة من أجل طمأنة الإنجليز. فأمام إلحاح الإنجليز رأت الحكومة أن تقوم بإصدار تصريح حكومي يدين الحركة الشعبية، وتشكيل مفرزة صورية، بدلاً من توجيه كلمة ضد قوات الحلفاء، وعصيان أوامرها، وبهذا يمنعون خطر التهديد[349]. وقد نبه السلطان على هذه القوات المتوجهه في الظاهر لمحاربة القوات الشعبية، أن لا تبدي أي مقاومة حقيقية، وأن تتقهقر من أول ضربة، وأمرهم سراً

---

[346] -Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 287

[347]- يقول إسماعيل حقي: "إن قوة إعادة الانضباط التي تشكلت لمواجهة القوة الشعبية بقيادة مصطفى كمال، المسئول عن تشكيلها هو الداماد فريد باشا وليس السلطان. فعندما أخبرت السلطان أن فريد باشا ينوي تشكيل قوة لمحاربة القوة الشعبية قال: (إن ذلك سيؤدي إلي كسر الأتراك بالأتراك). ولكن ثم تشكيل قوة رمزية كتمويه، وجزء كبير منها انضم بسلاحه وذخيرته ومخازن اسلحته إلى القوات الشعبية". انظر İsmail hakkı okday, "Yanya'dan Ankara'ya", a.g.e. s. 239-241

[348] - Tarık Mümtaz Göztepe, "Osmanlıların Son Padişahı vahideddin Mütareke Gayyasında", a.g.e. s. 268 ,269

[349] -Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.288

بالانضمام إلى القوات الشعبية، والمحاربة معهم ضد العدو[350]. فإذا كانت هذه لعبة سياسية برغم كل الشجب الظاهري، والحركات الفعلية، فهى تشكل نصراً كبيراً يُحسب للباب العالي الذي استطاع أن يحافظ تماماً على ماهية هذا النزاع المتوازن الذي بين استانبول وأنقرة بمهارة[351]. وكان قرار إنشاء هذه القوة في 18ابريل 1920، وفي 25 يونيو من نفس العام أُلغيت هذه القوة، بل أن عناصرها دخلت ضمن القوة الشعبية وصارت تحارب معهم[352].

أما بالنسبة لحقيقة حادثة آنزافور أو "جيش الخليفة" الذي أُتهم السلطان وحيد الدين بإرسالة للقضاء على الحركة الشعبية في الأناضول، وإشاعة الإرهاب هناك[353]، يوضحها ضابط مسئول، وهو (العقيد حسام الدين آرتورك)، رئيس التشكيلات الخاصة حيث قال:

"إن چركس آنزافور الذي مارس نشاطه في أطراف بيجا وكوجا إيلي، هذا الرجل الذي خالف حركة الأناضول، وداس بقواته المسلحة على الحركة الشعبية، والذي أراد إمحائها، كان يشغل في وقت ما رتبة بينباشي في خفر الحدود، وكان شركسياً وقد أُحيل إلى التقاعد بعد ذلك. وجد الإنجليز في هذا الشخص الرجل الذي يمكن شراؤه بالمال، وأمدوه بالمال الذي أراده، وبالرجال الذين طلبهم، ودعموا وحدته بالضباط الباحثين عن الشهرة والمال، وأخرجوا إلى الساحة قوة يُعتد بها وأسموها (جيش الخليفة). وكان تحت إمرة آنزافور قوات الصف الثالث (المشاه والفرسان والمدفعية). لكن عمر لطفي بك، ميرآلاي أركان الحربية، ورئيس الدائرة العمومية لأركان الحربية في استانبول، قام مع أصدقائه المحبين لوطنهم الذين يعملون في نفس الدائرة مثل نعيم جواد، بينباشي أركان الحربية والبينباشي جمال بك، باستبدال الأسلحة المقرر إرسالها للوحدات التي تحت إمرة آنزافور، واختاروا من مخزن السلاح أسوأ الأسلحة وأفسدها وأرسلوها لهم. وهكذا بعد مدة قصيرة تعطل عمل هذا الشركسي الجبار، ولم يستطع استخدام العدد الحربية السيئة التي في يده. ولكن الإنجليز أدركوا هذا الأمر، وقاموا بسد النقص، وأمدوا آنزافور بما يريده من أسلحة من مخازنهم هم. كما قام جميل طوبوزلي، ناظر المرافق في حكومة فريد باشا بقطع المخصصات الخاصة بجماعة الناهبين الذين سموا أنفسهم بـ (جيش الخليفة). ثم تم الإلغاء الكامل لهذه التشكيلات، وكان هذا تحدياً لرغبة ممثلي دول الحلفاء التي في استانبول"[354].

---

[350]- بعد تحقيق النصر للقوة الشعبية بوقت طويل، سأل مصطفى كمال (صبحي باشا)، قائد قوة الانضباط عندما جاء إلى محطة أنقرة لاستقباله: "كيف استطعت أن تقبل تلك الوظيفة؟" فأجابه قائلاً: "لكي أندحر أمامك". انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص 262

[351]- Hüseyin Hilmi Işık, "Saadet – i Ebediyye", a.g.e. s. 976

[352]- Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 177, 505

[353]- يقول محمد عارف في كتابه : "إن القوات الانضباطية إنضمت إلى القوات الشعبية" . انظر Mehmet Arif Bey, "Anadolu İnkılabı", a.g.e. s.38,45

[354]- Hüsamettin Ertürk, "İki Devrin Perde Arkası", a.g.e. s. 391

وجدير بالذكر أن وحيد الدين لم يستاء من قطع المخصصات، أو من إلغاء قوة إعادة الانضباط. وهكذا يتضح أن قوة إعادة الانضباط قد تشكلت بناءً على طلب الإنجليز،كما يتضح أيضا الدور الإنجليزي في حادثة آنزافور، ولهذا فإن اتهام وحيد الدين باطل[355].

ثانياً:اتهام السلطان بخيانة الوطن ومغادرة استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية

اتهم مصطفى كمال السلطان وحيد الدين بخيانة الوطن، وطلب حماية الإنجليز، والهروب من إستانبول، للحفاظ على حياته وخوفاً من المحاسبة[356]. وسار على نهجه بعض الكتاب المعاصرين الذين اتهموه بإنه لم يهتم أبداً بمشاعرشعبه وأمته، وإنه استطاع إنقاذ نفسه فقط بطلب حماية إنجلترا، وهى الدولة التي كان يثق في صداقتها[357].

الحقيقة أن السلطان وحيد الدين قد أعلن إنه مستعد للمحاسبة، وإنه لن يقدم استقالته، إذ كان هو نفسه يرغب في المحاسبة. فقد أعطى السلطان للصدر الأعظم، توفيق باشا في 4 نوفمبر 1922 بياناً لإرساله لمراسل صحيفة (آقشام) لنشره يقول: "إن حضرة السلطان لايريد أن يقدم استقالته في الوقت الراهن، وهو مستعد أن يُقدم للمحاسبة أمام الأمة"[358].

فقد ترك السلطان الوطن حتى لايتعرض للإهانة وهو الخليفة، مثلما فعلوا بالصحفي على كمال. وخاصة بعد قرار المجلس أنه خائن الوطن. وهو القرار الذي نشرته جريدة توحيدِ أفكار[359].

غادرالسلطان وحيد الدين الوطن على ظهر مدرعة قدمها له الإنجليز كخدمة له بعد أن لجأ إليهم، لأن استانبول كانت تحت الاحتلال الإنجليزي، ولم تكن هناك إمكانية أن يغادر الوطن بدون إذنهم وعلمهم[360]. ونظراً لظروف تلك الفترة، لم يكن السير في البحر آمناً سوى باستخدام سفن إنجليزية. مثلاً في سنوات حرب الاستقلال كان أعضاء وممثلي الحكومة في أنقرة الذين كان يتم إرسالهم إلي أوروبا في مناسبات مختلفة، يسافرون على

---

[355] - Cemil Topuzlu, "Seksen Yıllık Hatıralarm", Topuzlu Yayınları, İstanbul 1982, s. 203

[356] - مصطفى كمال (غازي) نطق، مرجع سبق ذكره، ص 352

[357] - Tevfik Bıyıklıoğlu, "Atatürk Anadolu'da", a.g.e. s.9

[358] - Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 275

[359] -Goothard Jaeschke, "Türk İnklabı Tarihi Kronolojisi", c.1, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara 1972, s. 512 ve Tevhid- i Efkar, 16 kasım 1922 ve 30 Ekim 1922 ve TBMM Zabıt Geridesi, c. 24 Ankara 1960, s. 251,272,291,297

[360] - يقول قدير مصر أوغلي: "إن الطائر نفسه في تلك الأيام كان لا يستطيع أن يطير خارج استانبول بدون إذن الإنجليز. ولنؤكد على ذلك يكفي أن نتذكر أن مصطفى كمال لكي يذهب إلى الأناضول، ومعه 23 ضابطاً، و48 شخصاً، وثلاثة خيول، وعربة، كان لابد أن يحصل على تأشيرة من الإنجليز. وليس مصطفى كمال فقط فأي شخص كان يريد أن يخرج من استانبول، ويذهب إلى الأناضول، كان لابد أن يحصل على تأشيرة من الإنجليز". انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 308

-انظر ملحق الوثائق ص 297، الوثائق المصدقة من المفوضية الإنجليزية في استانبول أرقام (33- 36) ص 330 - 333

متن طوربيدات فرنسية وإيطالية برغم العداء لإيطاليا وفرنسا ولإنجلترا. وحتى باقي أعضاء الأسرة العثمانية الذين تم نفيهم رسمياً، لم يغادروا استانبول على متن وسائل مواصلات تركية[361].

أسباب مغادرة وحيد الدين لوطنه

عندما دعت دول الحلفاء حكومة استانبول مع حكومة أنقرة لحضور مؤتمر الصلح معاً في لوزان بعد الانتصار على اليونانيين، أرسل توفيق باشا برقية إلى مصطفى كمال، أعلن فيها أفكاره بخصوص التحرك إلى مؤتمر الصلح. وهنا قام مصطفى كمال الذي أغضبه هذا، لأنه لا يريد أن يكون للدولة العثمانية أي وجود، بإلغاء السلطنة في 1 نوفمبر 1922، بقانون قدمه للمجلس. وأعلن بموجب هذا القرار الانقراض الأبدي للدولة العثمانية، وصار السلطان وحيد الدين من وجهة نظر أنقرة، حائزاً فقط على صفة "الخليفة". والسلطان وحيد الدين يعلم أنه لايجوز شرعاً ألا يكون الخليفة الذي يرعى شئون المسلمين جميعاً، صاحب سلطة كبيرة. فالسلطان وحيد الدين لم يغادر وطنه إلا بعد صدور هذا القرار، وتركه الوطن كان في 17 نوفمبر، أي بعد صدور القرار بـ 17 يوماً، فماذا حدث خلال هذه الأيام السبعة عشر؟[362].

بعد أن تمكن مصطفى كمال من إلغاء السلطنة في الأول من نوفمبر عام 1922 مما أنهى رسمياً الدولة العثمانية، وبعد اقتحام الكماليين حدود استانبول، ومحاولتهم الاستيلاء عليها، صار معلوماً أنه سيعقب ذلك بعض الإجراءات. سقط السلطان فريسة للقلق والاضطراب العميق وشعر أن حياته أصبحت في خطر، وخاصة بعد ما حدث للصحفي (علي كمال) الذي كان يناصر السلطان في كتاباته وكان ينادي بضرورة التمسك بالخلافة. إذ تم اقتياده من أحد الأندية في وضح النهار، تحت سمع وبصر شرطة الحلفاء، إلى حيث تم رجمه بالأحجار حتى مات. ولم يعد أحد من حاشية السلطان، أو خدمه أو وزرائه، أو حتى رئيس الوزارة نفسه، يقدر على الظهور في الشارع. وكذلك ما قاله (نور الدين) باشا - وهو قائد ذو نفوذ كبير، وقد جاء إلى إزميت مساء اليوم الذي سُحِل فيه علي كمال - أثناء استضافته للوفد الذي سيذهب إلى لوزان، في إنه يفكر في سحل وحيد الدين في وسط الشارع، بنفس الأسلوب الذي تم به سحل علي كمال. ولكن من أجل حماية حكومة رضا نور الذي كان حاضراً في هذه الاستضافة، أمام الشخصيات العسكرية، فسيكون الأمر بالنسبه لوحيد الدين أخف مما حدث لعلي كمال، حيث سيتم إحضاره إلى أنقرة ثم محاكمته[363].

---

[361] -Kadir Mısıroğlu, "Osmanoğullarının Dramı", a.g.e. s. 99, 107, 108.

[362]- قال السلطان لرفعت باشا الذي جاء نيابة عن القوة الملية إلى استانبول، مبدياً بوضوح إنه لا يعترف بقرار فصل الخلافة عن السلطنة: "لا يستطيع عزلي من منصبي إلا موكلي ذو الشأن." انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 293

[363]- روى يحيى كمال- الذي كان عضواً في الوفد الذي سيذهب إلى لوزان باعتباره أحد المستشارين - حديث نور الدين باشا الذي استضافه ضمن الوفد، عن السلطان وحيد الدين حيث قال: "إن شاء الله نأتي بوحيد الدين إلى جانب

وعندما أمر السلطان وحيد الدين بوضع الزينات في قصر (يلديز) والقصور الأخرى احتفالاً بالنصر وإنقاذ إزمير من الاحتلال اليوناني، تجمهرت جماعة أمام القصر وأخذت تهتف بشعارات معادية للسلطان مثل " ليُقهر الله وحيد الدين"، كما كُتبت نفس هذه العبارات فوق عربات الترام بالطباشير في ليلة المولد مما أصاب وحيد الدين بارتفاع في ضغط الدم. ومما زاد من حيرته واضطرابه، اقتراح (حاجي شكري)، ممثل ديار بكرفي المجلس في أنقرة، طرد وحيد الدين حيث قال: "إنني اقترح بسم الله أن يُطرد وحيد الدين السافل، الوضيع الذي تفوق سفالته وضعته، سفالة الشيطان لويد جورج". وكذلك ما دار في النقاش الذي أجراه مصطفى كمال في المجلس بمناسبة إلغاء السلطنة، إذ كلما ذُكر اسم وحيد الدين يصيح المبعوثين: "ليقهره الله"364.

وخلال تلك الفترة أيضا وقع حريق متعمد في القصر، فقد أرادوا إحراق السلطان والقصر معاً، ولكنهم لم يوفقوا في هذا، فأرادوا أن يعتقلوه ويقدمونه للمحاكمة والإعدام في أنقرة. كما كانت تصل إلى القصر يومياً خطابات تحقر من شأن وحيد الدين، وتحثه على ترك الوطن، كما كانت إحدى مهام رفعت باشا الذي جاء إلى استانبول نائباً عن القوة الشعبية، هى أن يجعل السلطان يغادر الوطن365.

وقد سبب هذا كله للسلطان ضغطاً نفسياً وروحياً، جعله يشعر أن حياته أصبحت في خطر، بعد أن كان يحاول خداع نفسه بأن الخوف من تعرضه للإعدام والمحاكمة خوف لا داعي له366. فأراد أن يتجنب ضرر السلطة الجديدة بعد فقده شرف السلطنة والخلافة. وقد ساعد كلام المحيطين به على تفكيره في مغادرة الوطن، فقد أوهموه بأن رحيله سيؤدي إلى تخفيف حدة الأزمة التي سيتعرض لها. فبدأ السلطان وحيد الدين يستحسن فكرة ترك الوطن، وانتشرت أفكار السلطان حول اعتزامه مغادرة استانبول، خارج قصر (يلديز)، حتى أن صحيفة (آچيق كَوز) التي تصدر في (قسطموني) ظلت شهوراً تكتب هذا العنوان الرئيسي:(هل يترك الذات الشاهانية السلطنة؟). وفي 7 نوفمبر كتبت صحيفة (يني شرق)، وهي إحدى الصحف المشهورة التي خضعت لأوامر إدارية كانت تأتي من أنقرة، تقول: "ماذا ينتظر السلطان السابق؟ بمن يرتبط؟ حتى يتخذ قراره بالانسحاب والذهاب الذي سيُعد بمثابة أكبر خدمة يمكن أن يقدمها للدولة العثمانية حتى وإن لم تعد سلطنته؟". وكان هذا بمثابة إنذار للسلطان بالرحيل. هذا عن صحف

علي كمال ونقتص منه". لكن رضا نور، العضو الثاني في الوفد لم يعجبه كلامه، ونظر إليه بدهشة، فاستطرد نور الدين قائلاً: "سوف نخرجه من إينابولي ونحضره إلى أنقرة، فلابد من محاسبته". انظر Yahya Kemal Beyatlı, "Ali Kemal", Meydan Dergisi, Sayi 5, 16 Şubat İstanbul 1965, ve "Siyasi ve Edebi Portreler", İstanbul 1968, s. 95

364- M. İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.16

365- كان تعليق السلطان على الحريق: "وهل يهم بعد حريق الوطن، حريق منزلي؟". انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.294

366 -İlhan Bardakçı, "Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e", a.g.e. s.107

استانبول، أما الصحف الأجنبية، فقد كانت على يقين من رحيله، وتخمن أيضا موعد الرحيل367.

فكر السلطان وحيد الدين في الرحيل بعد أن فقد الأمل من محاولة إقامة حوار أخير مع مصطفى كمال الذي كان يأمل أن يرحل السلطان وحيد الدين عن الوطن حتى لا تكون هناك "ثنائية"، ويحدث اختلاف في الرأي عند مناقشة أي مسألة، وحتى لا تحدث أزمة في النظام. كان مصطفى كمال يرى أنه بتحييد الباقين من أسرة آل عثمان، مع احتمال تهديدهم للنظام الجديد المزمع إقامته، يمكنه توسيع مجال المناورة والحصول الاستقلال. وكان الإنجليز الذين يحتلوا استانبول مقتنعين بذلك أيضا حيث قالوا: "إنها أفضل نتيجة يمكن أن تتحقق للكماليين"368.

ولما كان مصطفى كمال يرى أن إبعاد وحيد الدين عن الدولة، هو أحد شروط تأسيس النظام الجديد، أمر رفعت باشا - دون علم الحكومة- بعدم منع السلطان من الهرب إذا كان يرغب في ذلك. وبذلك يتخلص من السلطان الذي خلعه عن عرشه، ويضعه في موقف الذي يفر من وطنه، دون أن يكون هو الذي اضطره إلي ذلك، ولكنه اتخذ قراره بنفسه369. وبذلك يتجنب مصطفى كمال ردود الأفعال التي كانت ستنجم عن انفعال الشعب والمثقفين المنحازين للسلطان، دون ضرورة الالتجاء إلي أساليب مختلفة أخرى370. وفي هذا السياق يقول رفعت باشا: **"إذا قام الإنجليز بتهريب السطان، لن تغفر الأمة التركية لوحيد الدين هذا ابداً، أما إذا تعرضنا نحن له، فلن تغفر الأمة التركية لنا هذا أبداً. فلننتظر حتى يرحل هو بنفسه، وعندئذ تصبح مهمتنا أسهل"[371].**

---

[367]- اعترف الدكتور (رشاد باشا)، طبيب السلطان الخاص، في خطاب له تركه بعد موته في سان ريمو، يقول فيه: "اعفو عني يا سيدي. فقد خدعتك، وجعلتك تخرج من وطنك، وأحضرتك إلي هنا. إنني أخذت الأمان من الأناضول، لكنني كذبت عليك، وقلت لك إنهم سيستدعوننا جميعاً، أنت ونحن، بعد فترة ويمزقوننا ويقتلوننا. وأخافتك بقولي إنهم سيتهمونك أنت وأسرتك بخيانة الوطن، وسيشنقونكم جميعاً، وجعلتك تتخذ قرار مغادرة الوطن تحت هذا التأثير. إن الإنجليز أيضا خدعوك وخدعوني واستغلوني." انظر

- M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.16

[368] -Gotthard Jaeschke, "Türk Kurtuluş Savaşı Kronolojisi", C.2, a.g.e. s.12 .

[369] -Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 117

[369] -Mustafa Müftüoğlu, "Cumhuriyet Tarihinde Mühim Olaylar", T.T.K. Yay, Ankara 1988, s. 160

- يقول قليچ علي في مذكراته: "إن أنقرة كانت تعلم باستعداد السلطان لمغادرة استانبول". انظر Kılıç Ali, Hatıralarını Anlatıyor, Sel Yay., İstanbul 1955, s. 115

[370] - قال اللورد الإنجليزي (كينروس): "إن الجمهوريين تجنبوا أن يضعوا أنفسهم في موقف سيء، كأن يعتقلوا السلطان مثلاً ويرحلوه إلي المنفى. فقد بدا في موقف الهارب بناءً على رغبته وبمساعدة الكفار. وفي الوقت الذي كان يبدو فيه السلطان مظلوماً، أصبح موضع حقارة العالم الإسلامي كله وكراهيتة". كما قال: "رأى الغازي، الذي وضع في حسابه رد الفعل الذي سيأتي من الشعب نتيجة إجباره السلطان على مغادرة وطنه، أنه من المناسب أكثر انتظار ما ستسفر عنه الأحداث". انظر

Kinross Balfour Patrick, "Atatürk", C.2, çev. Ayhan Tezel, Sander Yayıncılık, İstanbul 1966, s. 535,538

أدرك السلطان وحيد الدين أن حياته صارت مهددة، ليس من جانب الإنجليز المحتلين بل من مصطفى كمال نفسه الذي خان ثقته وانقلب عليه، وخاصة بعد علمه أنه ينوي محاكمته ونفيه أو إعدامه[372]. وبهذا وجد السلطان وحيد الدين أنه لا مخرج مما هو فيه سوى الخروج من الوطن. فيتخذ قراره نتيجة للظروف المحيطة به، قراره الذي ساقه إلى النهاية التي لم ينتظرها، ولم يكن يريدها، ويفكر في مغادرة الوطن. ويطلب اللجوء السياسي- باعتباره أخر ممثل للأسرة العثمانية- من المفوضية الإنجليزية في استانبول، حتى لا يتسبب في شن حرب داخلية دموية داخل الدولة، وحتى لا يتسبب أيضا في الإضرار بشرف السلطنة، ويسقط عظمة الدولة العلية[373]. فالسلطان وحيد الدين لم يهرب بصفته السلطان، لكنه رحل بوصفه فرداً عادياً. فقد أُلغيت السلطنة في أنقرة بإطلاق 101 طلقة مدفع. وبعد أن خُلع من عرشه وبعد أن جردوه من جميع ألقابه، لم يتبق له سوى نفسه. وبعد أن أصبح فرداً عادياً أصبح من حقه أن يرحل[374].

وبقبول الإنجليز طلبه، يودع وطنه في صباح يوم 17 نوفمبر 1922، علي ظهر المدرعة الإنجليزية (مالايا) صامتاً وحزيناً. فقد تحمل كل هذا في سبيل وطنه، وكان يضحي بنفسه في سبيل سعادة وطنه وسلامته. ولم يفقد وحيد الدين الأمل أبداً في عودته مرة أخرى ذات يوم إلى الوطن. وبعد رحيل السلطان أبلغ رفعت باشا، مصطفى كمال باشا بالخبر الذي أسعده كثيراً، وشعر أنه حقق رغبته، وقال لرفعت باشا: "إنني أشكر الجنرال (هارينجتون) لأنه خلصنا من حمل ثقيل"[375].

يقول الشيخ مصطفى صبري عن السلطان وحيد الدين: "لايوجد أحد في الدنيا ائتمن أحداً وأولاه ثقته، كما ائتمن وحيد الدين، مصطفى كمال. ولا أحد خان أحداً وغدره، كما خان مصطفى كمال، وحيد الدين." ويقول أيضا: "إن هذا السلطان الذي فقد عرشه ومات غريباً وفقيراً، والذي طالت ضده ألسنة الدعاة المفترين من أنصار الجمهورية اللادينية في الشرق، وأعداء الخلافة الإسلامية في الغرب، قد غلبه مصطفى كمال مستغلاً وطنيته البالغة في التحمس مبلغاً لم يُبقِ لنفسه شيئاً من التحوط والتردد في الثقة بذمة الرجل وأمانته، حتى قال له بعض رجال الترك المعاصرين له: (هذا الرجل لا يُستبعد أن يغتصب عرشك)، فكان جواب السلطان ملحّاً على ثقته به: (ليخدم الوطن وليغتصب عرشي)"[376].

ويوضح السلطان وحيد الدين بنفسه في مذكراته، سبب مغادرته استانبول بقوله: **"إنني غادرت استانبول وظللت حتى النهاية متمسكاً بإيماني، لكن خصومي لم يتوقفوا عن**

---

[372] - Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s.225

[373]- يقول عمر ياور باشا: "كان السلطان لايستطيع الإمساك بالقلم من أجل كتابة خطاب اللجوء، وبعد كتابته قام بتسويده مائة مرة. وبعد إعداده والانتهاء من كتابته، لم يستطع توقيعه." انظر M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 17

[374] - Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s. 245 .

[375] - M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 17, 23

[376]- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مرجع سبق ذكره، ص 451، 457

إذكاء نار العداوة، وقاموا بتشويه صورتي في الصحف، حتى إنهم هدموا حياتي وكل الأشياء المقدسة التي أحترمها. إنني تركت تراب الوطن من أجل أن أخرج وصورتي جيدة أمام العالم، عندما لم يصبح في إمكاني إبطال إفتراءات خصومي بينما انا في استانبول. فقد كنت مثل مانعة الصواعق. فقد أنقذت الدولة والشعب. فالصاعقة كانت ذات يوم ستصعق الدولة والأمة فتحملتها وحدي، واحترقت أنا، لكن تم إنقاذ الدولة والشعب، وهذا هو المهم، وأنا سعيد بهذه النتيجة. وليس همي بعد هذا العمر أن يُكتب على قبري كلمة سلطان"[377].

خزينة السلطان الخاصة

عندما كان السلاطين يريدون اقتناء شيئاً من قصر طوب قابي،كانوا يأخذونه مؤقتاً بناءً على إيصال، ثم يردون هذا الشيء وقتما يريدون. وكان لدى وحيد الدين أثراً قيماً باسم (قيامتنامة)، وعندما قرر مغادرة وطنه، أعاد هذا الأثر إلى الخزينة الهمايونية في قصر طوب قابي، وأخذ الإيصال الخاص به. ولما قيل له أن كل مافي الخزينة هو إرث أجدادكم، وإرثكم أنتم أيضا، فهى تشتمل على هدايا أجدادك كان رده: "إذا لم يكن أجدادي سلاطين هذا البلد، فهل كانوا سيحصلون على تلك الهدايا؟ إن هذه الهدايا هى ملك أمتي". ولم يكتفِ بهذا بل ترك باقي مرتب شهر نوفمبر للدولة عندما رحل في 17 نوفمبر، وقال عن هذا: "أنا لم أكمل عمل هذا الشهر، ولذلك فإن باقي المرتب ليس من حقي". وأعاد المرتب إلى الخزينة[378].

وهكذا عندما غادر السلطان وحيد الدين الوطن ترك خلفه خزينته الخاصة، وهداياه الخاصة، وثروة ضخمة كانت تكفيه لأن يعيش طيلة عمره في رغد من العيش، برغم احتمال عدم عودته إلى وطنه كسلطان مرة أخرى. وقد تركها برغم ضغط المقربين منه بأن يأخذها معه، حيث رفض ذلك بشدة ودون تردد. وخرج وليس في جيبه سوى 50 ألف ليرة تركية، وهى تساوي 20 ألف ليرة ذهب[379]. وعندما جاء المقدم (ريتشارد ماكسويل)، مستشار السير(نوفيل هاندرسون)، مساعد المفوض الإنجليزي في استانبول، إلى قصر (يلديز) في 11 نوفمبر 1922 وعرض على السلطان نقل جزء من ثروته إلى

---

[377] - M. İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.17,23

[378] - Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 98,99, 272

[379]- من الأشياء الثمينة التي خلفها وراءه، الطرة المزدانة بالألماس الخاصة بوالده السلطان عبد المجيد، وعلبة السجائر المغلفة بالمجوهرات، وهداياه كلها تركها في دائرة الخزينة وأخذ إيصال استلام. انظر M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.18

- عندما أصر المحيطين بالسلطان على أن ياخذ معه هداياه قال: "إن الأمانات المقدسة هي هدية أجدادي إلى الشعب التركي! فكيف أخذ مال شعبي ودولتي؟". انظر

- Tarık Mümtaz Göztepe, "Gurbet Cehenneminde", a.g.e.s.15

- İsmail Hami Danişmend, "Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi", c.1, Türkiye Yayınevi, İstanbul 1961, s. 423

-Refi Cevad Ulunay,"Bu gözler Neler Gördü?", Sebil Yayınevi, İstanbul 2004, s. 42

الخارج باعتبار هذا حق من حقوقه، رفض السلطان، وأشار إلى أن هذه الأموال هى ملك للدولة وليست ملكاً له[380].

وسهر السلطان ليلة رحيله يشرف على تعبئة المجوهرات، والأشياء الثمينة في صناديق، ثم سلمها إلى القائمين عليها وتركها ورحل[381]. فقد كان يهدف إلى ألا يشوب سجل أعماله أية شائبة، وألا يسد طريق عودته مرة أخرى[382].

وعندما غادر السلطان وحيد الدين وطنه، تم اتهامه بإنه استولى على الثروة الكبيرة من الخزينة العثمانية التي كانت في قصر يلديز، ولكن بعد التحقيق في هذا الإدعاء ثبت أنه اتهام باطل [383]. كما أثبتت المعاينات التي جرت في دائرة الخزينة، بعد مغادرة السلطان وحيد الدين، إنه لم يأخذ معه أي شي[384].

والبيان الذي جاء في الصفحة الرابعة من صحيفة (وطن) بتاريخ 3 يونيو 1951 الذي أدلي به (صالح كچه چي)، نائب استانبول، ورئيس الجلسة الخاصة بالتدقيق في الحسابات التي تشكلت في مجلس الأمة الكبير، هو دليل آخر على أن وحيد الدين، قام بتسليم مقتنياته كلها إلى الخزينة الهمايونية قبل مغادرته الوطن، في مقابل إيصال استلام بمعرفة رفيق بك، ناظر دائرة الخزينة[385].

الضغوط التي تعرض لها السلطان وحيد الدين في الغربة

رحل وحيد الدين إلى إيطاليا، وفي ميناء جنوة استقبله (فيكتور إيمانويل)، ملك إيطاليا والديكتاتور (موسوليني)، والبرنس (عزيز حسن)، حفيد الخديوي اسماعيل باشا الذي أشار على وحيد الدين بأن يستقر في سان ريمو، وهى إحدى المدن الساحلية الإيطالية في الريفيرا التي تقع في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا. ثم استضافه في فندق متروبوليتان.

---

[380]- يقول نجيب فاضل قيصه كورك: "هنا لابد أن نتخيل مدى إحساس التضحية والقناعة التي في روح هذا الحاكم، حتى الهدايا الشخصية يعيدها إلى الخزينة الهمايونية، بينما كان في إمكانه وهو السلطان الذي سيرحل، وفي معيته جيش من أسرته وأهله، إلى عالم مجهول، أن يفرغ هذه الخزينه تماماً حيث أنها خزينته الخاصة. ولكنه لم يفعل. كان كل ما معه من مخصصات السلطنة عبارة عن 50 ألف ليرة تركية. وكان يستعد للرحيل بهذا المبلغ البسيط، ومعه معية ضخمة، وإلى بلاد غربة". انظر Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.243

[381] - Kinross Balfour Patrick, "Atatürk", c.2, a.g.e. s.536-537 , ve Johannes Glasneck, "Kemal Atatürk ve Çagdaş Türkiye", çev. Arif Gelen, Onur Yayınları, Ankara 1976, s. 210.

[382] - Tarık Mümtaz Göztepe, "Gurbet Cehenneminde", a.g.e.s.103

[383]- قرار البراءة هذا موجود تحت القيد في أرشيف المجلس. انظر Bardakçı, "Son Güne Bağlanan Yalan", Zaman Gazetasi, 16 Kasım 1994

[384]- الجلسة الخاصة بهذا الأمر مقيدة تحت رقم (35) في أرشيف متحف قصر (طوب قابي)، ومحفوظة تحت هذا العنوان (دفتر القيودات السائرة والمراسلات الخاصة بدائرة الخزينة الهمايونية). انظر Kadir Mısıroğlu, "Sarıklı Mucahitler", Sebil Yayınevi, İstanbul 1981,s.90

[385] - İsmail Hami Danişmend, "Izahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi", c.4, Türkiye Yayınevi, İstanbul 1972, s. 44

استقر وحيد الدين في فيلا بارودي في جناح مكون من حجرة نوم، وصالون صغير وحمام. ولكن الفيلا كانت صغيرة على المعية، ولما أحس بقرب التحاق أسرته به بحث في نفس المنطقة، واستأجر قصراً يحتوي على 40 غرفة، وحديقة كبيرة، وكانت فيلا مفروشة. وكانت تُسمى قصر مانوليا أو فيلا مانيولي. واستقر هناك حيث عاش حياة تخلو من البذخ[386]. وبرغم نقوده القليلة لم يقتر على أفراد معيته يوماً، بل حرم نفسه من كل شئ، وعاش في أواخر أيامه حياة أشبه بحياة الزهد بعد أن نفدت نقوده بسبب إسراف بعض أفراد معيته[387].

وبرغم فقره واحتياجه إلى المال[388]، رفض عرض ملك إيطاليا، بالتكفل بدفع كافة مصروفاته هو وجميع أفراد معيته، لأنه كان يريد أن يكون في الوضع الملائم في وجدان الشعب، وأن يظل نظيفاً خالياً من أية شائبة تشوب كرامته وشرفه[389].

وظل السلطان محمد وحيد الدين "الذي يليق بأن يشغل عدة صفحات، للتحدث عن مناقبه في روايات الملوك الذين تم نفيهم عام1923"[390]، محتفظاً بكرامته محافظاً على وطنه متتبعاً لأخباره حتى بعد رحيله. ولم يجعل من نفسه في أي وقت ألعوبة في يد الإنجليز أو الإيطاليين لتحقيق أمانيهم، في مقابل مساعدته في اتخاذ موقف عاجل ضد حكومة أنقرة، واستمالة العالم الإسلامي بلقب الخليفة الذي كان لايزال يحمله حتى ذلك الحين. واستمر الإنجليز في إلحاحهم على وحيد الدين وهو في سان ريمو، من أجل دعوته الشعب التركي لإعلان العصيان، ولتحقيق هذه الرغبة مارسوا ضده بشكل لايمس كرامته، جميع أنواع الضغوط المادية لكن بلا جدوى، حتى إنه رفض عرض الإنجليز بدفع مبلغ مالي كبير نظير تحقيق أهدافهم، برغم معاناته في أصعب لحظات حياته، حتى لا يحط من كرامته[391].

---

[386] - Refi'Cevad Ulunay, "Bu Gözler Neler Gördü?", a.g.e. s. 36,37

[387] - Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 247.

[388]-يقول حسن رضا سوياك- وهو صديق مقرب جداً لمصطفى كمال- في مذكراته في مجلد رقم (1): "من بين الأوراق التي أرسلها لي كچەچي زاده عزت فؤاد باشا- وهو أحد الجنرالات العثمانيين الذين استقروا في مصر والذي كان قد تعرف على مصطفى كمال في الجيش - وجدت خطاباً منه. خلاصة هذا الخطاب، أنه ذهب إلى سان ريمو وزار وحيد الدين، السلطان العثماني الأخير. وحكى كيف تناقش مع السلطان في زيارته، وكيف أبدى له السلطان الاحترام والتقدير. وأشار إلى أن السلطان، وهو عضو أسرة عريقة دامت ستة قرون، يعيش الآن في ضائقة مالية. وأن هذا كان واضحاً من حاله وتصرفاته، فهو لم يفصح عن هذا، كما لم يشر إلى أنه محتاج إلى المساعدة". وبينما أقرأ هذا الخطاب إلى مصطفى كمال، بدا عليه التأثر، وأغرورقت عيناه بالدموع، وإن كان قد أشاح بوجهه حتى لا أرى ذلك. انظر Hasan Rıza Soyak, "Atatürk'ten Hatıralar",c.1, a.g.e. s. 31

[389] - Necip Fazıl kısakürek, "Sultan Vahiduddin", a.g.e. s.267

[390]- مقالة مراسل صحيفة (إيكو دو باري) الفرنسية، في سان ريمو، في النسخة التي بتاريخ 11 سبتمبر عام 1923. وقد نُشرت هذه المقالة في الصفحة الأولى في صحيفة (رسمي جريدة)- وهي الجريدة الرسمية لمجلس الأمة التركي الكبير- في العدد رقم 25 بتاريخ 9 صفر 1342 (13 أيلول 1923). انظر

Tarih ve Medeniyet, "Sürgündeki Son Hükümdar", sadeleştiren: Ömer Farouk Yılmaz, Sayı: 43 Ekim1997, s.25

[391]- Doğu Ergil, "İngiliz Belgelerinden Osmanlı Ocagı,nın Sonusu", Milliyet Gazetesi, 30 kasım 1989 ve Yılmaz Çetiner, "Son Padişah Vahdettin",.a.g.e. s. 302

ورغم أن وحيد الدين قد فضل إيطاليا، بوصفها دوله آمنة يستطيع أن يحتمي بها من الإنجليز الذين كانوا يسعون لاستغلال لقب الخلافة[392]، فقد ناضل نضالاً شديداً هناك من أجل عدم خضوعه لرغبات الإيطاليين السياسية، برغم وقوعه تحت سيطرتهم بوصفه لاجئاً سياسياً. إذ قام الإيطاليون بأول حملة من أجل سحب وحيد الدين، إلى البيئة التي يريدونها. كانوا يفهمون أنه لا يستطيع القيام بأعباء مصاريف (فيلا مانولي)، ومصاريف معيته الكبيرة، بالإمكانيات المادية القليلة التي كان يمتلكها في (سان ريمو). فاستغل (فيكتور إيمانويل) ملك إيطاليا الفرصة، واقترح على السلطان أن يختار المنزل أو القصر الذي يريده، في المكان الذي يريده، وأنه بنفسه سيتكفل بكافة المصروفات. ورفض أيضا وحيد الدين هذا العرض بكل احترام[393].

وبعد هذه المحاولات التي لم تأتِ بأية نتيجة، اتجهوا إلى خطة أخرى، وهو زرع عميل ماهر يظل بجانبه حتى يجس نبضه. فيوصون السلطان بتعيين (مادموازيل نوروفينا)- وهى من (ضباط الخدمة السرية الإيطالية)- كمعلمة للأمير أرطغرل أفندي، لتربيته وتعليمه. وكان هذا بمثابة غطاءً لمهمتها الأساسية.

أما (موسوليني) فكان يهدف من وراء تكثيف اتصالات الملك (فيكتور إيمانويل) بوحيد الدين إلى هذه الدرجة، الانتفاع من لقب الخلافة الذي يحمله السلطان، وتنفيذ خطة احتلال جنوب غرب الأناضول. إذ كان (موسوليني) يرى أن: "انتزاع الإيطاليين للأناضول، حتى إذا كان بغاية إعادة وحيد الدين - الذي يحب الشعب التركي ويرتبط به إلى درجة العبادة - إلى العرش ، سيحقق حلم إمبراطورية روما". ولهذا السبب أرسل

---

[392]- عندما لجأ السلطان وحيد الدين إلى الإنجليز لمساعدته على الرحيل من استانبول، وجد (لويد جورج) رئيس وزراء إنجلترا أن اقتراح السلطان باللجوء إليهم يمكن الاستفادة منه من ناحية مصلحة إنجلترا، وأعرب عن وجهة نظره تلك بقوله: "لابد أن نقبل رغبة الخليفة الذي يلتجأ إلينا، لأن هذا الاقتراح يمكن أن يُستغل في سبيل تهدئة المسلمين في البلاد الأخرى، وخاصة في الهند التي أعلنت العصيان ضدنا أثناء عصيان الأتراك في الأناضول". انظر Ilhan Bardakçı, "Vahdeddin`den Mustafa Kemal`e", a.g.e. s. 110

-وحتى يحقق الإنجليز أهدافهم باستغلال السلطان وحيد الدين، تم إنشاء مكتب خاص في جهاز المخابرات الإنجليزية بعد أن غادر وحيد الدين الوطن، واستمر عمل هذا المكتب برئاسة (برودريك جون فيتزجيرالد) المسئول عن جهاز المخابرات، حتى وفاة السلطان. وتم تدعيم هذا المكتب بالجاسوس (لورانس) بعد ذلك. وفي أثناء تواجد السلطان في الحجاز، استمر الاتصال سراً بين الشريف حسين ولورانس الذي كان يرغب أن يرتدي الأمير حسين- الذي سيصبح صاحب عرش بعد ذلك- جبة الخلافة، وبذلك تُتاح له الفرصة للسيطرة على مصالح بلاده في شبه الجزيرة العربية لقرنين على الأقل بلا منازع. وروى لورانس هذا في الاجتماع الخاص الذي عقده في 3 مارس 1924، فقال: "إن موضوع الخلافة المثار في مناطق وسط وجنوب شرق الأناضول في تركيا يمكن الاستفادة منه. والسلطان السابق الذي في المنفى اليوم، يُعتبر عنصراً قوياً، وذو قيمة، ولابد من استغلاله. لكن لا أعتقد أن هناك شخصاً يستطيع تنفيذ عملية كهذه حول السلطان السابق في المنفي". انظر Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 136

- كان موضوع الخلافة يشغل الإنجليز منذ الحرب الأولى. انظر ملحق الوثائق ص 297، وثيقة رقم (37) وهى مكونة من 6 صفحات باللغة الإنجليزية، ص 334

[393]- كان هذا رد وحيد الدين: "إذا كنت قد افترقت عن عرشي مؤقتاً أو حتى دائماً، بسبب الوقائع والأحداث التي آلمت بدولتي، فإنني لا زلت أحمل صفة الخلافة. إنني الرئيس الروحي لجميع المسلمين، وأنا أجلس في مقام وكيل الرسول، وهذه الصفة تمنعني من قبول هذا العرض. وأرجوا أن تعذرني". انظر

- Refi Cevad Ulunay, "Bu Gözler Neler Gördü?", a.g.e. s. 41 - 43

تعليمات إلى ممثل إيطاليا في استانبول بأن يرسل له تقرير دائم عن الوضع في تركيا بعد إلغاء السلطنة. لكن هذا العرض مثله مثل عرض النقود لم يجد استجابة من وحيد الدين مما خيب آمالهم، وضيع أحلامهم. وفي النهاية عندما أدرك الإيطاليون إنهم لن يستطيعوا تحقيق أحلامهم عن طريق وحيد الدين، قطعوا اتصالهم وعلاقتهم به[394]. وهكذا لم يطلب السلطان وحيد الدين مساعدة فيكتور إيمانويل ملك إيطاليا، أوموسوليني نائبه، طيلة إقامته في إيطاليا. والمساعدة الوحيدة التي كان يطلبها هى حين يريد استخراج جواز سفر، أوالحصول على تأشيرات خروج له، ولمن يريد من معيته، إذا اقتضت الضرورة ذلك. وقامت الحكومة الإيطالية بوضع قصره تحت حراسة مشددة لحمايته، حتي يتعرض لأي ضرر[395].

رأي الكتاب المحدثين في ادعاء خيانة السلطان وحيد الدين

استمرالجدال طيلة 88 عاماً بين المدافعين عن وجهة النظر المعارضة، والتاريخ الرسمي. وأكسب بولنت أجاويد[396]، وهو رمز من رموز السياسة التركية، الأحداث بعداً جديداً. فرئيس الوزراء الأسبق هذا أعلن أنه ضد القول بأن وحيد الدين "خائن للوطن" إذ يقول: **"إن وحيد الدين كان مؤيداً بشكل واضح لحرب الاستقلال، وقام بتعيين توفيق باشا صدراً أعظم بعد الداماد فريد باشا، لأنه كان يساند حركة المقاومة الشعبية التي كان في طليعتها مصطفى كمال. وعندما غادر السلطان استانبول ترك للدولة كل ما لديه من ذهب ونقود، ولم يأخذ معه سوى مقدار قليل جداً من المال، وكان يستطيع أن يحمل معه كل ما يريد، إذا كان يرغب في ذلك. وهذا موقف منه جدير بالاحترام"**[397]. ويؤيده في هذا المؤرخون المحدثون مثل الدكتور أحمد أقگوندوز، رئيس أوقاف الأبحاث العثمانية، الذي يرى أن وحيد الدين كان سلطاناً دبلوماسياً جيداً، ضحى بنفسه في سبيل وطنه. ويعتبر أحمد أقگوندوز وصم الخيانة مجرد تصريح سياسي غير مدعم بالوثائق التي تثبته ويقول: **" إن أي اتهام وُجه إلى وحيد الدين بعد عام 1922، لا اعتبره قائماً على أساس تاريخي. فالسلطان وحيد الدين ومصطفى كمال عملا سوياً من أجل إنجاح الحركة الشعبية، لكن بعد النصر بدأت صحيفة الحاكمية الملية تقول إن وحيد الدين خائن للوطن. ولأن مصطفى كمال كان جمهورياً، هدم السلطنة وانقلب على وحيد الدين. أما وحيد الدين الذي كان كل همه إنقاذ وطنه وشعبه، كان يقول إن الوطن**

---

[394]- Bardakçı, "Şahbaba" , a.g.e. s. 94,131-134

[395] - Tarık Mümtaz Göztepe, "Gurbet Cehenneminde", a.g.e. s. 112

[396] - ولد بولنت أجاويد في استانبول في 28 مايو عام 1925. أُنتخب نائب عن أنقرة في حزب الشعب الجمهوري عام 1957. وفي عهد عصمت إينونو، تولى وزارة العمل. وفي عام 1966 أُنتخب سكرتير عام لحزب الشعب الجمهوري. وتولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات. كان أيضا شاعراً، وكاتباً، وصحفياً حيث عمل بصحيفة (أولوس) في الفترة 1950- 1956. قام بعمل دراسات في التاريخ العثماني، والشرق الأوسط في جامعة هارفارد في أمريكا. انظر Sina Akşın ve Değerleri, "Türkiye Tarihi", cilt.v, 1.Basım, Cem.yayınevi, İstanbul 1995, s.244

[397]- Ömer Şahin, Zaman Gezetesi, sayi,16 Temmuz 2005

والأمة في خطر. لايهم من الذي أنقد الوطن يكفي أنه قد تم إنقاذه، احضروا مصطفى كمال، إنني أريد أن اناقشه"398. وفي هذا الإطار يطالب دكتور حنفي بستان، وهو استاذ مساعد وعضو هيئة التدريس بجامعة مرمرة، بضرورة إجراء تحقيق شامل وجاد. كما يطالب بضرورة رفع اتهام الخيانة المذكور في الكتب عن وحيد الدين، لأن العمل الذي قام به السلطان - وهو إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول- إنما هو عمل عظيم. وإذا كانت هناك أخطاء ارتكبها السلطان أثناء احتلال الإنجليز استانبول، فهي أخطاء لم يرتكبها عن عمد، ولابد من تقييمها وفقاً لظروف ذلك الزمان، وهى ليست مبرراً لوصمه بصفة الخيانة399.

ويدافع الدكتور مراد بلجا، رئيس قسم الأدب المقارن بكلية الأداب، جامعة استانبول، عن وحيد الدين، فيتسائل قائلاً كيف يخون السلطان وطنه، فهل هو لايريد ملكه ودولته؟ وهو يرى أن سبب المعلومات الخاطئة المدونة بالكتب عن وحيد الدين، يرجع إلى الاتحاديين الذين شكلوا نسبة 80% من المحيطين بمصطفى كمال أيام حرب الاستقلال. بل ويرى أيضا أن مصطفي كمال نفسه، كان مدفوعاً من جانب الاتحاد والترقي400.

ويرى نظام الدين نظيف تبه دنلي أوغلي، وهو مترجم ومؤرخ محايد، أنه من الإنصاف أن نعترف بحقيقتين للسلطان وحيد الدين، وهما أنه لم يبحث عن مساعدة عسكرية أو طلب سلاح من الإنجليز ضد الأناضول، وبعد خلعه عن العرش لم يفكر في عمل أية مؤامرة ضد تركيا وهو خارج الدولة. ويرى نظام الدين أن مغادرة السلطان وحيد الدين لوطنه لا يُعتبر ذنب نظراً لظروف عام 1922، بل هو محق في ذلك. فإن لويس السادس عشر الذي أبدى بطولة، وتمسك بعرشه تم قطع رأسه، ونيكولا الثاني في روسيا، قضوا عليه لأنه لم يهرب ومكث في بلده. ولكن قيصر ألمانيا ويليام الثاني فر إلى هولندا وأنقذ نفسه، وفر أيضا شارل إمبراطور النمسا والمجر الشاب، وألفونس الثالث عشر ملك أسبانيا، وقنسطانطين الأول ملك اليونان، وأمان الله ملك أفغانستان، وكارل الثاني ملك رومانيا، وشاهنشاه إيران محمد رضا بهلوي[401].

والبروفيسور د. متا طونجاي، وهو من المؤرخين المحدثين، يرى أن الاتهامات الموجهة ضد السلطان وحيد الدين، كلام لا يُصدق، بل هو مجرد كلام مشوش من النظام الحاكم. ويؤيده في كلامه هذا كثير من المؤرخين الجادين[402]. إذ يعتقد د. متا طونجاي أن

---

398 ـ انظر مقالة بختيار كوچوك في Zaman Gezetesi, sayı 17 Temmuz 2005

399 ـ انظر المرجع السابق

400ـ يقول مراد بلجا: "إن السلطان وحيد الدين، والدماد فريد باشا، وعلي كمال كانوا ينفرون من الاتحاد والترقي الذين ارتكبوا أشياء كثيرة جعلت الناس تنفر منهم. وكان الكثيرون يرون أن حركة الأناضول هى حركة جديدة مناهضة للاتحاد والترقي، وهذا خطأ كبير." انظر المرجع السابق .

401 - Nizamettin Nazif Tepedlenlioğlu, "Hanedan ve Son Sultan", Yeni İstiklal, İstanbul 1967, s. 277

402ـ يقول ارنولد توينبي، وهوكاتب إنجليزي:"كان الإحساس السائد في أنقرة في البداية هو ضرورة تخليص الحكومة من أيدي الأجانب، وطرد قوات الحلفاء من الأرض التركية، وإنقاذ الأسرة العثمانية. وفي 9 سبتمبر 1919، في مؤتمر سيواس، أوضح مصطفى كمال أن هدف الحركة الشعبية هو حماية السلطنة والخلافة، وتخليص الدولة من الضغط الأجنبي. ولم يتم الإفصاح عن وجود نية للحركة لتغيير شكل الدولة التركية في الميثاق الملي الذي تم قبوله في المجلس العثماني في استانبول في 28 يناير 1920. وبرغم ذلك قام مصطفى كمال بعد عامين بخلع السلطان،

كلمة (السلطان الخائن) كلمة لايجب أن نتهم بها وحيد الدين إذا أخذنا في الاعتبار ظروف عصره، ويعتبرها مجرد كلمة طُعن بها السلطان لتوفير الظروف الملائمة لتشكيل الجمهورية[403].

ويدافع الكاتب التركي قديرمصرأوغلي[404] عن وحيد الدين، حيث يرى أن السلطان تولى العرش قبل شهور من انتهاء الحرب العالمية الأولى. وكانت أخبار الهزيمة قد بدأت تأتي من جميع الجبهات. وكانت الدولة تعاني من جبروت زعماء الاتحاد والترقي وظلمهم. وهو بصفته سلطاناً وخليفة، كان صاحب سلطة عليا على المؤسسات السياسية والإدارية وحتى العسكرية، كما كان من الناحية الرسمية هو القائد الأعلى، ولكن سلطته كانت اسمية وليست فعلية. فالحقيقة أن السلطة الحقيقية انتقلت، منذ خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، إلى زعماء الاتحاد والترقي. ولذلك فإن مسئولية الهزيمة والكوارث ليست مسؤولية السلطان وحيد الدين، حتى أن القانون الأساسي العثماني نص على أن السلطان غير مسئول، وهذا يعني أنه لايمكن أن نوجه أي اتهام لوحيد الدين بأي صورة من الصور، فهو اعتلي العرش وقت الهزيمة وهو غير مسؤول عنها.

ويرى قديرمصرأوغلي أن اتهام السلطان وحيد الدين بجرم ثقيل مثل خيانة الوطن، إنما هو اتهام قبيح. فمن أجل أن نتهمه باتهام كهذا لابد أن نعرف ماذا فعل؟ هل تركه الوطن على ظهر سفينة إنجليزية، أو إرسال قوة إعادة الانضباط للقضاء على الثورة الشعبية، يعد ذنباً لا يُغتفر ولا يُعفى عنه برغم إنه إدعاء لا أساس له من الصحة؟ وإدعاء الخيانة كان لابد أن يعقبه محاكمة، أما أن نحكم على إنسان بدون أن نسمعه فهذا مخالف لحقوق الإنسان. أما الذين يتهمون السلطان بالتواطؤ مع الإنجليز، فإذا كان هو متواطيء فعلاً، فلماذا لم يلجأ إليهم لمساندته، عندما صدر القانون الذي قضى على الدولة العثمانية، حتى يتم عدم الاعتراف بهذا القانون؟

فإذا كان وحيد الدين يفكر في الإساءة لوطنه كان رجح البقاء في استانبول، ودخل في حرب ضد حكومة أنقرة، وطلب دعم الإنجليز. وإذا كان لايفكر في شيء سوى عرشه وشخصه، كما يقول بعض الكتاب، أليس هنا يكون مضطراً للتواطؤ مع الإنجليز. ولكنه ليس متواطئاً مع الإنجليز، ولم يفكر في عرشه وتاجه قط، ولم يبدِ تصرفاً ينم عن حرص أو طمع، أو حاول الاستفادة من أية فرصة حتى يستعيد سلطانه. ولم يقم بإهانة إي

وتأسيس نظام جديد". انظر Arnold J. Toynbee, "Türkiye,Bir Devletin Yeniden Doğuşu", 11, a.g.e. s.67

[403]- "Eğitim- Bilim Dergisi", sayı 82, Eylül – Ekim 2005, s. 16

[404]- قدير مصر أوغلي: هو كاتب ومؤرخ تركي، ولد في عام 1933 في أقشاباط في طرابزون، ودرس في كلية الحقوق. تبنى اتجاه إنصاف التاريخ العثماني، وأسس دار النشر سبيل. وسُجن بسبب كتاباته المنصفة للسلاطين العثمانيين، وكتاباته ذات التوجه الإسلامي. وعاش فترة من حياته خارج الوطن بداية من عام 1980، ثم عاد مرة أخرى ليستقر في وطنه. ومن أبرز مؤلفاته في هذا الاتجاه:

-"Sultan vahideddin, bir mazlum Padişah", "Osmanoğullarının Dramı" ve "Sarıklı Mücahitler".

انظر http://www.biyografi.net ، بتاريخ 2010/3/11

شخص، حتى الذين أساءوا إليه، وأسندوا له الافتراءات والأكاذيب بعد أن حققوا النصر بمساعدته. وظل كذلك حتى مات مفلساً تماماً في ديار الغربة، ولم يفعل أي شيء يسيء للوطن. إن الذي أساء للوطن وقضى على الدولة العثمانية، ليس المحتلين الذين كانوا موجودين في استانبول. فهل الذي أعد "الانقراض الأبدي" للدولة العثمانية، بالقانون الذي صدر في تاريخ 1 نوفمبر1922 - الذي نص على إلغاء السلطنة- هم المحتلين؟ بل المجلس الذي في أنقرة، ورئيسه مصطفى كمال. وبالعكس فإن المحتلين دعوا إلى مؤتمر لوزان، حكومة أنقرة مع حكومة استانبول، وبرغم هذا لا ننكر أن حكومة استانبول كانت مساندة للأناضول.

ولاشك أن وحيد الدين ترك الوطن لأن حياته كانت في خطر، وبالذات بعد واقعة علي كمال حيث تأكد قلقه على حياته. فليس من المنطق بعد اتهامه بخيانة الوطن ألا يخشى على حياته وعلى كرامته. فقد ترك وطنه حتى لا يهين أسرة حكمت 650 عاماً في شخص وحيد الدين. وفضل الرحيل، عن البقاء في استانبول، والدخول في حرب فعلية ضد أنقرة بمساندة الإنجليز بالفرض، مما يسيء إلى وطنه، وتشتعل حرب أهلية.

ويسمي البعض خروج وحيد الدين من استانبول هروباً، ولكنه ليس هروباً، بل خرج مودعاً بلده بكلتا يديه، ومن أجل تأمين خروجه استعان بالإنجليز. والآن بعد مرور أكثر من 80 عاماً أليس من الواجب أن نعطيه بعض الإنصاف[405].

إن السلطان وحيد الدين اعتباراً من لحظة الاحتلال، برغم الظروف الثقيلة، ووطأة الاحتلال، كان دائم التفكير في وطنه وشعبه، متحملاً كل أنواع الأذى والجفاء. ولكنه في النهاية إنسان، وللتحمل وللصبر حدود. فهل يصبح السلطان وحيد الدين خائناً، لأنه أنقذ نفسه قبل التعرض له، وإجباره على الخروج؟ إنه خرج بنفسه قبل أن يُطرد من وطن أسرته السلطانية، فكيف كان يضمن السلطان عدم تعرضه للأذى إذا مكث في الوطن؟ إن اعتقاد كهذا يعد بمثابة محاولة لإخفاء الرأس في الرمال، كالنعامة التي تخفي وجهها للاختباء. إن رجل السياسة مثل أي إنسان واعي، يتجنب أن يلقي بروحة في التهلكة. إن السلطان وحيد الدين ليس خائناً البته، فهو واحد من أشرف الرجال في الدنيا، وعندما مات لم يكن معه أي نقود، حتى أنهم وجدوا تحت وسادته التذاكر الطبية التي لم يصرفها، لأنه كان لايملك ثمن الدواء. وتم رهن تابوته في سان ريمو بسبب ديونه، وتكفل أقاربه وأصدقائه بمصاريف الجنازة. ولم يروِ مصطفى كمال في نطق، حقيقة أن وحيد الدين هو الذي أسند إليه مهمة إثارة حركة المقاومة الشعبية[406].

كان سلوك وحيد الدين تجاه مصطفى كمال قائماً على الثقة المتبادلة بينهما، كما يعتقد هو، بينما مصطفى كمال اتخذ جبهة ضد وحيد الدين، نظراً لما فهمنا من أنه صاحب أفكار مختلفة بخصوص النظام السياسي الذي سيأتي. وبرغم هذا لم ينطق السلطان وحيد الدين في غربته، أية كلمة ضد مصطفى كمال. ولم يقدم على أي تصرف من أجل

---

405 - Kadir Mısıroğlu,"bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 262,264, 296,297,324

406 - Kadir Mısıroğlu, " bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 171

استعادة المقام الذي أُلغي في تركيا، مثلما يحدث في الممالك الأخرى، حيث تسعي العائلة الملكية إلى استعادة ملكها من جديد، مثل الجمعية الملكية في فرنسا، حيث يوجد حزب سياسي للأسرة الملكية. ولكن السلطان وحيد الدين قنع أن الوطن قد تم إنقاذه من الاحتلال، وأوضح أن الأحداث التي وقعت له كانت نتيجة القدر[407].

الواقع أن السلطان وحيد الدين سعى إلى إنقاذ الوطن من خلال الأناضول، وذلك برغم الظروف الصعبة وعدم الأمان، من أجل تحقيق الحرية والاستقلال. وتم اختياره هو ليكون كبش الفداء من أجل إقامة دولة تركية جديدة، ونظام حكم جديد. وبقي هو موصوماً بالخيانة، يواجه غدر رؤية التاريخ الرسمي التي ترى إنه هرب من الوطن على ظهر مدرعة إنجليزية خصصها له الإنجليز بعد التجاءه إليهم، حتى يكتسب قوة عندما يقرر أن يصبح "تابعاً للإنجليز". وإنه سعى لكسب رضاهم ومعاونتهم، لأنه كان يسعى لوضع الوطن تحت الانتداب الإنجليزي[408].

ويقول المؤرخ التركي، رشاد أكرم كوچو(1905-1975): "يقولون إن السلطان محمد وحيد الدين السادس خائن الوطن، وأنا سأقول إنه مثل (المارشال بيتان)[409] الذي حُكم عليه بالسجن المؤبد بدلاً من عقوبة الإعدام، بسبب أنه لم يكن هناك شك في حبه لفرنسا، ولخدماته الجليلة القديمة، ولأنه قد تقدم كثيراً في العمر، والحكم بإعدامه فيه إهانة لوطنه. فالسلطان وحيد الدين ذو الماضي النظيف، والذي انشغل بأمر مملكته بعد سقوطها في دوامة الكارثة، والذي حمل مسئولية ثقيلة، والذي كره أن يكون هناك مزيد من هتك الحرمات فمد يد الصداقة إلى الأعداء المنتصرين، يشبه في تاريخ الأمم المسعودين الذين هم مثل لمبات الأمان، والشموع التي تحترق من أجل ضمان حماية التأسيسات الكبيرة"[410].

---

[407] - Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 287,292

[408] -M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.15

[409]- هو المارشال هنري فيليب بيتان(1856 - 1951)، عسكري وسياسي فرنسي، نال في الحرب العالمية الأولى شهرة كبيرة وعُدَّ بطلاً قومياً إثر الانتصار الكبير الذي أنجزه على القوات الألمانية في معركة فردان سنة 1916، ثم صار في الحرب العالمية الثانية- أي بعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك التاريخ- شخصية سياسية مثيرة لجدل كبير. حاول بيتان في حكمه أن يمارس سياسة التوازن في المعاملة بين الحلفاء ودول المحور لا متعاوناً معهم ولا مناهضاً لهم، وفي ظنه أن التعاون والحياد سوف يحميان فرنسا من الاحتلال والتدمير، ويحميان مصالحها وممتلكاتها الاستعمارية وحياة الفرنسيين. وكان من أهدافه بناء فرنسا الجديدة في ظل النظام الجديد الذي كان يعتقد أنه سيسود أوربا بعد انتصار ألمانيا على بريطانيا، ويأمل أن تصير فرنسا الجدار الغربي الذي سيحمي أوربا من البلشفية، ويحلم بثورة وطنية داخلية تحوّل فرنسا إلى دولة ذات نظام استبدادي شعاره: «العمل والأسرة والوطن». قُدم إلى المحاكمة أمام المحكمة العليا بتهمة الخيانة العظمى في 23 يوليو 1945، وحكم عليه بالإعدام لتعاونه مع الاحتلال الألماني، ولكن الجنرال ديجول أنزل العقوبة إلى السجن المؤبد، واعتقل بيتان في قلعة بورتاليه ثم في جزيرة يو القريبة من ساحل بريتاني حيث توفي عن عمر يناهز 95 عاماً.-http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=1667&m=1 بتاريخ 2010/4/9

[410]- Reşad Ekrem Koçu, "Osmanlı Padişahları", a.g.e. s. 439

وفي النهاية أورد شهادة نوروفينا - ضابطة الخدمة السرية التي زرعها الإيطاليون كمعلمة لأرطغرل بن وحيد الدين للتجسس على السلطان- عن وحيد الدين إذ تقول: **"إن هذا السلطان السابق كان سيصبح ممنوناً لأي إنسان يعيد له ألقابه وعرشه، لكن لم يكن يدور بخلده أبداً أن يكون تحقيق ذلك مقابل ارتباطه بلعبة خيانة حقيرة، ورديئة مع القوى الأجنبية. كان يتصور إنه سيعود مرة أخرى للسلطنة التي ضاعت منه، لكنه كان صاحب فراسة وبصيرة، فهو لا يريد أن يكون ذلك على حساب حرب أهلية تصيب وطنه وشعبه. فلم يكن غافلاً حتى يزج بوطنه داخل المشكلات مستخدماً خلافاته مع مصطفى كمال، وحكومة أنقرة كلعبة في يدالأجانب. كان حساساً للغاية، فقد كان يقول (إن الدولة العثمانية، يعني تركيا، في حاجة إلى السكينة والهدوء). كما كان يقول أيضا (إنني غادرت مملكتي، لكنني غادرتها ومعي كرامتي فلم أتركها هناك. وإذا كان القصر والسلطنة تهدما، فيكفي أن الوطن والشعب قد تم إنقاذهما). إن حساسيته كانت واضحة، ولافتة للنظر. فقد كان متمسكاً لأعلى درجة بكرامتة، لدرجة إنه كان يتجنب أن يتسبب في ضرر وطنه، ولو ضرر بسيط، أو يتسبب في انكسار شعبه، حتى وإن اضطره ذلك إلى الاحتجاب عن الدنيا. فقد كان يريد أن يحمي كرامته، وكرامة أسرته أمام مصطفى كمال باشا، وأمام الرأي العام"411.**

دفاع السلطان محمد وحيد الدين عن نفسه

يقول السلطان وحيد الدين في البيان الذي أدلي به في مكة، مخاطباً العالم الإسلامي بعد مغادرته استانبول: "استمر الخراب، وسقوط الدماء، مع استمرار الحرب حتى معاهدة (موندروس) المشئومة التي فرضت الشروط علينا. والأعضاء الذين تم اختيارهم من أجل إبرام الهدنة، كانوا تحت رئاسة رؤوف بك الذي أصبح رئيساً للوكلاء في أنقرة. وتم اختيارهم بموافقة مصطفى كمال، الذي أصبح رئيساً للمجلس في أنقرة، وكان في ذلك الوقت قائداً لقسم كبير من جيش الدولة العثمانية.

وكانت إحدى مواد هذه المعاهدة تنص على: (الاعتراف بحق دول الحلفاء في احتلال أي مكان يرغبون فيه، من أجل تأمين أمنهم واستقرارهم). وصارت هذه المعاهدة التي وقّعنا علي شروطها، وعلى هزيمتنا بمادة في داخلها، سبب الكوارث التي ظهرت بعد ذلك، مثل احتلال إزمير واستانبول وأنطاكيا والموصل وأضنه. وتقع المسئولية الناجمة عن احتلال إزمير، على عاتق من اتهموني. إن كل الكوارث التي جاءت بعد ذلك، وأعمال الاحتلال، تقع مسئوليتها على عاتق كل من مصطفى كمال - الذي لم يعترض على توقيع هذه المعاهدة، إذ كان يسيطر في ذلك الوقت على القوى العسكرية- وعلى عاتق رؤوف وفتحي بك اللذان وقعّا معاً على معاهدة موندروس المذكورة. والآن هؤلاء جميعاً أصبحوا في وضع زعماء الأمة، الذين يحبون هذا الوطن. ولهذا السبب فإنني لست مسئولاً عن هذا الوضع، لأن القانون الأساسي (الدستور) جعل مقام السلطنة

411 - M.İsmail Çalak, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s. 22

مستثنى من المسئولية. والسلطان مضطر إلى التصديق على قرارات الحكومة المسئولة، وعلى ما تتخذه من إجراءات.

فإذا كانت الأسس الدستورية تبيح لي العذر، فإنها لا تقدم العذر لرؤوف بك، الذي وقف على رأس المعارضين لي بعد ذلك، دون أدنى إحساس بالحياء، وذلك لأن رؤوف بك، كان واحداً من الذين وقعّوا على معاهدة الهدنة التي سببت التعاسة والكارثة. ولا تقدم العذر أيضا إلى مصطفى كمال، الذي انسحب بجنوده، وتسبب في أن يصبح قسم كبير من الجيش الذي في أطراف جبل طوروس، في حالة من الفوضى. وبعد هذا الموقف اضطرت الدولة أن تعقد الهدنة"[412].

ويقول السلطان وحيد الدين في مذكراته: "في أيام الهدنة جعلت من نفسي درعاً في مواجهة المصائب المتعاقبة التي أورثني إياها المجرمون المسئولون عن نتائج الحرب العمومية. فقد كنت مثل مانعة الصواعق، وواجهت الوقائع، والمصائب كلها، التي وقعت دون أن يكون لي يد فيها. واجتهدت لإنقاذ الوطن مضحياً بنفسي. أنا إنسان ولا أدعي العصمة من الخطأ. وأعترف بأخطائي الثلاثة:

الخطأ الأول، هو أنني قبلت مقام السلطنة عقب وفاة اخي السلطان محمد رشاد. والخطأ الثاني، هو أنني انخدعت برجال أمثال عزت باشا، وعلي رضا باشا، وتوفيق باشا، وصالح باشا، وعلى رأسهم فريد باشا. ولم أشك أبداً في إنهم سيكونون سبباً في إهانتي، أو في مقدرتهم على إدارة شئون الدولة على نحو صحيح. فقد بدوا من صفوة الدولة، فأتيت بهم في حكومة الهدنة. والخطأ الثالث، هو أنني لم أتوقع أبداً أن يبايع الشعب هذا- يقصد مصطفى كمال - الذي هدم الخلافة وجميع المقدسات، بعد إخراج آل عثمان، الأتراك المخلصين، ومؤسسي الدولة، من مملكتهم.

ورغم أفكاري وقناعاتي بشأن حركة المقاومة الشعبية التي تغير شكلها وهويتها في النهاية، اخترت واتبعت أسلوب التضحية من أجل مصلحة وطني العزيز. ولهذا السبب شكلت مجلس وزراء موافق لأمال الحركة الشعبية. ومكثت أعواماً أدعم وأنمي هذه الحركة. وكان مصطفى كمال ياوراً لي، وأنا الذي أرسلته إلى الأناضول بوسائط ممكنة وسرية، لكي يقوم بمحاسبة ومواجهة دول الحلفاء المنتصرة التي تحتل مقر الخلافة الذي صار في قلب الخطر. فأعلن مصطفى كمال العصيان ضدي، وخرج عن نطاق تعليماتي كلها، وصار يتخذ قراراته بنفسه، ثم أعلن أنه حر وهز سلطتي كحاكم. كان ثائراً وحكومتي مع الأسف لم تكن قادرة على الوقوف ضده، وأراد الداماد فريد باشا ذات يوم أن يحرمه من المهمة ليعود لصوابه، ولكنه لم ينجح في ذلك. ثم استدعيت توفيق باشا، من أجل أن يتوصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال باشا، ولكنه لم يفلح أيضا في ذلك".

"إنني على يقين من أنه سوف تُجمع الأوراق المهمة، والأدلة الدالة على محافظة مقام السلطنة على أحكام القانون الأساسي، والتي تُظهر أن نصر الأناضول تحقق بسبب ترتيباتي التي قمت بها، في ظل شروط وظروف خطيرة لامثيل لها. وسوف تُستخدم هذه

---

[412]- انظر بيان السلطان وحيد الدين المنشور باللغة التركية الحديثة في Metin Hülagü, Tarih ve Medeniyet, a.g.e. s.31

الأوراق، في كشف هؤلاء الذين أصبحوا أمام الرأي العام خادمي الإسلام، ولكنهم في الحقيقة هم من هدموا الإسلام[413]. إن الذين يتهموني بدون وجه حق بخيانة الوطن، وقاموا بتجريد الخلافة من حقوقها ونفوذها، هم من هدموا السلطنة المحمدية. وهم لم يهينوا الوطن فحسب، بل أهانوا العالم الإسلامي كله"[414].

[413] - Murat Bardakçı, "Şahbaba", a.g.e. s. 214,417,418

[414]- يقول قدير مصرأوغلي: "لايوجد وصف يفيد إلى المعنى الذي يقصده السلطان، أجمل وأشمل من وصف الدولة العثمانية، بالسلطنة المحمدية". انظر Kadir Mısıroğlu,"bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s. 276

القسم الثانـي

الترجمة

ترجمة كتاب "وحيد الدين" لنجيب فاضل قيصه كورك

المقدمة

كان هذا الأثر يُنشر على أجزاء في إحدى الصحف منذ 6 أو 7 سنوات، قبل أن يخرج في صورة كتاب. وقد لاقى هذا الكتاب إقبالاً كبيراً عند نشره. لكن بعد مدة حدث تأثير عكسي مجهول، لا أعرف من أين جاء، ولا كيف حدث ذلك. فقد رأى البعض أن محاولة تبرئة ساحة وحيد الدين، يُعد تحقيراً لأتاتورك. فتم جمع الكتاب من السوق وإرساله إلى المحكمة. وأصدرت المحكمة حكمها بالبراءة دون أن ترى داعياً لدفاع المؤلف عن نفسه، ودون الحاجة لوجود قاضياً. لكن تم نقض الحكم، واقتربت من عتبة السجن، لولا صدور العفو عن العمل.

والآن وقد تكرر نشر هذا الكتاب، أحب أن أوضح إنني اعتمدت فيه على ثلاثة معايير:

1- ليس معنى أن نمدح شيء، أننا نهجو الشيء المخالف له، فليس مدح النهار معناه إننا نذم الليل. فلا مجال للعبث فيما يختص بالحقيقة، فهذا شيء بديهي.

2- إذا كان مدح النهار يثير في النفس نفوراً من الليل، فهذا مجرد إحساس لا يُجَرم عليه أحداً.

3- ولعدم إمكان تفسير كافة الأوهام، التي تذهب إلى حد إجراء محاسبة بين وحيد الدين وأتاتورك. فقد كتبت حكماً في الصفحة رقم 226[415] يعد إضافة.

ومن هذا المنطلق فإنني أنشر كتابي هذا بغاية تحقيق هدفين: إبراز مالم يُبرز بعد الحماية، والرعاية القانونية التي نحظى بها في بلدنا. مستنداً في ذلك على الدعوى التاريخية الواضحة. أما الهدف الثاني فهو إراحة القلب.

ونستودع كل شيء إلى الحق، وإلى الإحساس بالحق.

نجيب فاضل قيصه كورك[416]

---

* الهوامش الواردة في هذه الترجمة من عمل الباحثة، وهى ليست واردة في النسخة الأصلية من الكتاب.

[415] في هذه الترجمة حيث يقول هذا الحكم: **"لولا وحيد الدين ما كانت هناك حرب استقلال ولا تحقق التحرير."**
والمعطيات المرتبطة بهذا الحكم هى:
ثمة عمل في شكل إنقاذ الوطن، أول من فكر فيه هو السلطان، وثمة نصر تحقق بعد إنجاز هذا العمل. وهنا المنطق يقول إن هذا النصر يعود إلى من قام بإنجاز هذا العمل... أما قيمة العمل نفسه فتصبح من حق السلطان بوصفه أول من فكر فيه. ولهذا لا يجب أن تقتصر قيمه العمل على من قاموا بالعمل فقط، واستثناء العمل نفسه، فلابد أن يُظهر التاريخ نصيب كل فرد من هذا العمل. - هذا رقم الصفحة في النسخة الأصلية، ويقابله رقم 263

على مدار العصور

القصر:

كنت تقريباً في العشرين من عمري، وكنا قد أقمنا لعدة سنوات في (بايلربايي). وكان يدهشني شارع (ياليلر بويو) الذي يقع بين (بايلر بايي) و(شنجل كويو) حيث تراصت الأشجار على الجانبين. وكان أكثر ما يسليني هو التجول ليلاً عبر هذا الطريق الترابي حينئذ - تم رصفه الآن- حتى (حوض باشي) ومن هناك إلى (چنگل كوي) ماراً برصيف الميناء حتى (كوله لي).

وعندما كنت أصل إلى طريق الساحل، عبر المطلع الصغير عند رصيف الميناء في (چنگل كوي)، أجد جسراً موصولا بمعبر مرتفع. من فوق هذا الجسر، كنت أشاهد منطقة مليئة بالأشجار، يتوسطها قصر صغير أبيض بُنى بالأخشاب ... هذا هو قصر وحيد الدين.

قصر مغلق النوافذ، لا أثر للحياة فيه... صاحب هذا القصر هو محمد السادس وحيد الدين، أخر سلطان عثماني، عندما كان أميراً، وقبل أن يرحل عن وطنه، على ظهر بارجة إنجليزية عبر البسفور والدردنيل. وهذا ما جعله يبدو خائناً للوطن في عين أي شخص...

عندما كنت أمعن النظر في قصر هذا السلطان العثماني الأخير الذي كان يسكنه في فترة ولاية عهده - وكان عمره حينئذ 36عاماً- هذا السلطان الذي أُتهم بخيانة الوطن، كان يجثم على صدري ظلمة، يختلف لونها عن كل ألوان المساء المتعددة.

واستقرت حينئذ بداخلي الظلال الأولى لشعر قصيدتي (استانبول حبيبتي) التي كتبتها بعد ثلاثين عاماً من هذا التاريخ:

.....

---

416 نجيب فاضل قيصه كورك: هو مفكر وكاتب مسرحي وشاعر وصحفي وروائي تركي، قُلد وسام أشعر شعراء - اللغة التركية في عام 1980. ونال عمادة الأدب التركي بجدارة. ولد في استانبول في 26 مايو 1904. التحق بالكلية الأمريكية في سن الثامنة، وأتم تعليمه في الكلية الفرنسية عام 1916. وبعد أن أنهى دراسته في مدرسة (نمونه) التحق بمدرسة العلوم البحرية. وفي عام 1917 التحق بقسم الفلسفة في كلية الآداب. ثم التحق بجامعة السوربون في باريس لمدة عام واحد، ثم عاد دون أن يتم دراسته. عمل موظفاً في بنك، ثم مدرساً، ثم بالصحافة في جريدة (وقت) عام 1924. وأصدر مجلة آغاچ عام 1936. أصدر مجلة (بيوك دوغو) أي الشرق الكبير، في الفترة من 1943 – 1971. كان يحيا في شبابه حياة بوهيمية، وبعد تعرفه على الشيخ عبد الحكيم أرواسي؛ تغير مجرى حياته، وبدأ عهد جديد من الوعي والإدراك، وكرس حياته لخدمة الإسلام، والدفاع عنه. وأعاد الاعتبار إلى شخصيات تاريخية شُوهت نتيجة دعايات بعض الأحزاب، مثل: شخصية السلطان عبد الحميد ،والسلطان محمد وحيد الدين. واستمر يشتغل بالكتابه حتى وفاته في 26 مايو 1983م. له عدة دواوين شعرية، وعدة مؤلفات نثرية تضم كتب فكرية، ومؤلفات إسلامية، وصوفية، ومسرحيات. هذا بالإضافة إلى القصص القصيرة، والكتب التاريخية، والأبحاث الأدبية، والتراجم، والسير، والمقالات، والسيناريوهات، والخطب. ومن أشعاره ديوان بيت العنكبوت(1925) ومن مسرحياته خلق رسالة عزة عبد الرحمن الصاوي، "الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك"، إنسان(1938). انظر دكتوراه،.قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة 1983، ص1- 20

للتاريخ عيون، وفي الأسوار ثقوب
تغطيها أشجار السرو السامقة
لم يعد هناك حصان أشهب بعد السلطان الفاتح[417]، فقد رحل إلى السلطان في السماء
قبابنا من البرلنت، وزنها مليار قيراط
منارتنا المتجهة إلى السماء، هي أصابع شهادتنا
كل نقش فيها يعطى هذا المعنى: سنموت، ما الحيلة؟
الموت حياة الخلود، ورحمة من الذنب الثقيل
وتبكى (قرجة أحمد) بينما تختلج (باي أوغلي)
.....
البسفور موقد فضي، يغلى فيه الهواء البارد المنعش
ثم يستقر هذا الماء في أعماق السماء فوق (جامليجة)
ضيف في الطابق الأسفل، لساحل المياه المتلاطمة
شكلاً،هو سفير قديم، حزين، من الدنيا الجديدة
و(أوسكودار) تخرج ملتهبة في الأقداح كل مساء
وامتد الحريق من منزل خشبي إلى آخر، حتى قضى على المدينة العظيمة
ثمة صوت لا أعرفه، تُرى أهو صوت طنبور أم صوت عود؟
صوت يرن في الحجرات ذات النوافذ البارزة، يوجعني
.....
أشياء منسوجة قديمة فوق (يدى تبه)
أعمال بارزة بلا حصر، من سبعة ألوان، وسبعة أصوات...
و(أيوب) يتيمة و(قاضي كوي) مزخرفة و(موضة) يلفها الدخان، ورياح الجزيرة
مسئولة عن تطاير أطراف الثياب
ومن (حصار) تخرج كل صباح السهام من أقواسها
وتخرج حتى اليوم، الصيحات من قصر (طوب قابي)
.....

[417] - هو السلطان محمد الثاني، سمي بالسلطان محمد الفاتح بعد فتحه القسطنطينية عام 1453، والتي سُميت إسلامبول أي مدينة الإسلام ثم حُرفت إلى إستانبول. وهو سابع سلاطين الأسرة العثمانية، ولد عام 1429، ومات عام1481عن عمر52 عاماً. كانت مدة حكمه 31 عاماً، فتح خلالها مملكة طرابزون الرومية، والصرب، والبوسنة، وألبانيا، وجميع أقاليم آسيا الصغرى. وهو من سمى الحكومة العثمانية بالباب العالي، وجعل لها أربعة أركان، وهى: الوزير، وقاضي عسكر، والدفتردار (ناظر المالية) ونيشانجي (كاتب سر السلطان). كان يجيد اللغات العربية والفارسية واليونانية والإيطالية، وكان مغرماً بالشعر الفارسي والإغريقي. وهو نفسه كان شاعراً مجيداً، واهتم بدراسة الفلسفة والتاريخ. انظر محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1976 ، ص 30 - 48

هذا الشعر الذي أخذت منه بعض المقاطع، هو عبارة عن نسج من المعاني المتعلقة باستانبول في عهد أخر السلاطين، السلطان وحيد الدين، بما فيها من قصور وخرابات، وسرور وأحزان، وسعادة ومصائب.

عند المساء انظر إلى قصر(طوب قابي) الذي يبدو كخيال، من خلف شنجل كوي! وسوف تسمع- ولو كنت مقطوع الأذن- صيحات دلي مصطفى[418] الذي يجرى في أروقة القصر الضيقة، المظلمة، ويقرع الأبواب بصورة عفوية قائلاً :

تعالى يا عثمان[419]، تعالى يا عثمان

انقذني من مسئولية هذه السلطنة!

ويربت حاجى بكتاش[420] على ظهر الولي.

- ليكن اسمه (يني شري)[421] ! وليكن مباركاً على الدولة.

وبعد أن يتفقد گـنچ عثمان[422] سلطان الأتراك، وخليفة المسلمين، الجند الذين تم تسميتهم الإنكشارية، يضعوه فوق فرس أجرب، ثم ينغزوه في ساقه، فينطلق مثل أفراخ الحمام إلى أسوار (يدي كوله) حيث يُقتل بوحشية، بخنقه بحبل من رقبته الرقيقة.

---

418 - هو السلطان مصطفى الأول (1617 -1618) ثم فترة حكم ثانية من (1622 -1623) وهو أول سلطان عثماني يُخلع ثم يتولى الحكم مرة ثانية. كان ضعيف العقل، ولذلك أُطلق عليه اسم دلي مصطفى أي مصطفى المجنون. وبعد عزله في المرة الثانية، تم حبسه في قصر طوب قابي. فكان يتخيل أن السلطان عثمان الثاني الذي قتله الإنكشارية، لايزال حياً؛ فكان يقرع أبواب القصر، وينادي عليه حتى يخلصه مما هو فيه. انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 514 ،515

419 - هو السلطان عثمان الثاني (1618-1622).

420 - حاجي بكتاش: من أعظم الأولياء منزلة عند الترك ، رحل من خراسان إلى الأناضول في القرن الثامن الهجري. عاش حاجي بكتاش إلى عهد السلطان مراد الأول. كان السلطان يزوره ويلتمس منه البركة والدعاء. وأتباعه هم المعروفون بالبكتاشية. ولما زاره السلطان أورخان في صومعته، وطلب منه مباركة فرقة من جنده، مسح بكمه رأس جندي في الطليعة قائلاً: ليكن اسم هؤلاء "يكي چري"- وتنطق يني شري- جعلهم الله بيض الوجوه، شداد السواعد، ووهبهم سيفاً بتاراً، وسهما صائباً، ونصراً مبيناً. وهذا هو السبب في أن الإنكشارية كانو يلبسون قلنسوة بيضاء - هى قلنسوة الدراويش- يتدلى منها ما يشبه كم حاجي بكتاش. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ، القاهرة 2000 ، ص 35

421 - في عهد السلطان أورخان الأول (1326 – 1360) قام أخوه الأكبر علاء الدين، الصدر الأعظم، بأخذ الشبان من أسرى الحرب، وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم، وتمت تربيتهم تربية إسلامية عثمانية، بحيث لا يعرفون أباَ إلا السلطان، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله. ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي، لم يكن يُخشى من تحزبهم معهم. ولما صار عنده عدد كبير منهم، سار بهم إلى الحاج بكتاش، ليدعو لهم بخير. فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء، وقال: فليكن اسمهم "يني شري" أي الجيش الجديد. وصارت الكلمة تُكتب وتُنطق "الإنكشارية" باللغة العربية. انظر محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق محمد احسان حقي ، مرجع سبق ذكره ص 123

422 - گـنچ عثمان: وتُنطق جانش عثمان أي عثمان الشاب، وهو السلطان عثمان الثاني، الابن الأكبر للسلطان أحمد الأول. ولد عام 1604، وتولى السلطنه وعمره 14 عاماً. كان واسع الثقافة يميل إلى دراسة الأدب، والتاريخ، ويتقن اللغة العربية، والفارسية، والإيطالية. قامت الإنكشارية بقتله، حيث هجموا عليه في قصره، وانتهكوا حرمتة بعد عزله من السلطنة، وقادوه عنوة إلى ثكناتهم، وأوسعوه سباً وإهانة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدولة العثمانية. ثم نقلوه إلى قلعة يدي كوله - أي القلعة ذات الأبراج السبعة- حيث أعدموه عام 1623. انظر İslam Ansiklopedisi,cilt 10, Beşinci Baskı,a.g.e. s.443-448

و(مارزفونلو قره مصطفى)[423] والرعب، والاضطراب الذي أحدثه أمام أبواب فيينا...امتلأ الطريق إلى استانبول بالخيول النافقة، والقلنسوات، والطرات، وبقايا السرادقات، وعربات المدافع، والرايات ... ومع ذلك تمت المحافظة على راية سيد الكائنات، المقدسة. ومن ذلك الحين حتى يومنا هذا، صار أسلوب الدفاع، أسلوب مشتت لاهدف له. صار الدفاع في يد جماعة من المتوحشين، المتعصبين، القساة، الرجعيين. قليلي الخبرة. من ذوى المزاج الأسود الذي يتناسب مع نفوسهم السوداء، التي لا تستطيع أن تفهم الحكم التي تمتلىء بها معايير الدين. فهى جماعة عاجزة عن الارتباط بالدين، والشعور الطيب، وعن الانتباه للوقائع والأشياء، ولم يبق من الإمبراطورية التي ضاعت قطعة، قطعة، سوى استانبول ... ورجال سياسة، لم يجدوا أى وسيلة للترقي، سوى تقليد العدو بدون وعى. فقد كان ذلك، أخر ما لديهم من حيلة ... وتنظيمات، عبارة عن معبر لجميع الأبطال المزيفين، والأقزام المزركشين. نموذج التنظيمات التي وصفها قيصر روسيا بـ"الرجل المريض!"

وجاءت نهاية النهاية للدولة الخالدة في لحظة اقتسامها بعد أن حفظها السلطان العظيم عبد الحميد خان الثاني، الأخ الأكبر للسلطان محمد وحيد الدين. كان خلع السلطان عبد الحميد الثاني من العرش شاهداً على سقوط كل شيء من أساسه ... ومن بعده جاء السلطان رشاد، الأخ الثاني، هادم الدولة ومضيع الأمة الذي عُميت عيناه عن رؤية الزوبعة، فكان نموذج المتوكل، المتواكل ... ومن بعده ...

أه من هذا القصر وما يثيره فينا من ذكريات!

إنني أرى الطريق الذي يقع بين (بايلر بايي) و(كوله لي) عبارة عن برزخ للتاريخ تخرج منه الأنات وقد اختلطت بحفيف أوراق الأشجار.

إن شارع (ياليلربويو) الذي يقع بين (بايلربايى) و(حوض باشي) يُعد دهليزاً للأسرار الباهتة التي لم يعد يبدو منها سوى خيالات لأخر الطبقات الأرستقراطية القديمة في استانبول. تلك الطبقة لم تتخل حتى الآن عن الياقة المرتفعة، المنشاة. ورابطة العنق الحمراء. لكن بدلاً من الطربوش، وضعوا على رؤوسهم تلك القبعة المضحكة. وترى رجال المشروطية المسنين الذين تقاعدوا، يسيرون الآن وكأنما يزحفون حتى يكادوا يقعون، يمسكون بعصي مقابضها صنعت من سن الفيل، ويرتدون الصديرات الفخمة، والساعات الذهبية ذات السلاسل. وتجد هانم زمان ترتدي على رأسها التيربون الأسود، وعلى ظهرها معطف قصير، وفي قدميها حذاء أسود لامع. يلتفون بالوقار والحكمة في مواجهة البهرجة ... خيالات عدة ظهرت في شارع (ياليلربويو) بعد أن فرق الزمان

---

[423] - كان مارزفونلو قره مصطفى صدراً أعظم (رئيس الوزراء) في عهد السلطان محمد الرابع، حاصر مدينة فيينا عاصمة النمسا في عام 1683 لمدة شهرين. واستولى على كافة قلاعها الأمامية، وهدم أسوارها، ولكنه انهزم ورجع، تاركاً كافة المدافع والذخائر والمؤن. ولما وصل خبر هذه الهزيمة التي لم يسبق أن مُني بها جيش الدولة العثمانية، أرسل السلطان أحد حاشيته فقتله. انظر محمد فريد بك المحامي ،تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق محمد إحسان حقي، مرجع سبق ذكره ، ص 301

الطويل كل واحد عن الآخر ...وقبل 40عاماً، كانت هذه الخيالات أخر انعكاسات لشمس الماضي التي غابت. هذا الشارع يمتلئ الآن بالمساكن ذات الأسقف المكعبة الرفيعة التي يُسمع بداخلها هدير أصوات السائرين، ويعج بالأتوبيسات، وسيارات الدولمش، وهدير من الفتيات ذوات التنورات القصيرة، والفتيان ذوى الشعور الطويلة.

وهاهو مصيف (إسماعيل باشا) الملاصق لجامع (بايلربايى) ومصيف (حاسب باشا) المشهور، المعروض تصميمه في أكاديمية الفنون الجميلة بلندن. وقصر المصريين ومصيف الشيخ (محسن فاني) من الكتاب الأقدمين، وغيره وغيره... وفي النهاية نرى - من فوق الجسر الذي أمام رصيف ميناء (چنگل كوي)- قصر وحيد الدين أفندي ...

في أحد الأيام علمت أن بعض أجزاء قصر وحيد الدين مفتوحة للزيارة، فذهبت لمشاهدة القصر:

عدة ثريات بلورية لا يمكن تحريكها أو تهريبها بأية حال ... كؤوس ملونة ... نقوش في السقف أفسدتها الرطوبة ... جدران مكسوة بالحرير والخشب المُذهَّب ... وفجأة رأيت على البعد ثلاثة فرسان من عهد حرب القرم التي اندلعت في عهد السلطان عبد المجيد، ثلاثة فرسان: سردينى وإنجليزي وفرنسي، فوق خيولهم، يرتدون ألبستهم المزركشة. وتخيلت أن النغمة الصادرة عن ساعة الحائط، موسيقى عسكرية، تصاحب هؤلاء الفرسان الثلاثة، وهم يتجهون بخيلهم ناحية معسكر سليمية.

في كل حجرة دخلتها - بعد أن أدرت مقابض أبوابها البالية، الباهتة، المصنوعة من النحاس- وجدته هناك، منحنياً قليلا إلى الأمام، بعينيه الفاحصة التي ترى داخل الإنسان أكثر من خارجه ... ونظارته المعلقة على أنفه ... وشاربه الأشهب الطويل ... كان يجلس على أريكة، ويسند يده اليمنى على حافتها. كان ينتظر دخول إحدى الحجرات ... كانت الحجرة التي ينتظر فتح بابها هي حجرة التاريخ! ....

كان قصر الأمير وحيد الدين أفندي الذي تحيط به الأشجار الكثيفة، والذي بنى في ركن هادئ بالقرب من أعلى سد على الدردنيل، يبدو بالنسبة لي، قصر خشبي أصيل ذو مغزى وشخصية، بالمقارنة بالقصور التي لوثتها الطرز المعمارية الأوروبية، مثل طراز (باروك أو روكوكو)[424] الذي يشبه مريلة الأطفال الدانتيلا التي لوثتها الأطعمة

---

[424] - **باروك:** هو اصطلاح مستعمل في فن العمارة والتصوير، معناه الحرفي، شكل غريب، غير متناسق. وقد ظهر هذا الفن أول مرة في روما في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادي، كرد فعل مضاد للكلاسيكية. ويتميز الأسلوب الباروكي بالفخامة، ويمتلئ بالتفاصيل المثيرة. ومن أمثلة القصور الباروكية الفخمة: قصر فرساي بفرنسا، وبهو الأعمدة في روما في كنيسة القديس بطرس. وفي القرن الثامن عشر تطور الفن الباروكي إلى أسلوب أكثر سلاسة وخصوصية، وهو ماعُرف بفن **الروكوكو**. ظهر هذا الطراز من الفن في القرن الثامن عشر، ويعد امتدادا للباروك، ولكن بمقاييس جمالية تتسم بالسلاسة والرقة. فقد ابتكر المهندسون زخارف استمدوها من شكل الصدفة أو المحارة غير المنتظمة الشكل، ذات الخطوط المنحنية. وهويعتبر فن التزيين الداخلى. واستمر هذا الطراز مزدهرا في ألمانيا وفرنسا بصفة خاصة، واختفى من فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية. وفن الروكوكو لم يكن فن الملوك، كما كان فن الباروك، وانما كان فن الطبقة الأرستقراطية، والطبقة الوسطى الكبيرة. انظر الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال ، مرجع سبق ذكره، ص 307

المختلفة. وهذه القصور هي: (دولمة باغچة، وبايلربايى، وقصر المجيدية، وغيرها من القصور).

وداخل قصر الإمارة، أصبحت كمن يقرأ من كل خط، وكل لون، وكل ركن، وكل موضع، سطور حياة هذا السلطان التعيس الذي أُطلقت عليه صفة "خائن الوطن"، وهو الذي أعتلى عرش السلطنة، وقت سقوط الإمبراطورية بالضبط. فكأنما قد وُضع في هذا المكان المنعزل ليشاهد أولاً، العرش العثماني، وقد أحاطت به النكبات من كل جانب. ثم يعتلي هذا العرش، ليصبح هدفاً منفرداً، "وحيداً"، عندما يحين وقت الثأر الداخلي والخارجي.

عبد المجيد

ولد وحيد الدين في أول فبراير عام 1861، في أواخر عهد السلطان عبد المجيد. وأعتلى العرش- ليصبح أخر سلطان عثماني- في سن 57 عاماً، في عام 1918، قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى.

عصر عبد المجيد قال عنه الفرنسيين: "الزمن الجميل"، فهو أبهى عصر للمدنية أو للحضارة الغربية ... فالزي المزركش الذي كان يرتديه الفرسان الثلاثة، الساردیني والإنجليزي والفرنسي، كانت زركشته تسود أوروبا كلها ... كان هذا الزى عبارة عن حذاء طويل الرقبة، وبنطلون ضيق بشريط يمر أسفل الحذاء، وقميص حريري، وسترة ذات ياقة من الفرو، وقبعة مستديرة. وكان نموذج أيضا لما يرتديه المواطن الأوروبي ...وكان الوضع في العالم كالتالي ...

كانت الدول الرأسمالية التي لم تتأثر بالأزمة الغربية الكبيرة في ذلك الوقت، لا تفكر في شيء سوى السعي إلى استعمار واستغلال الدول الأخرى. وسعت إلى إيجاد مخرج لها، ولرؤوس الأموال الغربية التي تراكمت، فاتجهت إلى الشرق ... كانت الاشتراكية مجرد فكرة ... نظرية ... مجرد خيال ... وكانت الشيوعية أو (الاشتراكية العلمية) أو (التجمع الألماني)- قبل أن تختمر على يد (كارل ماركس) و(إنجلز)[425]- لا تعدو أكثر من مجرد صدى سيء (للكاكوفوني)[426]... وبعد عدة سنوات تم عقد (الاجتماع العالمي الأول) وأعقبه صدور (البيان الشيوعي) وأصبحت الشيوعية حقيقة واقعة، وليست مجرد فانتازيا أو نبوءة تتنبأ بموت المجتمع الغربي من فنجان القهوة.

في عهد المدنية الغربية، من يمكن أن يرمز لتركيا المدهشة، الناضجة، كثمرة التين المشروخة الذي سال عسلها، أكثر من عبد المجيد؟

---

[425] - فريدريك إنجلز (1820-1895) هو اشتراكي ألماني، أسهم مع كارل ماركس في وضع أسس النظرية الاشتراكية الحديثة، وفي صياغة البيان الشيوعي الشهير عام 1848. اشترك في تدبير الحركات الثورية في أوروبا. ومن أهم كتبه (عالم الاشتراكية العلمية) 1878 و(الدولة والملكية الخاصة) و(أصل الأسرة) 1884. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 237

[426] - الكاكوفوني: في لغة الموسيقى تعني التنافر وعدم التناغم، وهى عكس السيمفوني، التي تعني التناغم أو الانسجام .انظر http://www.aawsat.com

كان عهد التنظيمات، الذي تذكرته ضمن الذكريات التي راودتني عند مشاهدة قصر وحيد الدين افندى الذي في (چنگل كوي) عبارة عن واجهة زجاجية غريبة، فالزيت والماء لا يمتزجان أبداً، ويظل دائماً أحدهما فوق الآخر. فهي واجهة المتناقضات التي لا يتلاءم بعضها مع بعض ... والأشياء الأساسية التي تحتويها هذه الواجهة هي: في القسم الأعلى، السلطان عبد المجيد الشاب مرتدياً طربوش بطرة من الصدف اللامع البراق، وسترة طويلة منقوش صدرها بالقصب، وبنطلون ضيق، وحذاء برقبة أسود لامع ... انظر! لاتوجد قلنسوة أو سروال أو حذاء مغطى. لمن تخلت عن أماكنها طيلة نصف العصر؟

وهل بهذه البساطة تتخلى عن أماكنها؟

إذا مر شخص بزورق، أمام قصر المجيدية الذي يبعد عدة خطوات عن قصر بغداد الملاصق لقصر (طوب قابي) وليس في نيته المقارنة، سيجد فرقاً ... فرق الأصالة والحقيقة التي بين المسكن الغربي الذي يخرج من داخله الأضواء الساحرة، الملونة، والقبة الشرقية التي بدأت أنوار قناديلها في الانزواء. ولا يمكن لأي شيء أخر عدا هذين المبنيين الملاصقين لبعضها البعض، أن يوضح وعلى نحو بارز هذا الفرق. ماذا يفعل قصر المجيدية الصغير الذي بلا شخصية، بطراز (الباروك وروكوكو) الفرنسي الذي يثير الغثيان، بجانب قصر طوب قابي، ذلك المبنى التاريخي، ذو الشخصية الأصيلة، الممهورة بسطور الوقار العريق، ذو المغزى الصامت المغلق؟ هل تعلمت المنازل التي بنيت ملاصقة لجامع السليمانية الكبير، هي والعمارات ذات الأسطح المكعبة الشكل، والألوان المتموجة، والتي بنيت برمال البحر -على مر الزمان- درس الوقاحة الأول، من قصر المجيدية أم من روح بناءيه؟

ويبدو واضحاً أن المعماري (سنان) الفنان العظيم، قد ترك مكانه إلى البناءين الذين يصعدون بالمنزل، دور فوق دور، كأوراق الكوتشينة. ولهدم هذه المنازل الجديدة، تكفى نفخة خفيفة، وليس ريحاً عاتية. فقد ضعف الجمال بضعف الدولة الذي بدأ في عصر السلطان عبد المجيد، حتى قارب الفناء والهلاك. تُرى في أي عصر سيكون هذاالفناء، وأي سلطان سيصيب؟ وهذا السلطان الذي سيجيء في هذا العصر، هل هو ساهم بالكثير أم بالقليل في تحقيق هذا الفناء، أم أنه تحمل وضعاً يحتاج لصبر شديد؟ مثل أب عائد من السفر، وقع ضحية للقدر، فيتسلم ابنه منزلاً مليئاً بالأحزان، دون أن تكون له أدنى مسئولية عما حدث؟

وهذا هو السؤال ... وتهب رياح المعنى التي في داخل هذا البحث، من أول حرف إلى أخر حرف فيه، وتدور حول هذا السؤال فقط.

وحتى نعرف الفرق بين الدولة في عام1839- حيث بدأ الاتجاه إلى الاقتداء بالغرب- والدولة في الثلاث عهود التي سبقتها، ننظر إلى قصر (طوب قابي) ونقارن بينه وبين قصر (المجيدية) الذي يشبه الخُن الصغير.

ولنجري عرضاً سريعاً لـ 79 عاماً تلت التنظيمات:-

السلطان عبد المجيد هو أول من عمل على دب الروح في عملية التغريب، وعكس ضوئها بالمرآة ... وهو ابن السلطان محمود الثاني[427] الذي قطع بنفسه، السلالة العثمانية وقضى على نسله وحياته، هارباً من شرك لشرك.

قضى السلطان محمود الثاني على الإنكشارية بضربة واحدة، وشنق (باتريك جوروجوريس) الذي ثبت تحريضه لليونانيين والمسيحيين على الثورة، على باب بيته، في حي الفنار. كان يعاني من العزلة، ولم يستطع إدارة الدولة، والجيش الجديد، بعد أن تحطم أسطوله في (نافارين)[428] وبعد أن دخل تحت حماية روسيا تقريبا، بموجب معاهدة (خونكار اسكله سي)[429]. وكان ضعيفاً لدرجة عدم قدرته على التصدي لجيش واليه، محمد على باشا.

انظر إلى حال محمود الثاني الذي جاء من نسل السلطان سليم الصارم(ياووز)، فاتح مصر. انظر إلى جيشه وقد انهزم أمام واليه في سهل (نيزيب)[430] في جنوب الأناضول.

---

427 - ولد السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد الأول، وجد السلطان محمد وحيد الدين، في عام 1785. وتولى العرش عام 1808، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وسار في طريق الإصلاح والاتجاه نحو الغرب. ورأى أن يبدأ بالإصلاح الحربي، فكلف الصدر الأعظم (مصطفى البيرقدار) بتنظيم الإنكشارية وإصلاح أحوالهم. حاول الصدر الأعظم أن يقوم بالمهمة التي كلفه بها السلطان، فثار الإنكشارية ضده، وحاولوا تولية السلطان السابق (مصطفى الرابع) ليكون ألعوبة في أيديهم. وأضرموا النيران في السرايا الحكومية، ومات الصدر الأعظم محترقا وهو يحاول أن يقضي على تلك الفتنة، واضطر السلطان أن يخضع لهم بعد أن أضرموا النار في العاصمة، وكادت النيران أن تقضي عليها. ثم تخلص السلطان من الإنكشارية في عام1826، لأنه كان يرى أنهم عقبة في سبيل أي إصلاح. وألقى القبض على شيوخ البكتاشية التي كانت تُعد العقل المدبر لتصرفات الإنكشارية. ثم شرع في بناء فرق عسكرية تأخذ بالنظم الحديثة. وأنشأ مدرسة حربية لتخريج الضباط. واستدعى عدداً من الضباط من بروسيا لتدريب القوات الجديدة. وأنشأ السلطان عدداً من الترسانات البحرية في عدد من الثغور. واهتم السلطان أيضا بتنظيم التعليم الأساسي. وإرسال البعثات العلمية إلى لندن وباريس، لتحصيل الفنون والعلوم الحديثة. أُصيب السلطان بمرض السل ومات في عام1839، وخلفه السلطان عبد المجيد الأول. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص 398، 399

428 نوارين: هي معركة بحرية وقعت في 20 أكتوبر 1827م، بين الأسطول العثماني، - معركة (نافارين) أو والأسطول المصري بقيادة ابراهيم باشا، والأسطول الجزائري، ضد أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا، في خليج نافارين، في جنوب غرب اليونان، خلال حرب الاستقلال اليونانية،عندما رفضت الدولة العثمانية إجلاء جنودها عن المورة. وفيها انهزم العثمانيون، وتم تدمير الأسطولين المصري والعثماني. واضطر محمد علي إلى تكليف ابنه إبراهيم باشا بالجلاء عن اليونان عام 1828. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع 1851سبق ذكره، ص

429 - عُقدت معاهدة (خونكار إسكله سي) بين روسيا والدولة العثمانية في 8 يوليو عام 1833. وقد تعهدت فيها الدولتان بالتعاون إذا تعرضت إحداهما للاعتداء. وتضمن الملحق السري للمعاهدة، وعد من السلطان بإغلاق الدردنيل في وجه جميع الدول ماعدا روسيا، إذا اقتضت الضرورة ذلك. انظر محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، مرجع سبق ذكره، ص 171

430 - تمرد إبراهيم باشا ضد الدولة العثمانية، واجتاحت جيوشه بلاد الشام عام 1831، واستولى على سوريا وعكا. وفي عام 1832 انتصر على الجيوش العثمانية بقيادة رشيد باشا في قونية، وتم أسر رشيد باشا، واستولى على أضنه. وفي عام 1833 وقّع اتفاق مع العثمانيين الذين وافقوا على أن يصبح حاكماً على سوريا وأضنه. وفى عام 1838 نشب نزاع آخر بين العثمانيين وابراهيم باشا، فى محاولة منهم لاسترجاع سوريا. ولكن إبراهيم باشا هزمهم مرة أخرى. وفى 1839 استولى على حيفا. وفى 24 يونيو 1839 حارب الجيش العثماني عند بلدة نصيبين أو نيزيب، وانتصر على القوات العثمانية. ولكن الحكومات الأوربية أجبرت محمد على باشا، على توقيع اتفاق ينص على أن يحكم محمد على مصر حكماً وراثياً، ويستقل عن الحكم العثمانى. وفى المقابل يعيد سوريا وأضنه للدولة العثمانية.

في تلك الأثناء كان يعمل في الجيش العثماني كمستشار، ضابط بروسي برتبة (يوز باشي) اسمه (مولتكة)[431] أو مولتكة الكبير. ذهب مولتكة إلى السلطان فوجده ينتظر خبراً من كبير المنجمين، في وقت هجوم الجيش. عندما رأى الضابط هذا، ربت على ظهره، وقال له: "لا أستطيع أن أعمل في جيش مثل هذا" ثم رحل.

مات محمود الثاني، في قصر أخته الأميرة أسماء في (جامليجا)، دون أن يعلم باحتلال (نيزيب). مات محمود الثاني الذي حقر الدولة، لدرجة أنه اشتكى واليه، محمد علي باشا، إلى الروس، وطلب المساعدة من عدو الدولة التاريخي، وتسول منهم قائلاً: "انقذوني من هذا الموظف".

قضى محمود الثاني في السلطنة، 31 عاماً و16 يوماً. ولم يستطع أن يقدم للدولة العثمانية شيئاً سوى عدة أزمات لا منطق لها ولامعنى. أزمات وضعت الدولة في أحرج وضع، وظل هو بعيداً عن الحساب. وقبل وفاته - التي حدثت في عام 1255- بعام واحد أصيب برعب وخوف وضيق نفسي، وكان لا يستطيع الوقوف، بل يجلس دائماً على الأريكة. ولم يعد يقدرعلى امتطاء ظهر جواده. كان يقف خلف نوافذ طوب قابي سراي، وينظر إلى الزجاج الذي يعكس شمس المساء خلف جامليجا، ويبكى بكاءاً مخنوقاً في لحظة سقوط الدولة، وما أحدثته من دوي هادر. وسرى الجرح الذي أصاب كبد الدولة العثمانية إلى كبد السلطان محمود الثاني، وانفتحت في كبده ثقوب عديدة.

وأوصى الأطباء بالآتي:

لقد تعرض كبدكم لعفونة، لابد من تغيير الجو. يحسن أن تذهب إلى جامليجا، فالجو هناك أنقى! وفي جامليجا، في قصر أخته الأميرة أسماء، تناول الدواء الذي أوصى به طبيب أوروبي. ونام ثلاث ساعات، ثم استيقظ وطلب الطعام، ودخن سيجارتين تبغ. وعندما رأته أخته بهذه الحالة صاحت قائلة: وفرحتاه! تحسنت صحة السلطان ... وعم القصر هرج ومرج وفرح. لكن هذه كلها كانت علامات كاذبة. ذُبحت الذبائح، وأُفرج عن 200 حاج كانوا محتجزين في الحجر الصحي بسبب الوباء. وقاموا بتصفية حسابات المحبوسين على ذمة دين، وفتحوا لهم أبواب السجن وأطلقوا سراحهم. وفي الليل انطلقت الألعاب النارية، وسطعت سماء استانبول بالأضواء . لكن لم يستطع كل هذا تغيير نهاية السلطان محمود الثاني، الذي شعر في اليوم التالي لتلك الاحتفالات بثقل، ثم أسلم الروح

وفى فبراير 1841 قامت قوات بريطانية، وقوات أخرى من النمسا، بطرد القوات المصرية من أضنة وسوريا. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص 453-462

[431] - مولتكه: هو ضابط بروسي، يعد أحد أربعة قامت على أكتافهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة، فى مطلع عام 1871. وهؤلاء الأربعة هم (غليوم الأول وبسمارك وفون رون ومولتكه) .عُين ضابطاً بالجيش البروسي، ثم سافر إلى استانبول، ونال تقدير السلطان محمود الثاني، وخدم في هيئة أركان الجيش العثماني. واشترك موقعة نصيبين أو نيزيب التي انهزم فيها الجيش العثماني أمام الجيش المصري. وبعد الهزيمة عاد إلى بروسيا، وتدرج في الوظائف العسكرية حتى عُين رئيساً لأركان الحرب بالجيش البروسي. حصل على رتبة مشير ثم تقاعد عام 1888. توفى عام 1891. انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 554 ، 555

فجأة. وفي الوقت الذي كانت فيه روح السلطان محمود الثاني تنسحب منه، كانت هذه الاحتفالات لاتزال قائمة، ظناً بأن صحته قد تحسنت. واصطف الشعب على طول طريق الديوان أو(ديوان يولي) يصرخون ويبكون أثناء سير جنازته نحو المكان الذي سيدفن فيه بجانبه فيما بعد، السلطان عبد الحميد الثاني، في (چامبرلي طاش) حيث أقيم قبره بجانب قبر محمود الثاني، وكانت الجماهير تقول:

يا سلطاننا إلى أين تذهب وتتركنا؟

أي معنى حزين، تثيره هذه الصرخات التي أطلقتها الجماهير بعد رحيل عبد المجيد، وعبد العزيز ومراد وعبد الحميد الثاني ورشاد ووحيد الدين؟ وهي صرخات مست زمن دخول (كوبري الصراط) في الدولة العثمانية.

ويقول الشاعر إسقاطاً على عام 1255هـ المشئومة، التي توفى فيها السلطان محمود الثاني، وأعتلى العرش السلطان عبد المجيد الأول، وقُرأ فيها فرمان التنظيمات[432] في ميدان گلخانة:

واحد أثنين وخمستين

أصبح عبد المجيد ملك

فقد عُرف عام "1839م-1255هـ" بأنه العام الذي قسم التاريخ التركي إلى قسمين.

أصبح عبد المجيد الأول فتى، بلغ مرحلة نضج جديدة في سن السادسة عشرة. ورث عن والده نفس جراح الكبد ورقة ونحافة جسده. لم يكن مضطرباً عقلياً أو نفسياً. فالسلاطين العثمانيين حتى السلطان عبد الحميد الثاني، لم يصابوا بأي اضطراب عقلي أو نفسي، لكن هذا الاضطراب بات واضحاً في السلطان رشاد. أما بالنسبة للسلطان محمد وحيد الدين السادس فكان يبدو هذا الاضطراب في روحه، فقد كان هناك اضطراباً عميقاً مؤلماً يعشش في وجدانه، اضطراب كامن لا يظهر أثره ولا صوته.

كان عبد المجيد الأول غريباً وبعيداً عن هذا الألم عند المقارنة، فهو قد فتح ذراعيه لأوربا وللغرب، ولم يستطع أن يواصل حياة تعمقت فيها جراح كبيرة، جراح مادية ومعنوية على مدى ما يقرب من 20 عاماً.

يرى (انكلهارد) المؤرخ الفرنسي، في كتابه المسمى بـ (تركيا والتنظيمات): أن مصطفى رشيد باشا[433] كان دليلاً على أن السلطان عبد المجيد الأول لم تكن لديه

---

[432] - يُقصد بالتنظيمات: تنظيم شئون الدولة العثمانية على غرار الدول الأوروبية، وتقريب العالم الإسلامي من العالم الغربي. وجاء هذا الاتجاه بعد الضعف الذي دب في أوصال الدولة العثمانية، وبعد الهزائم المتكررة التي مُني بها الجيش العثماني. وتم تبنيه اعتقاداً بأن الأخذ بأشكال الحكم الأوروبية، سئؤدي إلى قيام دولة قوية وحديثة. وقد مرت حركة التنظيمات بمرحلتين : الأولى، وهى التنظيمات العثمانية الخيرية المعروفة بـ"بخط شريف گلخانة" التي أعلنها السلطان عبد المجيد الأول عام 1839 والتي دعت إلى ضرورة إحداث تغييرات جذرية في مؤسسات الدولة. وعدم التفرقة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، على أساس من مذاهبهم أو انتمائهم العرقي. وحرية ممارسة الشعائر الدينية لكل المذاهب.والثانية،وهى حركة الإصلاحات المعروفة بـ"الخط الهمايوني" التي أعلنها السلطان عبد المجيد الأول في عام 1856، والتي أكد فيها على المباديء الإصلاحية الواردة في "مرسوم الگلخانة". وهى تتضمن المبادئ والقواعد المستمدة من الأنظمة الأوروبية. وانتهى عهد التنظيمات في عام 1876، عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، وأُعلن المشروطية الأولى. انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص 28، 29

شخصية. يقول انكلهارد: "لم تكن لدى السلطان أية سياسة سوى السعي لإرضاء أوروبا. وقد أصبح ألعوبة في يد رشيد باشا الكبير(تلك الصفة المضحكة التي ألحقها الاتحاديون باسمه)، فهو الذي مضى بسفينة الدولة في طريق التفرنج بدون محاسبة أو تحليل أو مراقبة أو تفتيش".

واستمرالسلطان عبد المجيد الأول بالسير بسفينة الدولة القديمة، المتهالكة، الذي أخذ الماء يتسرب من كل جزء في بدنها، إلى أن اصطدم بالصخور، وقام بالاقتراض من رأس المال الغربي، اقتراضاً مادياً ومعنوياً.

وكانت من ضمن الأشياء التي تُعتبر قمة الحداثة في رأي السلطان عبد المجيد الأول، والتي أدرجها بإيعاز من الثوريين المزيفين، هو مد اليد للخزينة الغربية، وإصدار نقود ورقية، مما أدى إلى تدهور النظام الاقتصادي المحلى.

ولمواجهة روسيا التي نصبت من نفسها جلاد غربي يعمل على تصفية تركيا، التجأ إلى أوروبا التي كانت تهدف دائماً إلى القضاء على الأتراك، ولم ترض أبداً عن علاقتهم بروسيا أو تطورهم. فقام بعقد الاتفاقيات، وبهذا استطاع أن يقف في وجه الروس. وظهرت في شوارع استانبول وأسكي دار، الأزياء الإنجليزية والفرنسية والإيطالية المزركشة المبهجة. وبعث الحياة والروح في سطور، وخطوط، مناخ "الزمن الجميل" بكل ألوانه.

وكان أول مظهر لهذه الروح هو ابتلاء السلطان بداء الشرب والنساء والإسراف. فقد كان ينفق على حفلات وولائم السلطنة، نقود كثيرة يمكن أن تملأ مابين سراي بورنو وحيدر باشا، نقود ملقاة في البحر. كانت ولائم وأفراح مثل تلك التي نقرأ عنها في حكايات ألف ليلة وليلة، وهذا بناءً على رواية أخت السلطان. كانت النساءالأوروبيات تظهرن في حفلات السفارات عاريات الظهر. وكان خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين يضع على صدره نيشان "الشرف" الأفرنجي، عند حضوره حفل راقص أقامته سفارة فرنسا. النتيجة ... رقد الوطن مريضا بمرض عضال في الظلام، واستُبدلت الشمس والقمر والنجوم بأضواء أوروبية صناعية متعددة، زائفة، وخادعة. ثم كانت "المسألة الشرقية"[434] على حد الوصف الأوروبي. "شيء غريب وصف الخليفة بإنه مشيد الكنائس المسيحية! ..."

---

[433] - كان مصطفى رشيد باشا سفيراً للدولة العثمانية في باريس ثم لندن. استدعاه السلطان عبد المجيد الأول، وعينه وزيراً للخارجية، ثم صدراً أعظم. وكان من دعاة الإصلاح، وساهم في وضع "خط شريف گلخانة" عام 1839، وهو الذي قرأه . انظر المرجع السابق، ص 25، 26

[434] - المسألة الشرقية: مصطلح عام يطلق على العلاقات السياسية بين بعض الدول الأوروبية، وبين الدولة العثمانية في القرنيين 18 ، 19 وأوائل القرن العشرين. بدأت المسألة الشرقية بنهضة روسيا كدولة أوروبية تحت حكم قيصرها بطرس الأكبر. وبانهيار تركيا منذ مطلع القرن 18، ساد إنجلترا وبروسيا الخوف من نتائج التوسع الروسي عقب الحروب التركية الروسية التي نشبت في القرن 18، إذ رأت بريطانيا في هذا التوسع، تهديداً لمصالحها في الهند. فتحالفت مع بروسيا وهولندا للوقوف في وجه الخطة الروسية النمساوية التى استهدفت تقسيم تركيا عن طريق استيلاء روسيا على المضايق والقسطنطينية، وبسط النمسا نفوذها على بعض الأراضي البلقانية. وتتابعت الحروب بين روسيا وتركيا طوال القرن الـ 19، بسبب المطامع الروسية. فنشبت حرب عام 1806 التي انتهت بصلح بوخارست 1812، وحصلت فيه روسيا على بعض المكاسب على البحر الأسود. ثم حرب 1828 – 1829 وانتهت بصلح أدرنة الذي

أصبح لدي عبد المجيد الأول 30 طفلا، ولم يكن قد بلغ الأربعين من عمره، كان محمد وحيد الدين الطفل رقم 23 ... و الطفل الثالث، كان السلطان مراد الذي جاء بعد ابنتين هن الأولى والثانية، أما الطفل الخامس، فكان عبد الحميد الثاني، والثامن، كان محمد رشاد.

مات عبد المجيد الأول بسبب مجونه، وابتلائه بمرض السل، قبل أن يصل الطفل محمد وحيد الدين إلى السن الذي يستطيع أن ينطق فيه كلمة "بابا".

بعد وليمة كبيرة تثير حقد روما في أيام انحطاطها، شعر بالغثيان، ورقد على سريره، و تقيئ هذه المرة دماً. تم عزله في قصر اهلامور في (بشيك طاش). وفي 25 يونيو عام 1861 أسلم الروح.

كان محمد وحيد الدين - أخر ابناء عبد المجيد الأول الذكور- عمره حينئذ حوالي أربعة شهور.

عبد العزيز

كانت الأعوام الأخيرة من عهد السلطان عبد المجيد، سنوات انكسار بالنسبة لشعب استانبول ... فقد كان الشعب على حق عندما خرج وراء السلطان محمود الثاني، يبكي ويصرخ قائلاً: "إلى أين تذهب وتتركنا؟"

ومن بعد السلطان الفاني، لم يبق شيء من فرمان (1839)،المقروء في ميدان گلخانة، أمام أناس كانوا عبارة عن مجرد ملابس مرصعة، خاوية من الداخل، مثل تماثيل متحف الشمع. أمام ملابس الوزراء، وعمامات العلماء، التي لم تستطع حماية الدعاوي. وملابس السفراء الواعية جيداً للمخططات. والملابس الروحية سوداء اللون والمقصد. وملابس جموع غفيرة من الشعب، كان رد فعلهم تجاه ما يرونه يحدث أمامهم، النظر ببلاهة.

طيلة العصور لم تستطع الحملات الصليبية، ولا النطح في الجباه، أن تُركع هذا الوطن. لكنه وصل الآن إلى حالة الفناء، بعدما انتشرت الميكروبات داخل جسمه بفعل عملاء التقليد. ومضى هذا كله، ورحل السلطان المحتشم، الألعوبة، بلا حساب ولا فهم. وانتهت الدولة العثمانية بعدما أُدخل إليها النساء والخمر ... كان السلطان عبد المجيد

اعترف فيه الباب العالي باستقلال اليونان. وعندما هدد محمد علي باشا السلطنة العثمانية، اتحدت روسيا وبريطانيا مع تركيا للوقوف ضد محمد علي، وعملا على حرمانه من مكاسبه الحربية عام (1833 – 1840) ثم انهار هذا الحلف. وعندما طالب قيصر روسيا بحق حمايته للرعايا المسيحيين في تركيا، تحالفت إنجلترا وفرنسا لمساعدة الرجل المريض (تركيا) في حرب القرم (1853–1856) التي خرجت منها روسيا مهزومة. ونشبت حرب رابعة بين روسيا وتركيا في عام (1877-1878)، خرجت منها روسيا منتصرة، وفرضت شروطها في معاهدة سان ستيفانو 1878. ولكن إنجلترا حرمت روسيا من معظم مكاسبها في معاهدة برلين 1878، بتأييد بسمارك لها. ثم نشبت الحروب البلقانية (1912 – 1913) التي انتهت بتمزيق الدولة العثمانية في أوروبا. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص1693

الأول غافلا لدرجة اعترافه - في "الخط الهمايوني" الذي كتبه إلى الصدر الأعظم- بإسرافه، وعدم المسئولية.

وهاهو ولى العهد عبد العزيز أفندى يبرز في الساحة، وقد أخذ يأسر قلب شعبه بحركاته البهلوانية، وعضلاته المفتولة. وعندما كان يخرج إلى الشارع، أو يبدى بطولة في سباقات الخيل، كانوا يصفقون له باعتباره المنقذ.

عندما أعتلى عبد العزيز العرش، لم يكن هناك فرق كبير في السن بينه وبين السلطان عبد المجيد الأول. وأول شيء فعله بعد اعتلائه العرش، إرسال "خط همايوني" إلى الصدر الأعظم محمد باشا القبرصي، يقول فيه: كل شيء يبقى على ما هو عليه. وبموجب فرمانات 1255هـ (1839)، و1272هـ، يبقى كل شيء ثابت في مكانه ... سياسة الإبقاء والدوام ... كان هناك سلطان جديد، ولم يكن هناك شيء جديد. واتضح من أول "خط همايوني" إنه لا يملك في روحه، نفس القوة التي يملكها في ذراعيه.

ويختتم هذا الخط بما يلي:

" _ بناءً على أمر السلطان، يجب أن يتمتع الجميع بدون استثناء بالسلام والرفاهية والعدل، ويحظوا بالاهتمام وتتحسن أحوالهم. وعليهم أن يقدموا فروض الطاعة والولاء للسلطان. كما يجب أن يتفضل الأغنياء كذلك بتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان، لأنه سبب ثروتهم وجاههم الذي بلغ عنان السماء. وبذلك يتمتعوا بحماية سلطتنا ودولتنا، وبكل ما فيها من خيرات. وأكرر مرة أخرى اعترافي بأهمية استقلال الدولة، واستقلالهم هم أيضا. وليوفقنا جميعاً حضرة الفياض المطلق، والحبيب الأكرم، اللهم أمين!".

وفي عهده تتفاقم الأزمة المالية، وتتجمد مسألة "قره داغ" أى الجبل الأسود، وتقوم ثورة الهرسك، وتتدخل أوروبا في المسألة.

وكان أول ماقام به السلطان عبد العزيز، بناءً على تاريخ لطفي، الآتي:

تخصيص 1000 كيسة من الذهب، كمرتب للسلطانة الوالدة. وتخصيص مبلغ 4190 كيسة من الذهب، يُصرف من الخزينة الخاصة، كراتب شهري للسلطان والأمراء. وهذا المبلغ يساوي اليوم (3 مليون ليرة تركية).

عبد العزيز الذي يُقَلد السيف في ضريح حضرة خالد في أيوب، قام في اليوم الثالث لجلوسه على العرش، بإصدار "خط همايوني" أعلن فيه خبر ولادة ابنه عز الدين افندي الذي جاء إلى الدنيا منذ ثلاث سنوات، وكان يحتفظ بخبر ولادته سراً. كان هذا الطفل الذي أخفى أمر ولادته - بناءً على عادة قديمة- يقيم في منزل في منطقة أيوب. كما خصص عبد العزيز مبالغ نقدية كبيرة، لباشاوات التنظيمات القدامى.

والشعب الذي ضاق بإسراف عبد المجيد الأول الشديد، وجد السلطان الجديد أكثر إسرافاً وطمعاً. فقد اتجه في تلك الأثناء (1862) إلى الاقتراض من لندن . وقيل إنه بهذه النقود، كان سيتم التعويض عن عدم نجاح القرض القديم، وسيتم أيضا إلغاء النقود الورقية. وكان مقدار هذا القرض حينئذ - نسبة للنقود الورقية- حوالي 13 مليون ليرة ...

وبهذه النقود المعروفة باسم "القوائم"[435]، استطاع السلطان عبد العزيز توفير مقدار من المال تمكن به من سداد بضعة ملايين من العجز.إذ سدد حوالي 200 مليون فرنك فقط، من 500 مليون ...

ولأن لندن أسهمت بـ 60% وبفائدة 6% في السنة، وربحية تقدر بـ 2%، أصبحت بمثابة المسيطرة على مواردنا الخاصة، والمنتفعة بها.

واقتصر استيراد الدخان والملح والدمغة على أوروبا، كما اقتصرت عليها أيضا الإمتيازات، وكان هذا الدين هو بداية "الديون العمومية"[436].

فقد قام السلطان عبد العزيز بتسميم شجرة الدولة من جذرها، بدلاً من تلقيحها بلقاح شافِ. وأصبح دين الدولة العثمانية الذي بدأ في عصر عبد المجيد الأول، 300 مليون قطعة ذهبية، أى ما يقدر في يومنا هذا بحوالي (200 مليار ليرة) ...

وثمة نقطة دقيقة نتنبه إليها هنا، وهي: إن الرأسمالية الغربية التي قلمت أظافر الاشتراكية، ومن قبلها الشيوعية، قد بلغت درجة كبيرة من القوة، وأخذت في ذلك العصر تبحث عن مخرج لنفسها، من أجل إيجاد سوق استهلاكية لمصنوعاتها، واستغلال الشرق كله، فاتجهت إلى الدولة العثمانية مباشرة.

ثم أوكل الغرب لجيوشه بالأمر لينفذ أخر عملياته. وقدم دماً لمساعدة وطننا في الظاهر، لكنه كان دماً مسمماً، قاتلاً. أما الذين ساعدوا الغرب على تحقيق أمله في القضاء على دولتنا التركية، فهم هؤلاء الزمرة ... مانيكانات العرش الذين نُحتو بأيدي نجار ماهر... والثورجية المزعومين، صانعي التنظيمات...ولم يكن هناك أنسب من عبد العزيز ذو العقل الصغير، وإحساس بالشرف عالي، وحيثية فوق العادة، وقلب صافِ، وشجاعة واضحة، ليكون سلطان هذا العصر، الذي يمكن جعله يجلس على اللصق بسهولة.

---

[435] - القوائم عبارة عن أوراق صغيرة ملونة بألوان مختلفة، كل منها بقيمة معلومة من النقود. تم إصدارها في عهد السلطان محمود الثاني، والسلطان عبد المجيد الأول، بسبب حرب استقلال اليونان، لتحديث الأسطول العثماني. فأصدرت الدولة في عام 1830 أوراقاً بقيمة اثنين وثلاثين ألف كيسة، بفائدة 8% سنوياً، تُستهلك في ثماني سنوات. وبسبب حروب الشام بين مصر والدولة العثمانية، استهلكت الدولة هذا المبلغ، بل وأصدرت أوراقاً بلا فائدة، وامتنعت عن دفع الفائدة عن الأوراق الأصلية. وتوالى إصدار الأوراق كل عام. وحاول السلطان عبد المجيد الأول سحب القوائم، لكن حرب القرم حالت دون ذلك. واضطر إلى الاستدانة من أوروبا لمواجهة أعباء الحرب. ولما نفدت أموال القرض، اضطر إلى إصدار قوائم جديدة. واستمر الحال على هذا النحو. وكل عام تزداد الديون الخارجية، والقوائم الداخلية، حتى شارفت الدولة على الإفلاس. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص 540

[436] - تم تأسيس مؤسسة الديون العمومية في الدولة العثمانية في عام 1882م. وكان الهدف منها هو تسديد الديون الخارجية، التي اقترضتها الدولة في العهد السابق مباشرة على عهد السلطان عبد الحميد الثاني. فقد وصلت ديون الدولة في أواخر أيام السلطان عبد العزيز إلى 5.297.676.500 فرنكاً ذهبياً. تم تشكيل مجلس إدارة مشترك يضم ممثلين الدول الدائنة. ووضعت هذه المؤسسة إيرادات الدولة الرئيسية تحت تصرفها، لتسديد ديون الدولة، مما أدى إلى إيجاد نوع من الوصاية على سلطة الدولة، وقد لعبت هذه المؤسسة دوراً في تسديد كثير من ديون الدولة أثناء عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولكنها أدت إلى عجز ميزانية الدولة، وإلغاء رقابة السلطان. انظر محمد حرب،السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص 109

وأجدني مضطراً هنا أن اتناول بعض النقاط التي تناولتها عند حديثي عن طفولة، وشباب، وإمارة الأخ الأكبر للسلطان وحيد الدين، في كتابي المسمى (السلطان العظيم عبد الحميد الثاني)، ولكن هذه المرة بأسلوب مختلف. ورأيت أن اتناول عصري السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان محمد رشاد، تناولاً سريعاً حتى أبدأ من نقطة البداية عند الحديث عن مرحلة طفولة، وشباب، وإمارة وحيد الدين، وأيضا مرحلة نضجه، وليوفقني الله ألا أكرر كلماتي، واستطيع انتقائها ...

بعد أن أغرقت أوروبا، تركيا في الدين تماماً، تم إنشاء مؤسسة باسم (الديون العمومية العثمانية). كانت هذه المؤسسة بمثابة اليد التي نهبت ثروات الدولة، بحجة تحصيل الدين. وتم الحجر على تركيا، وأصبح الدين سبباً في التدخل الأوروبي السياسي، والعسكري، في المستقبل. وصارت أوروبا تسيطرعلى سياسة الدولة حتى يتسنى لها الهيمنة الاقتصادية، وهذا هو المعنى الحقيقي الوحيد (للديون العمومية) !...

كانت الديون العمومية، ومدرسة (جالاطة سراي) المسماة بـ (المدرسة السلطانية)، المدخنة التي سربت تيار الغرب والتغريب. وكان أرباع المثقفون هم الملاحين الذين أوصلوا هذا التيار للدولة. وكان (البنك العثماني)[437] أو بنك الدولة، هو موظف الصرف، الذي صرّف هذه الدعوى داخل السلطنة ...

وكان سرعة العمل، والدهاء في تمرير الكرة، داخل هذه المؤسسات التي شكلت المثلث الموسوي ملفتاً. فقد تم قبول خريجي (المدرسة السلطانية) - طاجن العجين الذي خُمر فيه تيار التغريب- من الأوائل وذوي الترتيب الثاني، بدون امتحان، باعتبارهم مريدين صادقين وموثوق بهم. والمبلغ الذي كتبت في أثرى الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني إنه ارتفع إلى 300 مليون قطعة ذهبية، مشكلاً دين الدولة، كان في الأصل عبارة عن 150 مليون ليرة إنجليزية، وذلك وفقاً للمصادر الرسمية. وتردد إنه ارتفع إلى 300 مليون بسبب الإمتيازات السرية، التي أضيفت إليه عن طريق جهود وأساليب خاصة. وهذا مبلغ يكفى لإفلاس وانهيار أية دولة وأي اقتصاد.

وقد صورت في أثرى الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، كيف أصبح عبد العزيزخان سلطاناً مقيداً من رجال قصره ذوي الروح البيزنطية، وهو الذي كانت تصفه أمه السيدة (بيرتافنيال) هانم بقولها: "أسدي، أسدي" لشدة عصبيته. فعندما كان يزأر غاضباً، كانت أحجار أرصفة استانبول تهتز، وبرغم هذا أصبح حصان سيرك مطيع

---

[437] - البنك العثماني تأسس في عام 1856، في استانبول عاصمة الدولة العثمانية، برأس مال بريطاني بلغ 2 مليون جنيه إسترليني. ثم أصبح شركة مشتركة تمثل بريطانيا، وبنك باريس، وهولندا، والحكومة العثمانية . كان هذا البنك يمثل الدولة العثمانية، حيث صار بمثابة بنكاً للدولة. وكان أشبه ببنك مركزي محتكرا سلطة إنشاء الأوراق النقدية العثمانية، ليعمل بهذه الصفة حتى عام 1924. وفي يونيو 1996 اشترته مجموعة مالية تركية. وفي عام 2001 صار جزئاً من بنك (غاراناتي) . مركز البنك الرسمي كان في العاصمة البريطانية لندن. وكان فرعه الرئيسي في استانبول. وكانت له فروع في عدد من المدن الواقعة تحت سلطة الدولة العثمانية، لتصل في العام 1911 إلى 45 فرعا. وهذه الفروع هى بيروت (1856)، بوخارست (1861)، سلانيك (1862)، الإسكندرية (1866)، باريس (1868)، بغداد (1862)، دمشق (1875-1921)، طرابلس، ليبيا (1906-1912)، بنغازي (1911-1912)، تونس (1920)، عمان بتاريخ http\\www.ar.wikipedia.org2010/5/9 انظر . .(1925)

لأوامر سائسيه، الفنانين الذين لم يوجهونه بالسوط . وأصبح هذا السلطان الحاكم من الخارج، المحكوم من الداخل، عبارة عن صورة لحركة التنظيمات - التي أدت إلى التدهور خلال فترة امتدت من 5 إلى 10 سنوا ت- في لوحة زيتية رسمتها يد الفرنجة.

وتبلور حكم قيم في حق السلطان عبد العزيز، في أثرى الآخر الخاص بالسلطان عبد الحميد الثاني، فيما يتعلق بالقصور التي شيدها، والأسطول الذي اشتراه مقترضاً من الرأسماليين الغربيين. فلم تكن لتلك القصور قيمة معمارية ولا شخصية، كانت كنوع من السجن الذي هرّبت بداخله أوروبا، السلاطين من ساحة الدعوى الملية. والأسطول الذي كان يقال عنه إنه أكبر ثاني أسطول في العالم، كان يفتقد لعناصر القوة البحرية الثلاث: القوة المادية، وقوة الأفراد، والقوة المحركة. فقد كانت قوته تحت الصفر.

وعندما تم خلع السلطان عبد العزيز عن العرش، كان هذا الأسطول هو أول القوى التي أحاطت بقصره، وصوبت مدافعها تجاه نوافذه. وكان السلطان ينظر من نافذة لأخرى وهو يقول: "أسطولي، أسطولي". وكان هذا بمثابة جزاءً آلهياً لعدم التفكير والاعتبار. وعندما رأى ما آلت إليه حالته، سقط على الأرض مغشياً عليه. فعندما نضع لأية قطة مخلب أسد، هل يكون هذا مناسباً ؟ ألا نرى أن المخلب يخرج من بنية غير مناسبة؟ فقد كان أسطول تم إلحاقه بجسم مريض، فأصبح لا قيمة له، وليس له قابلية للاستخدام . كان عبارة عن أكذوبة، خدعوا بها السلطان.

وهذا التابلوه أو تلك الصورة، التي رسمناها للمناخ الذي تربى فيه محمد وحيد الدين افندي وكبر فيه، يُظهر المسار الذي لابد وأن تسير فيه محاسبتنا التاريخية، حتى نستطيع فك شفرة ما كان، وما كان يجب ألا يكون.

وهكذا استطعنا بهذه السطور القصيرة،الموجزة، أن نبرز سوء الواقع الذي فاق الحد، حتى جاء اليوم الذي سقط فيه السلطان عبد العزيز- مثل حيوان السلخانة- من على عرشه المنشور بمنشار (الغرب)، مع صراخ أمه: "أسدى، أسدى!".

وبسبب هذه القوائم التي لم تجف جذورها المتنوعة، وبسبب حياة الرفاهية، وتضاعف سعر الذهب لأربعة أمثاله، أصبحت أوقية رغيف الخبز المسمى (نان العزيز) يساوى 110ليرة، والخبز الأبيض يساوى140 ليرة. (بالقياس بأسعار اليوم، لا يوجد بركة! أليس كذلك؟) ...

"الفكرة العظيمة" التي بدأت بمسألة اليونان، و(حرب المورة)[438]، والتي ساعدت على حماية استانبول منذ ذلك اليوم، هي الدعوى الأساسية التي ستبرز في عهد السلطان

---

[438] - حرب المورة: وتسمى أيضا بحرب استقلال اليونان، التي وقعت في الفترة بين (1821م – 1832م). وهي ثورة الشعب اليوناني ضد الدولة العثمانية، التي كانت اليونان تشكل جزءً منها منذ فتح القسطنطينية عام 1453م. وقد أدت تلك الحرب إلى تأسيس المملكة اليونانية. انحصرت الحرب منذ بدايتها، وحتى عام 1825، بين العثمانيين واليونانيين، ولكنها شهدت تغيراً في سير أحداثها، عندما طلب السلطان محمود الثاني المساعدة من محمد علي، أقوى ولاته، والذي كان قد جعل من مصر قوة تنافس سلطة العثمانيين أنفسهم. استجاب محمد علي لطلب محمود الثاني، وأرسل أسطوله البحري بقيادة ابنه إبراهيم باشا، لقمع الثورة اليونانية. فقام الإنجليز والفرنسيين والروس، بإرسال أساطيل حربية قرب سواحل اليونان. ودمروا الأسطول المصري والعثماني في خليج (نافبليو)، فيماعرف بمعركة (نافارين)، في 20 أكتوبر 1827. ومع أن معركة نافارين سببت العجز للقوات العثمانية، فقد استمرت الحرب

محمد وحيد الدين (محمد السادس)، وسيتحمل هذا السلطان مسئولية المحاسبة عن نصف العصر.

من الأشياء المضحكة، انشغال سكان الطبقة العليا بلعب الشطرنج، بينما البيت التركي يحترق من الداخل، فقد انشغلوا بالتشريفات، والألقاب المناظرة للألقاب الأوروبية. فمثلا وزير يقال له صاحب المعالي، صانع العلا المتميز ... إلى نهاية العدد. وشكل الخطاب إلى حملة تلك الألقاب يبدأ من: دولتلي[439] أفندم وينتهي بـ غيرتلي أفندم. هذا بالإضافة إلى الأوسمة الكثيرة، منها الوسام المجيدى المشتق من الوسام العثماني. وفي بعض الأحيان كان يتم الحصول على أربعة أوسمة عثمانية مرصعة، مقابل عشرة آلاف قطعة ذهبية. وكان السلطان مغروراً بهذه الأوسمة لدرجة أنه أيام غروب حكمه، كان يذهب إلى (بورصة) لا ليقوم بسحب أحد هذه الأوسمة، و يضعها على صندوق قبر (عثمان) العظيم، مؤسس الدولة، بل ليُظهر وكأن المكانة التي بلغها، هي بمثابة مكافأة من عثمان العظيم، الذي منح الدولة اسمه. وفي (جالاطه) أصبح محمد على، واحداً من مريدي شخص يُدعى (رضالي سوفو بابا الصندوقي) حيث تزوج ابنته في البداية، ثم جعله السلطان عبد العزيز، مستشار القصر، بعد أن أصبح صدراً أعظم، ثم قائداً للجيش "سرعسكر"، ثم أميراً للبحر، ثم وزيراً للمدفعية والصحة، بالإضافة إلى وزارة الخزانة الخاصة.

وأصبحت (قره داغ) أو الجبل الأسود والبوسنة والهرسك - بموجب دعوى "وحدة السلاف"- تحت إدارة وقيادة الروس... وببساطة، وقعت تركيا الممزقة، المتشبهة بأوروبا، هكذا في حفرة... وصار العالم سابحاً في الدم والنار. وبعد احتلال جزيرة كريت، صارت تركيا - المتشبهة بأوروبا، تلك الدولة الخالدة، العريقة، التي سعت إلى وضع نفسها بين المطرقة والسندان- تبدأ من جنوب البحر الأبيض، منحرفة إلى الشمال، متقدمة على طول ساحل البحر الأسود.

وغير ولاة مصر القابهم إلى لقب (خديوي) مما أضاف إلى مقامهم، إمتياز فوق إمتياز. وهذا اللقب الذي صار بمثابة إرث يرثه الابن عن أبيه، نال عليه الوزراء ثروات هائلة، من أجل الحصول عليه من الدولة العثمانية. فلم يعد هناك جيب لم يمتلئ بذهب الخديوي إسماعيل باشا. وكان هذا الحال يعد أمراً طبيعياً، لدرجة أن الوزراء كانوا يرون تعبير (معاملة رفيق الدرب) تعبيراً لائقاً لهذا العمل... ومن ناحية أخرى كان الأمير مصطفى فاضل[440] الغاضب من أخيه إسماعيل باشا، حانقاً. وكان هو أول من

بعدها، وتعقدت أمورها مع نشوب الحرب الروسية العثمانية بين عامي (1828 و1829). انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص 414- 450

[439] كانت الدولة العثمانية قد وضعت القاباً لكل مرتبة ورتبة ووظيفة. فمثلاً الصدر الأعظم، يخاطب بـ"دولتلي فخامتلي أفندم حضرتلري" أي حضرة صاحب الدولة والفخامة. والمعزول من الصدارة، يخاطب بـ"دولتلي أبهتلي افندم حضرتلري" أي حضرة صاحب الدولة والأبهة.

[440] - الأمير مصطفى فاضل: هو شقيق الخديوي إسماعيل. كان يرى أنه أحق بعرش مصر، فحدث الخلاف بينه وبين شقيقه، فهرب إلى باريس. وجه خطاباً إلى السلطان عبد العزيز يعلن فيه أنه ممثلاً للعثمانيين الجدد "جون تورك" وأوصاه بتحسين العلاقات الفرنسية العثمانية. كان حرمانه من وراثه العرش في مصر، هى التي دفعته إلى التعاون

اضطلع بالنضال الحر، وقام بحماية جمعية (الشباب العثماني)[441] التي شكلها نامق كمال[442] في الداخل، كما ساعد على هروب نامق كمال وضيا باشا إلى أوروبا...

وعندما يتفاهم الأمير مصطفى فاضل مع الباب العالي، يندفع أبطالنا المزيفون إلى الشارع في ديار الغربة، كأسمال بالية، ويطلبون هم أيضا العفو السلطاني، ويعودون إلى الوطن.

كانت هناك سطحية كبيرة وضحالة وعدم شخصية، في السياسة والأدب والعلم والفن والفكر بصفة عامة.

وكانت بدعة السفر إلى أوروبا للمتعة والسياحة، أمر يبعث على السخرية. فقد ابتدع السلطان العثماني رقم (32)، السلطان عبد العزيز، فكرة السفر إلى أوروبا بغرض السياحة ... وكان يأخذ معه أولاد أخيه، الأمير مراد والأمير عبد الحميد وابنه يوسف عز الدين وفؤاد باشا[443] الذي سيموت مسيحياً في مدينة نيس. وفي باريس يزورون قصر (الإليزيه) وفى لندن يزورون قصر (باكنجهام)... هذا الرجل الغريب ذو الجذر الشرقي والأغصان والثمار الغربية المصطنعة، أليس هو حفيد سليمان العظيم؟ ويشاهد الأوروبي هذا التركي الجديد بأدب، متعجباً، ومحتاراً. ويبدى له، للطير الذي فى القفص، احتراما خاصاً.

أما الأمير وحيد الدين أفندي، فلم يكن قد بلغ مرحلة البلوغ حينئذ، فظل خارج كدر السياحة، لأنه كان لا يزال طفلاً. وأقيمت مأدبة ضخمة، فى حجم ميزانية الدولة،

مع أحرار مصر والدولة العثمانية، حتى أنه أنشأ في باريس شركة مصرفية كان يصرف من أرباحها على الأحرار أمثال، نامق كمال وعلي سيعاوي. ثم تم الصلح بينه وبين الإدارة في الأستانه، وتم تعيينه وزيراً للمالية. انظر الصفصافي أحمد القطوري، التجربة الديموقراطية في تركيا الحديثة والمعاصرة، الجزء الأول، القاهرة 2006، ص 22

[441] - جمعية الشباب أو الشبيبة العثمانية: هى منظمة سرية تأثرت بالجمعيات الإيطالية السرية - التي أطلق عليها اسم جمعيات (الفحامين) أو(الكاربوناري)- التي انتشرت في فرنسا والبرتغال وإيطاليا، لتحرير هذه الأمم بمبادئ الثورة الفرنسية. وقد تشكلت جمعية الشباب العثماني في استانبول عام 1865، وكان من أهدافها إدخال أشكال الحكم الأوروبي، والعلمانية إلى الدولة العثمانية. وكان من بين أعضائها الشاعر التركي نامق كمال، والمفكر التركي ضيا گوك ألب. وعندما فُرض الحظر على نشاطها، هرب قادتها إلى باريس حيث أصدروا جريدة (الحرية) التي كان يتم تهريبها إلى داخل البلاد التركية. وكانت تدعو إلى ضرورة إقامة حكم دستوري في الدولة العثمانية، وكان الأمير مصطفى فاضل يدعمها هناك. وعندما عاد الأمير مصطفى فاضل إلى مصر، وتم الصلح بينه وبين شقيقه الخديوي إسماعيل، وعاد نامق كمال إلى استانبول، ضعف نشاط الجمعية، وعاد أعضاءها المبعدون إلى بلادهم. انظر على حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، مرجع سبق ذكره، ص 223

[442] - نامق كمال (1840-1888)، هو شاعر ومؤرخ إسلامي عثماني تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية. بدأ بكتابة المقالات في جريدة (تصوير أفكار) ثم أصبح المحرر السياسي للجريدة . كون مع أصدقائه من الشباب جمعية ثورية تطالب بالدستور . هرب مع أصدقائه إلى باريس، وأصدروا جريدة الحرية. وبعد صدور العفو العام عاد إلى استانبول. من مسرحياته (وطن)، وتسمى أيضا (سلسترة). انظر محمد حرب عبد الحميد، "الشعر التركي الحديث والمعاصر من بداية الحركة الكمالية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة 1968، ص 20

[443] - فؤاد باشا(1815-1869)، هو الصدر الأعظم في عهد السلطان عبد العزيز، عم السلطان عبد الحميد الثاني. ويلقب بفؤاد باشا الكبير.انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص 134

لنابليون الثالث والإمبراطورة أوجينى التي أحبها عمه حباً عذرياً. وفى نفس الوقت، ونفس المكان الذي لا يستطيع فيه الموظفون الحصول على راتبهم لمدة ستة شهور، نجد السلطان عبد العزيز يقيم الزينات بين قصر (دولمه باغچة)، وقصر (بيكوز). فكيف لا يكون هذا تحذيراً لعبد العزيز، بعدم الاستمرار فى هذا العمل.

يحاسبون الأمير وحيد الدين أفندي - الأخ الأصغر للسلطان مراد[444] الذي كان نصيبه من السلطنة عدة شهور- ولم يكن حينئذ قد دخل مرحلة النضج والتفكير. كان عمره 15 عاماً فقط، وفي بداية سن البلوغ. هذا الشاب الذي يقف على عتبة الشباب، وهو بين العرش والرجولة، كان على بعد عدة أقدام من عبد الحميد الثاني ومحمد رشاد ويوسف عز الدين أفندي.

كان وحيد الدين أفندي، ذلك الشاب المرشح للعرش، نحيفاً وضعيفاً ومريضاً... كان أمير شاب ينتقل من مرض إلى مرض، ويمكن القول إنه كان نموذجاً لحالة الدولة. ونحن لا نعرف الكثير عن المرحلة التي مابين الطفولة والرجولة لمحمد وحيد الدين أفندي، أي عن حياته وتفكيره وميوله وإتجاهاته في تلك المرحلة.

وكرر (علي فؤاد توركجلدي)، باشكاتب القصر فى عهد سلطنته، في كتابة (ما سمعت وما رأيت) قوله: "إن وحيد الدين تعرض فى طفولته وشبابه لعدة أمراض. ولهذا السبب كان هذا الأمير لا يستطيع أن يقرأ أويحصل دروسه بطريقة لائقة. وكان لا يفتخر بعلمه، حيث كان يشعر بنقص لعدم تحصيله الكثير من العلم حتى عهد السلطنة، وكان يعترف بذلك"[445].

فى عهد السلطان مراد، كان الأمير محمد وحيد الدين، في مرحلة النقاهة من المرض. كان متعوداً على الوقوف فى النافذة ذات الستائر الحريرية الخفيفة، والنظر إلى مياه البسفور المرتعشة ... يالها من دولة هائلة، فى يد مدحت باشا[446] وأشباهه من

---

444 - السلطان مراد الخامس: هو ابن السطان عبد المجيد الأول، والسلطان الخامس والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. ولد عام 1840، وتولى السلطنه بعد عزل عمه السلطان عبد العزيز وكان عمره 36 عاماً . حكم لدة 93 يوماً فقط. وعُزل لإصابته بالجنون. وتولى بعده السلطنة شقيقه عبد الحميد الثاني . كان مغرماً بالموسيقى، ويجيد اللغة الفرنسية. انظر المرجع السابق ص 133

445 - يقول قدير مصر أوغلي في كتابه (السلطان وحيد الدين، سلطان مظلوم) : "إن قول وحيد الدين، أنه لم يحصل على قدر وافٍ من العلم، كان من باب التواضع، لأنه كان يواظب على حضور دروس الفقه والحديث والكلام والتفسير في مدرسة الفاتح، في سنوات شبابه". انظر Kadir Mısıroğlu,"bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e.s.76

446 ولد مدحت باشا عام 1822 في استانبول. كان والده قاضياً. عُين والياً على دمشق ثم قونية، وحاكماً لبغداد، ثم وزيراً للعدل. شغل منصب الصدر الأعظم مرتين. الأولى، في عهد السلطان عبد العزيز، والثانية، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. كان متعاطفاً مع أفكار وأراء تركيا الفتاة، ومعجباً بالحضارة الغربية، ومنادياً بضرورة إصلاح الدولة العثمانية، وداعياً إلى وضع الدستور. وفشلت محاولاته لوضع الدستور في عهد السلطان عبد العزيز، والسلطان مراد الخامس. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، عهد إليه السلطان تأليف لجنة لإعداد دستور للبلاد. فأعدته اللجنة، ونشرته تحت اسم "القانون الأساسي" في عام 1876. تضمن الدستور الجديد الذي تأثر واضعوه بالدستور البلجيكي والروسي، 12 قسماً و119 مادة. وأصبح دستوراً رسمياً للدولة، ونص على أن الإسلام دين الدولة، وعلى ضرورة إنشاء مجلساً للمبعوثين أي النواب، ومجلساً للأعيان أي الشيوخ. وأقامة الحكم في الولايات على أساس اللامركزية. وبعد 11 شهراً من الحياة النيابية، أوقف السلطان عبد الحميد الثاني العمل بالدستور، وأقال

الماسونيين، فهو رقم 4 من بينهم. وهاهو السلطان مراد - الابن الأكبر للسلطان عبد المجيد الأول، بقميصه الأوروبي، وملابسه المهندمة، خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين- نجده مقيداً رقم واحد فى السجلات العالمية واليهودية.

كان السلطان مراد معتوهاً فى فترة إمارته، كان يشغل وقته بعمل قصور ضعيفة ويقوم بهدمها، ثم يصنعها مرة أخرى ثم يهدمها، لم يكن موزوناً ولا هادئاً. وأثناء مراسم توليته كسلطان، كان يقوم بكثير من الحركات التي تدل على جنونه. وظل سلطاناً على عرش خاوي، ينتظر من سيأتي عليه الدور ليشغله. وهكذا صار الحال إلى أن أصبح عبد الحميد الثاني ولي العهد، السلطان الرابع والثلاثين، وكان يوصف بـ "السلطان العظيم" وظل فى الحكم 33 عاماً.

والروايات التي تقول: إن مدحت باشا ذهب إلى قصر ولى العهد عبد الحميد أفندي، وتشاور معه، وساومه بشأن (القانون الأساسي) أي الدستور، ماهى إلا أكاذيب ليس لها قيمة ولاأساس من الصحة، رددها أعداء السلطان عبد الحميد الثاني.

السلطان العظيم عبد الحميد الثاني، فى رأيي، كان سلطاناً ذو شخصية متميزة، ولذلك كتبت عنه كثيراً، وسأظل أكتب. ومن خلال حديثي عن هذا السلطان، ستتضح البيئة والوسط الذي تربى فيه السلطان وحيد الدين.

عندما تولى السلطان عبد الحميد العرش، كان وحيد الدين فى سن الخامسة عشرة، وظل حتى سن الـ 48 منتظراً دوره للجلوس على العرش، أى إن فترة شبابه ونضوجه وبداية كهولته، كلها قضاها فى (العصر الحميدى) الذي استمر لمدة 33 عاماً .

كان السلطان عبد الحميد الثاني يحب أخوه وحيد الدين أكثر من باقي إخوته. وكان من المقربين له من بين إخوته الأمراء الآخرين. كان يحب صحبته، والحديث إليه وتحقيق رغباته، ويجد فيه مثيلاً له مادة ومعنى. كانا متشابهين من ناحية علاقتهما بالدين، وارتباطهما بالإسلام.

كان عبد الحميد من أكثر السلاطين العثمانيين الـ 36 تديناً وخشية لله، وإحساساً بالمسؤولية. ولم يكن مثله سوى ثلاثة، منهم السلطان محمد وحيد الدين.

كان محمد وحيد الدين من الناحية الصحية، نحيفاً وضعيفاً. وخلال عصر عبد الحميد الثاني تعرض للكثير من الأمراض العضوية، لكن روحه كانت هادئة.

وفى الوقت الذي تتجه فيه الدولة - لأسباب داخلية وخارجية- نحو الهاوية، نرى يد السلطان عبد الحميد العظيم تمتد لتنقذها من السقوط .

وهاهي الحرب العثمانية الروسية التي جاءت ضد إرادة السلطان عبد الحميد، وكهدية لمدحت باشا من السفير الروسي (إيجناتيف)، عندما فتح الطريق أمام الروس أكثر.

مدحت باشا بعدما ثبت تورطه في مقتل السلطان عبد العزيز. وحُكم عليه بالإعدام، ولكن السلطان عبد الحميد الثاني خفف الحكم إلى السجن مدى الحياة بالطائف. ومات عام 1884م، حيث أشيع أنه مات مخنوقاً بأمر السلطان عبد الحميد الثاني. واستمر وقف العمل بالدستور 30 عاماً إلى أن أصدر السلطان عبد الحميد الثاني مجدداً قراراً في عام 1908، بإعادة العمل به. انظر Mahmud Kemal İbnül-Emin, "Osmanlı Devrinde Son Sadrıazamla", cilt 2, a.g.e. s.315-320

وكانت تسمى بحرب (93)[447]...! وهاهي المشروطية المزيفة، وثقافة الأبطال المزيفين، التى أُعلنت بإطلاق (101) طلقة مدفع، داخل (مؤتمر الخليج)، الذي أضحك علينا كل أوروبا ... وهاهو المجلس الأول الذي آوى الأحزاب الخبيثة التي لم تفعل شيئاً سوى تمهيد الطريق لتقسيم (الدولة العلية). تلك الأحزاب التي حشدت حقل الألغام المتمثل فى جواسيس أوروبا (الإمبريالية)، والشريك اليهودي والماسوني. وهاهو أول قرار عظيم للسلطان العظيم، حيث قال:

إنني أفسخ المجلس، لأن هذه الأمة لم تبلغ روحها سن الرشد الذي يجعلها تُمثل داخل نظام الحرية الأوروبي. وكانت نتيجة قرار الفسخ عبارة عن هذا:

استطاع السلطان عبد الحميد أن يحكم 31 عاماً في هدوء، بعد محاولة المشروطية الأولى[448] التي فُرضت على غير إرادته، وبعد انتهاء الأزمات التي نجمت عن الحرب التركية الروسية.

الدهاء السياسي

كان عبد الحميد يتمتع بدهاء سياسي، وشجاعة مكنته من مواجهة الآخرين، ومواجهة التهديدات التي حاصرت تركيا، وضمان أكبر استفادة من مراقبة إنجلترا وألمانيا، اللتين راحتا تستعدان لشن الحرب العالمية الأولى، التي وقعت بعد 37 عاماً من حكمه... هذا الدهاء أيضا سيمكنه من توجيه ضربة كبيرة ضد (بسمارك)، مؤسس الوحدة الألمانية، وعدو تركيا. وهذا الدهاء أيضا هو الذي جعل القيصر(ويليام) يعترف قائلاً: "إنني تعلمت دقائق السياسة من السلطان عبد الحميد". وهو الدهاء أيضا الذي مكنه من معالجة مسائل مثل، البلقان وكريت ومصر والعقبة والحجاز واليمن، دون أن تؤثر إحداهن على بنية الدولة.

الدهاء الإداري

تمثل الدهاء الإداري للسلطان عبد الحميد الثاني، فى معرفة الأخبار الدقيقة والهامة. واستن سنة - هى الأولى من نوعها- أدت إلى وأد الفتن، ورأب الصدع الموجود فى أساس الدولة. وعمل على القضاء على التيارات السرية، ولم يتبع فى ذلك أساليب خسيسة، مثل تلك الأساليب التي ليس وراءها سوى الأطماع الشخصية، والعمل على

---

[447] - حرب 93: هى الحرب العثمانية الروسية (1877- 1878). سميت بذلك نسبة إلى السنة الرومية لقيام الحرب، وقد انتهت بهزيمة الدولة العثمانية. انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص 140

[448] - المشروطية: هي إعلان النظام البرلماني في الدولة العثمانية. وبموجبه أصبحت الوزارة مسؤولة أمام البرلمان وليس أمام السلطان. وأصبحت صلاحية تشريع القوانين من اختصاص البرلمان. وقد أعلن السلطان عبد الحميد المشروطية مرتين، مرة عند بداية حكمه، وهي المشروطية الأولى في عام 1877. وفي عام 1908 أعاد المشروطية والدستور مرة أخرى فيما سمي بـ (المشروطية الثانية). انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص 28

إسقاط الأمة. فحافظ بذلك على الأمن القومي - بلغة اليوم- ذلك الأمن الذي تتمتع به تركيا حتى اليوم. فبذور منظمات (المخابرات) الغربية، بذرها السلطان عبد الحميد. والذين اتهموه باستخدام التشكيلات السرية، قاموا هم بعد انتهاء عصره، بتأسيس (منظمات سرية) لتحقيق أطماعهم الشخصية.

ومن دهائه الإداري، أنه أرسى مبدأ التطوير والعطاء. وكان فى عهده ثلاثة من كبار المستشارين، مثل: (غازى عثمان) و(أحمد مختار) و(أدهم باشا)، ورجال فكر وعلم كبار، مثل: (أحمد جودت) و(عبد الرحمن باشا)، بالإضافة الى سرب من المرشحين من الصدور العظام الذين كانوا يقفون فى الصفوف الاحتياطية. وبرز دهاؤه السياسى في الإجراءات القمعية التى اتخذها، لمواجهة الماسونيين واليهود والأرمن.

الدهاء الاقتصادي

كان اول عمل قام به عبد الحميد الثاني بعد اعتلائه عرش السلطنة، هو وضع قيود على بنوك القصر. وكان يُسمى بـ (حميد البخيل)، لأنه لم يُقرض بنوك (جالاطة). كانت أخلاقه حسنة، ويُحسن التصرف حيث استطاع أن يسدد الديون الفلكية للدولة، من الخزينة الخاصة، والخزينة الهمايونية. واستطاع تخفيض الدين بنسبة 2%، ولم يقترض قرشاً واحداً من الخارج، طيلة عهد سلطنته.

كان يقوم بإنشاء خطوط السكك الحديدية. فبعد إنشاء خطوط (سلانيك – استانبول وسلانيك ـ مناستر وإزمير ـ قصبة)، أنشأ خطين كبيرين يدلان على مدى دهائه السياسي والإقتصادي اللذان بلغا أعلى درجة. الخط الأول هو، (خط بغداد ـ الأناضول) الذى حال دون التهديد الألماني والخطر الإنجليزي. والآخرهو، (خط حديد الحجاز) الذى يُعد نموذجاً للوحدة الإسلامية،وهو بطول 2000 كيلومتر،وهو الخط الذى أذهل الروس والإنجليز.

المعيار الثقافي

كان السلطان عبد الحميد مقتنعاً بضرورة الإلمام بالعلوم الغربية، ووضعها فى إطار الروح الشرقية. فقام بإنشاء سلسلة من مدارس الفنون، بالإضافة إلى المدارس العليا المعروفة باسم المدارس السلطانية.

المعيار العسكري

إن الحرب الوحيدة التي شنها عبد الحميد، هى الحرب اليونانية (1313هـ ـ 1897م) . استعد عبد الحميد لتلك الحرب استعداداً كبيراً، واستطاع فى وقت قصير أن يصل إلى أبواب أثينا، ويبث الخوف فى قلوب اليونانيين الذين طلبوا المساعدة من أمراء الدول العظمى. واشترى عبد الحميد بقسم كبير من قرض (الديون العمومية)، معدات ولوازم دعم بها الأسطول المتهالك - الذي اقتطع جزءاً كبيراً من ميزانية الدولة-

للاستفاده منه. واستطاع بذلك أن يدخله الى الخليج، وأن يحقق للقوات البحرية قوة كبيرة، ويصبح ذا قيمة. وإن دل ذلك على شئ فهو يدل على براعة عبد الحميد العسكرية الكبيرة، وقدرته على الإدارة والقيادة. وبدلاً من أن يقولوا عنه إنه منقذ الوطن، قالوا إنه خائن الوطن. كان عبد الحميد قوياً فى مواجهة أعدائه، ويضع خططاً عسكرية محكمة تخلو من الزخرف، والاستعراض الظاهرى الخادع.

عالج السلطان عبد الحميد كثيراً من الاضطرابات التى أُثيرت من جراء الحركات العسكرية التى كانت تبدو إنها من تدبير القصر، وكان يحول دون انقلاب الأمر إلى هزيمة. ونجح السلطان عبد الحميد العظيم - الذى كان يميل الى جعل الدولة، (دولة مخابرات)، وكان شديد التأثر بهذا الاحساس- فى فرض السرية التى كانت عاملاً من عوامل نجاحه فى الناحية العسكرية، مثلما كانت أيضا عامل نجاح في إدارة جميع شئون الدولة.

معيار العدل

لم يكن السلطان عبد الحميد يتدخل في أمور العدالة او القرآن، وكان عدله بلا حدود، ورحمته لا مثيل لها، وكان نموذجاً للعطف. وطيلة حكمه الذى استمر 33 عاماً لم يوقع حكماً بإعدام أى فرد، سوى أمره بقتل أحد أغاوات الحرم، وكان دائماً يغير الحكم إلى السجن المؤبد او النفي.

كان ضعف عبد الحميد من النوع الفريد، وكان يمكن نقده، وكان ميالاً للرحمة والتوكل. فعندما رفعت مقدونيا راية العصيان، لم يخرج اليها بجيشه الخاص، قائلاً: "لايمكن أن أريق ولو نقطة دم واحدة لأي مسلم". وتناقلت الأساطير على الألسنة حول تفسير تعبير (السلطان الاحمر) الذى ابتدعه الأرمن، وأطلقوه عليه. فقيل إنه كان يأكل سلاطة مكونة من أمخاخ الأطفال حديثي الولادة، وقيل إنه كان يشرب الدماء. وهذا كذب. فالحقيقة إن هذا السلطان كان رحيماً جداً، وكان يخشى أن يدوس بقدمه على نملة، وما قيل عنه ما هو إلا كذب وإفتراء.

الواقع أن هذا البحث لا يتسع لتصوير حجم هذا الصرح العظيم، السلطان عبد الحميد الذى عفى عن مدحت باشا، بعد قرار المحكمة العليا، المشكلة من هيئة من كبار رجال العدل في الدولة، بإعدامه. وبعد موافقة رجال الدولة على إعدامه - وخاصة الغازى(عثمان باشا)[449] بطل (بلافنه) الذى قال لابد من إعدامه- نقض عبد الحميد، من واقع عفوه ورحمته، قرار المحكمة، وأصدر قراراً باستمرار حبس مدحت باشا فى الطائف، ومع ذلك أُتهم بإنه أمر بخنقه فى سجنه.

---

[449] - الغازي عثمان: هو عثمان نوري باشا، قائد عام القوات العثمانية أيام الحرب الروسية العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد. حارب في القرم وكريت وبلاد الصرب. رقي إلى رتبة مشير لانتصاراته في بلاد الصرب عام 1876. ودافع ببسالة عن بلافنه في بلغاريا أثناء الحرب الروسية العثمانية (1877- 1878)، ضد هجمات الجيش الروسي المتكررة التي اضطرته في النهاية إلى الاستسلام. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 1188

ولابد أن نعلم أن وصف الشهادة المقدس، وتعبير "شهيد الحرية" الذى وُصف به سواء مدحت باشا أو نامق كمال، إنما هو هبة من السلطان عبد الحميد لهؤلاء، بالإضافة إلى الولاية والمصروف، ومئات عديدة من العملات الذهبية، كانت تُصرف شهرياً "كهبة سلطانية"، في زمن كان النفى فيه صناعة مربحة.

أما بعد فيجب أن نضع السلطان عبد الحميد، داخل إطار الوقائع الأخيرة التي ارتبطت بحكمه العظيم، من منطلق روحه وأخلاقه. وأن نحسب مدى تأثير ذلك على محمد وحيد الدين الذى بلغ عامه الـ 48 فى جو هذا العهد العظيم، ثم يضطر بعد ذلك مباشراً، أن يدخل بطلنا، فاتحاً فصلاً جديداً فى عصر المشروطية الأولى والثانية، مدعواً إلى الساحة بصفته ولياً للعهد.

عبد الحميد الخيالي

وحتى ما قيل عن أن عبد الحميد كان أسير خيال أقرب الى الجنون،خيال تسبب في إذلاله، ومنعه من تدبر أمر أعدائه. نقول: إن هذا الخيال كان هو أحد مميزاته التى مكنته من تدبير الحيل. فمن المؤكد إنه كان خيالياً، لكن هذا السلطان العظيم الذى لم يصبح ضعيفاً فى أسر خياله، والذى كان يتخذ قراره بناءً على قوة خياله، بعد مشاهدة الأعمال الرياضية، يُعد مثالاً حياً "للخيال المبدع" الذى تحدث عنه الفيلسوف (بيرجسون).

ونظراً لموهبة الخيال المبدع المتسم بالذكاء التي أودعها الله إياه، والتي برزت فيه بشكل واضح، وأصبحت لازمة من لوازمه فى أى عمل يقوم به، فعندما نقول فى عنوان "عبد الحميد الخيالي" فإننا نعنى بذلك إبراز ميزة كبيرة ينفرد بها بذاته. فإن لم يكن "عبد الحميد خيالياً" لم تكن الدولة العثمانية لتستمر تحت حكمه ثلاثة أعوام، لا 33 عاماً. والدليل على ذلك إنها استمرت بعده مدة 10 أعوام فقط.

وفضلا عن إيمانه القوي بالله ورسوله الذي لا يضاهيه فيه أحد، فإن ميزتي "الشك المنظم" ـ على حد قول الفيلسوف ديكارت ـ و"الخيال" اللتان تمتعا بهما السلطان عبد الحميد، وبرزتا في إدارته لجميع شئون الدولة، وفي المناسبات الخاصة، لم نجدهما في شخص آخر بهذا القدر وبهذه الكيفية.

عبد الحميد المتدين

نقطة التدين هذه التى لمسناها عند حديثنا عن السلاطين الـ 36 السابقين، كانت بارزة أكثر عند عبد الحميد، وكانت أعمق لدرجة جعلت أحد الأوروبيين يقول عنه هذه الكلمة: "لا يمكن تصور أحداً غيره من المنتمين للديانة الإسلامية، يقبل أن تحيد العدالة ولو ذرة عن مسارها الصحيح". الحقيقة أن عبد الحميد لم يكن يفكر طيلة مدة حكمه سوى فى الله، و أمته، سواء خلال صمته أو حديثه، خلال عمله أو نومه.

عبد الحميد المفكر

بالرغم من إن السلطان عبد الحميد الثاني ليس بالرجل غزير الفكر، العلّامة، فتخطيطه كان ينم عن حدس غاية فى العمق. إذ أدرك الغاية من الانقلابات الزائفة، وأبطالها الكاذبين، وأعاق حركتهم التي تدل على وضاعة الأصل. ولهذا السبب كان أعداؤه بلا حصر. كان عبد الحميد مرتبطاً بالروح الوطنية، وهو أول وأخر رجل دولة فى عهد الكارثة.

سمات عبد الحميد الشخصية

كان يرتدي دائماً القفاز، ويراعي النظافة فى كل شئ. ويتمتع بالأدب الجم، والخلق العظيم. كان لا يخرج إلى طبيبه إلا وهو يرتدي كامل ثيابه، حتى وهو مريض. وعند دخول أحد الخدم عليه في حجرته، كان يتظاهر بإنه يأخذ شيئاً من على المنضدة، حتى لا يراه الخادم وهو راقداً فى سريره، بل واقفاً على قدميه. وقد اندهش ولي عهد ألمانيا عندما رآه، وشاهد مدى تواضعه برغم هيبته السلطانية. ولم يستطع فهم مغزى إسقاط هذا الخليفة الكبير، والسلطان العظيم الذى قال عنه: "إنه أوروبي أكثر من أي أوروبي متحضر، وشرقي أكثر من أي شرقي عظيم".

وهكذا عاش وحيد الدين في كنف السلطان عبد الحميد، شقيقه الأكبر الذي حاول جاهداً إنقاذ الدولة من التردي، وأحب إخوته إليه، من سن 15 إلى 48. وفجأة، وبعد أن سيق الوطن بأكمله إلى الانهيار، دخل إلى عهد السلطان محمد رشاد الذي كان ألعوبة في يد جمعية الأشقياء المسماه بالاتحاد والترقي، التى انقلبت على السلطان العظيم عبد الحميد. وبعد ذلك يعتلى هو العرش، وكأن القدر قد حتم عليه أن يعتلي عرش الدولة، بعد أن يتحقق انهيارها.

نـحـو الانـهـيـار

الاتحاد والترقي

الجمعية اليهودية...جمعية الاتحاد والترقي...

جمعية التقليد السطحى للغرب الذى بدأ مع التنظيمات، وحركة الانقلاب الرخيصة التي تحولت إلى جمعية سرية تضم منحوسين...جمعية التمرد التي ضمت أنصاف المثقفين الذين احتكوا سطحياً بالثقافة الغربية، بلا تحليل ولا فحص ولا تمحيص ولا مراقبة والذين انخدعوا بالشعارات الغربية الرخيصة...

جمعية الاتحاد والترقي، هى نبتة جماعة "تركيا الفتاة"[450] التي تأسست فى عهد السلطان عبد العزيز، لكن انتشارها كان محدوداً. وهى البذرة التى أُلقيت فى عهد عبد الحميد، ونمت، وإكتمل بلوغها، وصارت شجرة مكتملة. وهى الجمعية التي قادت الدولة العثمانية نحو الانهيار خلال عشر سنوات، بعد عهد السلطان العظيم عبد الحميد. وعلى كتف السلطان محمد وحيد الدين "محمد السادس"، الضعيف، النحيف، يتراكم ذنبها بالكامل، وينكمش الوطن التركي، ويذهب، وينمحي، ويضيع !...

وبهذا يُعتبر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، هم قتلة وحيد الدين والوطن. فقد أثر غدرهم في السلطان عبد الحميد الثاني، المشهور فى عصره بالرحمة. لكن غدرهم بعبد الحميد، كان غدراً بسيطاً، أثر فيه شخصياً، ولم يؤثر في الوطن. أما وحيد الدين الذى كان شخصاً سئ الحظ، لم يُمهَل لعمل أي شئ، فقد تأثر بغدرهم بدرجة أكبر. إذ كانت ضربتهم له بمثابة دفنه حياً تحت أنقاض الوطن الذي هدموه. وهذا أدق خيط يؤكد براءة وحيد الدين.

وهكذا فإن واقعة الاتحاد والترقي التي نُسبت لعبد الحميد، أصبح مؤكداً ان تُلصق أيضا بوحيد الدين، مع إضافة عوامل اخرى.

---

[450] جماعة تركيا الفتاة في باريس عام 1860م، على أيدي الأتراك المتأثرين بالأفكار الفرنسية، بزعامة - تأسست بك) الذي كان مديراً للمعارف في إحدى مناطق الأناضول ثم هرب إلى باريس. وكانت جماعة سرية، (أحمد رضا ثورية، لها فروع في برلين وسلانيك واستانبول. كانت هذه الجماعة ترى أن نهضة الدولة تكون في إدخال النظم البرلمانية الأوروبية. تعاظم نفوذ أعضائها في تركيا، وتمكنوا من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش، وأتوا بالسلطان مراد الخامس. اتخذت هذه الجماعة أسماء مختلفة خلال تطورها، مثل العثمانيون الجدد، والشباب العثماني، والاتحاد والترقي. وتمكنت من عزل السلطان مراد. تولى بعده السلطان عبد الحميد الثاني الذي لم يستجب لضغوطهم، وقاومهم، وحاول القضاء على نفوذهم. انظر محمد حرب "العثمانيون في التاريخ والحضارة"، دار القلم، دمشق، 1989، ص 48، 49

جمعية الاتحاد والترقي تشبه جمعية الفحامين، أو(كاربوناري)[451] التى لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ إيطاليا، والتي تألفت في البداية من ثلاثة او خمسة أشخاص، اجتمعوا في مخزن فحم حجرى. إذ تأسست الخلية الأولى لجمعية الاتحاد والترقي في عام 1889، في ركن منعزل بمدرسة "الطب السلطانية". وكان المتطوعون الأوائل فيها، خمسة من الشباب ذوي الفكر الرومانسي السطحي، فى عمر يمكن أن يقال عنه عمر الطفولة. هؤلاء هم: (ابراهيم تيمو) من أوهري، و(عبدالله جودت) من أرابكير - الذي أصبح فيما بعد صاحب صحيفة الاجتهاد الملحدة- و(اسحاق سكوتى) من دياربكر، و(محمد رشيد) من القوقاز، و(حسين زاده علي) من باكو... اجتمع هؤلاء في مكان منعزل بمدرسة الطب في 21 مارس عام 1889، وقاموا بقطع أربطة عنقهم، وأقسموا بالقرآن - الذي يجهلونه- أن يتحدوا حول فكر الحركة، ضد السلطان الأحمر(!) ونظامه. وبهذا أسسوا أول خلية للاتحاد، وكان اسمها في البداية (الاتحاد العثماني).

وهاهو أول تقييم لي لهؤلاء المذكورين في هذه الصفحة الخيالية (الفانتازيا)، نظرياً، وأدبياً:

كانت أقوى الشخصيات في هذه الجمعية، هو ذلك الرجل الذى نشأ خارج الوطن في مقدونيا، وتمتع بجوها ومائها. واثنان آخران اصطبغا بروث الثقافة الروسية. واثنان فقط من الأناضول ... كان على رأس هذه الجماعة المدعو (عبدالله جودت)[452] (ولكنه في الحقيقة ليس عبدالله جودت بل هوعدو الله الظالم). والشابان الآخران اللذان من الأناضول، كانا يختلفان عنه من ناحية الأصل، وشكلا بنيتين متناقضتين ...

رفع المدعو (عبدالله جودت)، ومعه (توفيق فكرت) و(ياسين جاهد) الذين أصبحوا المرشدين الفكريين للجماعة، لواء الكفر والعصيان والهجوم على الدولة. فقام (عبدالله جودت) بترجمة كتاب الدكتور(دوزى) بعنوان "تاريخ الإسلام" إلى التركية. كان هذا الكتاب بمثابة طبق السم الذى تسبب في جفاف وجدان الشباب الغض، وضياع إيمان العديد من طلبة الطب مثله، مما جعلهم يقبلون على الانتحار بسبب هذا الملعون...

تعرفت على عبد الله جودت عندما كنت شاباً في سن 19 أو 20 عاماً، في الفترة التي أصدر فيها صحيفته "الاجتهاد"، وكنت أنا في بداية شهرتي الأدبية.

---

[451] - جمعيات الكاربوناري: هى جمعيات الاغتيال المنظم، وهى جمعيات سرية نشأت في إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر لطرد الأجانب منها، وتوحيدها. ثم انتقلت إلى فرنسا عام 1818، وانتشرت فيها، وكانت من أهم أسباب سقوط حكومة شارل العاشر، ملك فرنسا الذي أراد إعادة بعض النظم القديمة، المخالفة لروح الحرية ... انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص 412 ، 413

[452] - عبدالله جودت: هو واحد من رواد حركة تغريب المجتمع العثماني وثقافته. أسس عام 1904 جريدة "اجتهاد" التي صارت منبراً للثقافة الغربية، وأداة نشرها بين العثمانيين. تعاون مع جمعية الاتحاد والترقي، ولكنه لم يكن اتحادياً، عمل جاهداً على مدى ربع قرن في جريدته "اجتهاد" على إرساء أسس الانقلاب الكمالي، قبل عشر سنوات من انقلاب أتاتورك الذي سار على خطاه ... انظر محمد حرب، المثقف وتغيير نظام الحكم، حالة اتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص 70 ،71

كان اسم صحيفة "الاجتهاد" يُكتب بخط التعليق الإيراني، فوق عمود في "چاغا"، في أطراف "يراباطان". وكثيراً ما كان يُكتب بالحروف الفرنسية في أماكن العمل، وأعلى العمارات... عندما رأيت وجه هذا المنحوس المصاب بالجدرى الذى قال عنه سليمان نظيف: "إنه تمزق بظفر يد الله"، شعرت بالغثيان. وكلما شاهدته بعد ذلك يقترن غثيان معدتي، بغثيان روحي. كان هذا الكافر معجباً بي لدرجة إنه وضع صورتي وأنا شاعر جديد على غلاف صحيفته "الاجتهاد"، وكان يقدمني بـ "بودلير"[453] الأتراك. لكن هذا المديح لم يؤثر علي أدنى تأثير مثلما أثر في "نورالله أطاش" الملحد. وكنت اعتبره من أكثر البشر مجوناً، لأن هناك فرق بين الفكر الروحي، والفكر الدُنيوي.

كان معروفاً بخسة الروح، والبخل المادي، ولذلك نُسى عبدالله جودت، عدوالله ورسوله، ولم يُعطَ حقه. كان يعتقد أنه أول من فكر وبشر بجميع الانقلابات، وكان يقول كاشفاً عما بداخله من سوء: "ــ أنا مؤسس الاتحاد والترقي! أنا أول من حمل لواء الثورة ضد عبد الحميد! وبعد وصول الاتحاديين إلى الحكم تجاهلوني، وتركوني في زاوية النسيان! انقلابات مصطفى كمال كلها أخذها عني (في ذلك الوقت لم يكن عبدالله جودت مؤيداً للانقلاب الجديد الذى حدث في الحروف التركية)، ومع ذلك لم أنل ما استحقه من تقدير!".

وهكذا يكفي أن نكشف عن ماهية القضية، وحقيقة الاتحاد والترقي، من مؤسسيها (و هم الممثلين الرئسيين لها).

بعد أن مكث هؤلاء الممثلين شهوراً عديدة في بداية تشكيلها لوضع خطتها الخيالية، وبرغم انضمام أعضاء جدد لها، فجأة سيطر عليها أحد الموجودين في أوروبا في ذلك الوقت، وبهذا حظيت بنعمة التمركز في أوروبا.

في ذلك الوقت كان (أحمد رضا) واحداً من الموجودين في أوروبا، والمعروف أنه من كبار المجاهدين في سبيل الحرية في زمن الاتحاديين. كان ذو لحية بيضاء فى لون الثلج، مقصوصة على الطريقة الأوروبية. وقد أصبح بعد ذلك واحداً من الذين كانوا السبب في غروب جمعية الاتحاد والترقي... جُلب هذا الانتهازي الطماع لرئاسة مجلس الأعيان بعد عهد المشروطية، في تلك الفترة كان يعمل مديراً لمدرسة الزراعة في (بورصة)، وكان ينشر مقالات في صحيفة "نيلوفر" هناك. وفي الأعياد الرسمية كان ينشر رسائل يمدح فيها السلطان عبد الحميد الثانى، تقرباً إليه وتملقاً له (مثلما فعل توفيق فكرت تماماً في ثروت فنون)[454]. فى عام 1889 ذهب (أحمد رضا) هذا إلى باريس

---

[453] - شارل بودلير (1821- 1867): هو شاعر وناقد فني فرنسي. بدأ كتابة قصائده النثرية عام 1857 عقب نشر ديوانه أزهار الشر، ويعتبر بودلير من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، ومن رموز الحداثة في العالم. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 426

[454] - ثروت فنون: هى مجلة أدبية تأسست عام 1896، رأس تحريرها الشاعر التركي توفيق فكرت، ثم الروائي حسين جاهد. كانت هذه المجلة لسان تلك الجماعة التي عُرفت أدبها بالآداب الجديدة. ويسمي بعض مؤرخي الأدب التركي أدب هذه الجماعة باسم مجلتها. دعى أدباء الآداب الجديدة إلى الثورة على الأدب الديواني، وحرصوا على تقليد الأدب الغربي وخاصة الفرنسي، واقتباس صوره الأدبية. كما حرصوا على استخدام العبارات المنمقة، والألفاظ الرنانة، واستعملوا كثيراً من الألفاظ العربية والفارسية، وكان شعارهم الفن للفن. ومن أبرز أدباء هذه المدرسة الأدبية

بمناسبة إقامة معرض باريس، وبدأ فى إمطار عبد الحميد بلوائح الإصلاحات. كان هدفه- بعد أن شعر بالأمان هناك- أن يلفت نظر السلطان إلى النداءات العذبة القاسية، ليجعله يغادر البلاد، وبهذه الطريقة ينتقل إلى مصاف أبطال الحرية.

جاء في مذكرات عبد الحميد أن (أحمد رضا) - الذى كان يحمل دماً أجنبياً من جانب أمه، وهو ما كان السبب في تسميته "ابن علي بك الإنجليزي"- سحر شباب الجمعية بنشاطه الذي مارسه في باريس. وبدأ هؤلاء الشباب، وهم: (أحمد ورداني والدكتور ناظم وعلي زهدي) الذين انضموا إلى المجموعة الأولى، في تنظيم المظاهرات للفت نظر الحكومة. وعندما أصبح وضعهم محرج هربوا إلى باريس، وتعلقوا بأذيال أحمد رضا، هذا البطل المزيف الذى بدأ مقلداً لغيره، ثم معتمداً عليهم، ثم رئيساً لهذه الجمعية. وكانت المراسلات التى تتم بين استانبول وباريس في تلك الفترة، يُكتب فى ذيلها اسم "الاتحاد والترقي".

انجذب (أحمد رضا) إلى (أوجست كونت)[455] - وهو الفيلسوف الفرنسي الذي وضع مذهب "العقلانية"- واعتنق فكره وفلسفته "الوضعية"، وكان يمجد عقليته. إذ قال أحمد رضا في أحد المجالس بعد أن فقد إيمانه بالله: "ــ هناك حقيقة واحدة اؤمن بها، وارتبط بها، إنها المذهب (الوضعي)، العقل، الرؤية، الإثبات! إننى اؤمن بالعقل! فهل يكون هذا عدم إيمان؟".

وهكذا وضع (أحمد رضا) الذي ثلاثة أرباع دمه أجنبي، أساس ما سماها في البداية بالجمعية. وبدأ في إلقاء بذرتها في أوروبا. واقترح أن يكون اسمها "النظام والترقي"، وهو رمز المذهب "الوضعي"... وقام الشباب بعمل تعديل بسيط لهذا التعبير، فبدلوا كلمة "النظام" بكلمة "الاتحاد" فأصبح اسمها "الاتحاد والترقي". وهكذا صار اسم هذه الجمعية التي تولدت عن الفكر الأوروبي، وأُشتق اسمها من تعبير أوروبي، بعد ترجمتها إلى التركية.

بلغ عدد أعضاء الجمعية بعد عامين من تأسيسها 12 عضواً، وبعد فترة قصيرة تشكل التنظيم "الهلامي" الذي أخذ يعقد اجتماعات سرية في بستان "مدحت باشا" خارج

الجديدة، القصاص خالد ضيا بك الذي كان محرراً مع توفيق فكرت في مجلة ثروت فنون، ومحمد رؤوف وحسين جاهد. ومن أبرز الشعراء توفيق فكرت وجناب شهاب الدين وسليمان نظيف. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، مرجع سبق ذكره، ص 228

[455] أكد على ضرورة بناء النظريات العلمية - أوجست كونت (1798 – 1857): عالم اجتماع، وفيلسوف فرنسي، يرى كونت أن الفكر البشري قد مر خلال تطوره التاريخي .الوضعية المبنية على الملاحظة. وهو المؤسس للفلسفة التي تعتمد اللاهوتية التي تعلل الأشياء والظواهر بكائنات وقوى غيبية. والمرحلة الميتافيزيقية بمراحل ثلاث: المرحلة الملاحظة والتجربة الحسية. ويعتبر كونت أن على الإدراك المجرد. والمرحلة الوضعية التي تعلل الأشياء عن طريق ويساعد على فهم الإنسان، ويستوعب جميع العلوم التي سبقته، هو "علم العلم الذي يتفق مع المرحلة الوضعية، الاجتماع". ومن أهم أعماله كتاب الفلسفة الوضعية. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 1517

"أدرنةقابيسي" في استانبول. ووجدوا في أطراف إزمير والشام، أناس وأجواء متوافقة معهم. وجذبت هذه الدعوة الجديدة - التي أخذت في الانتشار بين الشباب ذوي المؤهلات العليا والضباط- أنظار الجميع عن طريق صحيفة "مشورت" التي بدأ (أحمد رضا) في نشرها في باريس عام (1895). وبدأ كل شخص مثقف يميل تجاه الجمعية، وأصبحت موضة... وأصبح هذا الوسط معلوم للزمرة الاجتماعية التي بدأت ترغي وتذبد فيما بينها ضد عبد الحميد، وضد القصر ... وعلى رأسهم كان اليهود والدونما والماسونيين، وكل هذا الوسط عديم الأصل...

ويكتب عبدالله جودت أول بيان للجمعية، ويدير (توستين باشا) - من مدرسي المدرسة الحربية- المراسلات مع أوروبا! وذلك عن طريق مكتب البريد الفرنسي الذي كان في (جالاطة)، ويعاونه مدرساً آخر من نفس المدرسة، وهو (أحمد بك الجركسي) - أصبح باشا بعد ذلك- صديق الأتراك ذو الأصل الأوروبي. وعرف القصر بأمر تلك الجمعية التي انطلقت شرارتها من تركيا، وتركزت في أوروبا ومصر. ويتم البدء في نفي وإقصاء هؤلاء الأبطال إلى زوايا وأركان الدولة العثمانية، ولما كانوا بلا عمل ومفلسين تماماً، ينقذهم هذا السلطان - هذا الصرح الخالد الذي يسمونه بـــ "السلطان الأحمر"- بهذا النفى، حيث يرسل لهم المخصصات المالية التي تساعدهم على الحياة هناك.

لكن هذا التدبير لم ينجح، فقد كان بمثابة وضع قطة ضالة في جوال، ومعها طعام وفير، وإبعادها إلى حي آخر حيث تتكاثر القطط الجائعة من ناحية، ومن ناحية أخرى تعود من الأماكن المطرودة منها، وتستمر في تجمعها بين المنازل أو في البدروم.

وبلغت الوقاحة بهؤلاء الاتحاديين الذين اعتمدوا على رحمة السلطان عبد الحميد وسماحته، أن أصبح كل همهم البحث عن سلطان، يكون أسد من حيث الشكل، لكن أسنانه لا تقطع، ومخالبه لا تمزق!.

في تلك الأثناء كان هناك ثلاثة أمراء:

ولي العهد محمد رشاد أفندي الذي بدا مثل عجينة طرية، قابلة للتشكيل... ويوسف عز الدين أفندي الذي كان يخرج من أزمة إلى أزمة. أما ولى العهد الثالث فهو محمد وحيد الدين أفندي الذي كان يقترب من سن الأربعين حينئذ، وكان منزوياً في (چنگل كوي) خلف حصارمن الأشجار الضخمة الكثيفة، غير راغباً أو تواقا لاعتلاء العرش...

ويصفعون يوسف عز الدين أفندي، ويصفون وحيد الدين أفندي بإنه "ظل عبد الحميد"، نظراً للحذر الذي أبداه في حماية نفسه، ونظراً لوقاره، والحب المتبادل بينه وبين شقيقه الأكبر عبد الحميد. وانجذبوا نحو السلطان محمد رشاد، ذلك الرداء الذي يليق بهم وبأملهم.

كان محمد رشاد أفندي من المولوية، فماذا يفعلون؟ كان عليهم اللجوء إلى مولانا شيخ التكية المولوية التي في "يوكسك قالديرم" في "باي اوغلو"، والتأثير عليه، وبواسطته يمكن أن تؤول إليه ولاية العهد ... ومثلما لم تعد المولوية في ذلك العصر باباً يصعب فتحه، أصبح من السهل التأثير على شيخها. ووضعوا أمام محمد رشاد كومة رديئة من الشعارات (الحرية والمساواة والعدالة)، لكنهم لم يجدوا في هذا السلطان الذي كان رداءً

مثالياً لهم، وكالعجينة الطرية، قدرة على اتخاذ قرار يساندهم ويدعمهم. كان طيلة سلطنته لا يقول سوى أربع كلمات يرددهم في أى موقف.

ــ أنا ممنون...أنا محظوظ.

ولذلك اتخذوا قرارهم في الحال، يوسف عز الدين لا عمل له! ووحيد الدين خبيث! أما رشاد فلن يكون سنداً لهم! لكن ...ليصبح سلطاننا عندما نستولى على الحكم! فعندما نغطيه بالشمع، لن يكون هناك سلطاناً!...

ويكشف عبد القادر أفندي، شيخ التكية المولوية التي في (يوكسك قالديرم)، مخططهم وميلهم إلى الثورة. فيتسلل إلى قصر (يلديز) الذي تحت سيطرة السلطان العظيم عبد الحميد، ولا يستنكف عن طلب العون من بعض المسلمين هناك، لإسقاط السلطان. فقد كان هدفه، أن يرى قبعة المولوية فوق العرش العثماني.

ويرسل الاتحاديون القرار إلى أحمد رضا في باريس، ويجيئ الرد:

ــ لقد جُن هؤلاء الأفراخ الذين لا يهمهم شيئاً سوى حب الظهور. كيف سيصبح حالنا في باريس، إذا فشلت الحركة؟ ألن تقوم الحكومة الفرنسية بالإلقاء بنا خارج حدود فرنسا؟ ... وينقطع الاتصال بين مركز استانبول وباريس ... ويصدر المركزالعمومي الذى برئاسة الحاج! (أحمد بك) قراراً بإخراج أحمد رضا من الجمعية. وفي الوقت نفسه تنتشر إشاعة تملأ القصر، وينكشف كل شئ. وبدلاً من إرسالهم إلى المشنقة، يُرسَلون إلى عالم النفي ذو المخصصات. ويحتجب المركز العمومي الأول من تلقاء نفسه، ويصل العهد الأول للاتحاد والترقي لنهايته.

ولننظر إلى نقاط الاختراق وقواعد التمركز. في رومانيا وبلغاريا، كان يوجد ابراهيم الملقب بـ "تيمو"، وهو من أوائل المؤسسين من الجانب الآخر من المياه. وكان أحمد رضا، والدكتور ناظم، وشركائهم في فرنسا. وكان هذا في سويسرا، وذاك في مصر!... وفي 21 ديسمبر عام 1896، يتم تشكيل "فرقة الانقلاب العثماني" في مدينة جنيف بسويسرا، وهى مجموعة تضم نفس العناصر الراغبة في التحرك بحيوية أكبر، بعد سقوط مركز استانبول... قامت هذه المجموعة بإشعال الاضطرابات والفتن والقلائل التي كان يتم إخمادها ظاهرياً. ولما صار الوطن كقطعة القماش المحترقة، صار كل أملهم أن يشاهدوا من نافذة الوطن، الشرارات التي تذروها رياح الشمال والغرب. تلك الشرارات التي أخذ هؤلاء من كُتبت في أوراق ميلادهم وهويتهم كلمتي "تركي" و"مسلم"، ينفخون فيها ليزيدوها إشتعالاً من أجل إحراق الوطن كله...

كان أول عمل اضطلعت به "فرقة الإنقلاب العثماني" التي تأسست في سويسرا، هو الاتصال بالأرمن، وطلب العون والتأييد منهم. واتحدوا على فكرة خطة اغتيال مشتركة لسلطان الأتراك، وخليفة المسلمين. وينشر الأرمن بيان يوضح هدفهم وقضيتهم الأساسية، ثم يقدمون للفدائيين الأتراك الموجودين في استانبول القنبلة[456]... واتفقوا على

---

[456] - حادثة القنبلة: في الخامس من يوليو عام 1905، دبر المتمردون الأرمن مؤامرة لاغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، وذلك بوضع قنبلة موقوتة في مركبة أُوقفت في فناء الجامع الذي كان يصلي فيه السلطان صلاة الجمعة، وتم توقيت القنبلة بحيث تنفجر في الوقت الذي يخرج فيه السلطان من الجامع. وقد تأخر السلطان في الخروج قليلًا،

أن يكون تسليم القنبلة في مكان ما في (طونة)، واتخذوا قراراً بأن يتم إرسال القنبلة إلى المكان الذي حدده (ابراهيم تيمو). وتم الاتصال بين هؤلاء الأتراك الذين يمكن وصفهم بأعداء بلادهم، وبين أعداء الأتراك، عن طريق شخص أرمني اسمه (ظريفيان).

لكن برغم نشر الهدف المعهود، وبيان القضية، لم يتم التفاهم بين الأرمن أعداء الأتراك، وبين الأتراك أعداء بلادهم. ولم تتم صفقة شراء القنبلة، وهكذا صار شرف ضرب خليفة المسلمين وسلطان الأتراك، في يد الأرمن فقط (!)

وهاهى مقتطفات من بيان الإنقلاب.

.....

نحن العثمانيون! نعرف أن قتل الكلب المسعور فرض! لذلك قررت " فرقة الانقلاب العثماني" التي كانت حتى اليوم تتجنب إراقة الدماء، عندما بلغ الظلم مداه، مقاومته بالسلاح وأخذ ثأر المظلومين!

.....

وإذا اعترضت جماعات الضباط، والجنود طريقنا، فلن يكون هناك سوى الموت. نعم سنقتل ونقطع ونحصد ونحرق ونهدم! لم نعد نخاف أحداً.

إن أفول "نجم" هذا السلطان المتوحش سيكون بأيدينا. فقد جهزنا الديناميت الذى سيطيح برماده مباشرة إلى السماء.

وإذا تواجد أحد من الجمهور فسوف يُقضى عليه. ونحب أن نخبركم أننا سوف نبدأ العمل، بافتتاح مجلس المبعوثان، بشعار "إما الحق أو الموت!" وسوف نستأصل حكومة الظالم من جذرها، ونقوم نحن بالعمل!

توقيع

فرقة الانقلاب، إما الحق أو الموت

وكان من الناشطين في أوروبا في تلك الفترة من بين الشخصيات المعروفة، الدكتور (قدرى رشيد باشا) و (طونه لي حلمي) والكاتب الكبير (سليمان نظيف). طونه لي حلمى هذا سنراه بعد 20 عاماً، وقد استطاع إنقاذ بعض أطلال الدولة العثمانية التي هدمها

فانفجرت القنبلة، وأدت إلى مقتل وجُرح العشرات من الأشخاص، بالإضافة إلى الخيول التي كانت تقف في ساحة الجامع. بقي السلطان هادئًا، ثم سار إلى عربته حيث قادها بنفسه بين هتاف الناس له. وقد وقعت هذه المحاولة، بعدما أيقن الأرْمن أن السلطان عبد الحميد لن يطبّق البند الوارد في معاهدة "برلين"، حول الامتيازات والمؤسسات الضرورية التي طلبتها الدول الأوروبية الكبرى من الدولة العثمانية، لتأسيس حكم ذاتي مستقل للأرمن الذين كانوا أقلّية في الدولة العثمانية. كانت خطة الأرمن هي اغتيال السلطان أولاً، ثم نسف مقر الحكومة العثمانية، وجسر جالاطة، والبنك العثماني، وسفارات بعض الدول الأوروبية في استانبول، لإشاعة فوضى كبيرة فيها، لفسح المجال لتدخل الدول الأوروبية. وتم اعتقال الأرمني الذي اعترف بارتكابه هذا الجرم، وحُكم عليه بالإعدام، ولكن السلطان عبد الحميد عفا عنه، وأمر بإخراجه خارج الحدود، لأنه لم يكن يرغب في توقيع عقوبة الإعدام على أحد. انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سبق ذكره، ص 63

الاتحاديين. وسيشترك في حرب الاستقلال التي كان الغرض منها تطهير دنس الاتحاد والترقي. ومن قبلها كان من بين النواب الأوائل في عهد الدولة العثمانية. أما سليمان نظيف البائس، فسيكتب ملحمة تتناقلها الألسنة بعنوان "يوم أسود"، يوم احتلال استانبول، عندما وقف أمام خرابة الوطن الذي تهدمت أطرافه، وصار في حاجة إلى المساعدة.

ووقف وحيد الدين في ركن قصر (چنگل كوي)، يبكي بكاءاً مراً، صامتاً!

وسنتمهل عند الأحداث الكبيرة، المعروفة لكل واحد منا، حيث تعيش في ذاكرتنا وذكرياتنا، برغم قلة مصادرها، وتولد عنها ما كبر وصغر من أحداث. أما الأحداث الأخرى، فسنمر عليها مروراً سريعاً.

الأحداث الكبيرة للاتحاد والترقي، وقعت في الأعوام الأخيرة من القرن الـ 19، والأعوام الأولى من القرن الـ 20. إذ تبدأ الجمعية بإقامة مركزاً مشتركاً كبيراً في سلانيك، وتصل إلى نهايتها "بجيش الحركة"، والفدائيين ذوى القبعة اللباد البيضاء الذين أُرسلوا إلى استانبول. ويظهر(أحمد رضا) في الساحة مرة أخرى، وتشتهر معه أسماء عديدة... ويصعد أنور، ونيازي[457]، وطلعت، على المسرح عند انسدال ستائر نهاية القرن. ويخرجون إلى الجبال والسهول، لاصطياد الحرية بغزال مصطنع، ويبقى هؤلاء على المسرح لمدة عشر سنوات، حتى سقوط الدولة العثمانية. وكان معهم العديد من الممثلين والكومبارس الجدد، باستثناء (نيازى بك) ذو الشارب العريض الذى ظل صورة في كارت بوستال، ولم يمهله أجله للعب دوراً على المسرح .

كانت جمعية الاتحاد والترقي (أحياناً يُقال الترقي والاتحاد) في فترة تواجدها في سلانيك، عبارة عن جمعية أشقياء، وكان المسدس هو الألة التي يتحدثون بها ولا يعرفون سواها، فقد وجدوا في السلاح مفتاح الأقفال الذي يفتح كل الأبواب. وعندما تمكنت هذه الروح من الجمعية، لم يعد هناك دوراً لكلام المفكرين. ومن بين ما قيل عن أنور باشا شئ عجيب، وهو أنه صوب مسدسه تجاه لائحة خشبية، وأخذ يكتب اسمه بطلقات الرصاص التي أطلقها من مسدسه، نقطة نقطة على هذا الهدف.

كل أفكارهم تضمنها شعار "الحرية أو الموت!" التي طرزوها بالحرير الأسود على قبعاتهم اللباد البيضاء...

فهذه الروح التي هُضمت وتأصلت في الجمعية في فترة تواجدها في سلانيك، كانت كالطلسم. وبصفة عامة، فقد استمر تأثير هذا الحماس القاتل الذى يشبه هياج كرة القدم الذي نراه اليوم، والذي كان بارزاً في هذه الجماعة القاتلة.

ويُخرجون وزير السلطان عبد الحميد في سلانيك من مكتب التلغراف، ويطرحونه أرضاً، ويطلق عليه الكثيرون منهم الرصاص، وكأنه تدريب لإحراز الهدف. وبعدها

---

[457] - رسنه لي نيازي: ولد عام 1873، وشارك في الحرب اليونانية عام1897. وهو أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين أجبروا السلطان عبد الحميد الثاني على العمل بالدستور، ثم خلعوه عام 1909. ثم تقاعد نيازي، وقتله أحد الخصوم رمياً بالرصاص عام 1912. انظر Ekrem Üzümeri ve Değerleri,Tükiye Ansiklopedisi,a.g.e. cilt v, s.17

يستمر تدريب التصويب بالرصاص الحقيقي من فوق الجسور، وفي الميادين العامة، رصاص استهدف رقاب العباد، ورقاب الصحفيين الذين أسكتهم صوت طلقات الرصاص. واستهدفت هذه الروح المواطن المسلم شريك الدين، بدلاً من العدو. وسعوا إلى تلقيح الضباط بهذه الروح التي اختمرت.

معظم الشباب الذي نفض من داخله هذا الحماس المجنون، وجذبة الشيطان المصروع، وفهم ما يُسمى بالنموذج الاتحادي، وحالة الروح التي نشروها بسهولة، هم فقط الذين قاوموا هذه الروح، وثقافة إزهاق الأرواح وفنونها. وهذا المذهب الروحاني الفريد لجمعية أشقياء الاتحاد والترقي، هو الذي أوصلها بالتدريج لنهايتها المحتومة، بعد أن أصبح القتل، شهوة ومتعة في حد ذاته. وما كان يجب أن يفعله السلطان العظيم عبد الحميد تجاه هذا المشهد الذي تبلور كثيراً في بداية القرن العشرين، هو أن يقوم بجمع رؤساء الحركة جميعهم، ممن لديهم ميل إلى سلانيك من حيث المعنى، ويشحنهم في السفينة القديمة (تيرى موججان) بدلاً من الباخرة (عز الدين) التي حملت مدحت باشا في سالف الزمان إلى (بريندیز) ثم الى (جدة). وفي بحر سلانيك الواسع يمسك بالمدفع ويغرقهم!

وأسفاه ... السلطان عبد الحميد فيه كل الصفات الجيدة، ولذلك فهذه الروح لم تكن لديه... لم تكن لديه لدرجة إنه كان يُعد تنازلاً منه، إذا استعار هذه الروح من الاتحاديين، وطبق نفس ما كانوا يفعلونه.

والنتيجة:

هاجوا وماجوا وقتلوا وحرقوا وأمطروا القصر بالتلغرافات، وزجروا وزرائه، وطالبوه بإعلان المشروطية.

وفي مجلس المبعوثان، هاجموا عبد الحميد الذي وقف بجانب منصة الرئيس التي جلس عليها أحمد رضا في مواجهتهم، واتهموه بخنق الحرية وإذلال الأمة. وفي النهاية لجأوا إلى أكثر الحيل وضاعة من أجل الإطاحة بالسلطان الذي بدا متوكلاً، ومتحملاً لهذا، فدبروا (واقعة 31 مارس)[458]. ومن أجل القضاء على الشريعة التي كانوا ضدها، ومحوها من جذرها، ومن أجل إيجاد ذريعة للقيام بهذا العمل، حرضوا الجنود أن يخرجوا في صورة ثائرين، وأن يهتفوا قائلين: "نريد الشريعة". ويجعلونهم يعلنوا أن عبد الحميد هو المحرض على الثورة، ويخرج الصغار والجاهلين إلى الشوارع

---

[458] - واقعة 31 مارس: هى الحركة التي دبرها حزب الاتحاد والترقي للإطاحة بالسلطان عبد الحميد. ففي ليلة 31 مارس 1909، تمردت بعض وحدات القناصة في استانبول، وسارت نحو مجلس المبعوثان، وانضم إليها بعض أفراد من الشعب، وهتفوا بحياة السلطان، وطالبوه بحماية الشريعة من الاتحاديين الذين يهدفون إلى القضاء عليها. فحدثت مصادمات بين المتظاهرين، وبين بعض رجال الحكومة، أدت إلى مقتل بعض الوزراء. فتحرك الجيش الثاني المعروف بجيش الحركة من سلانيك بقيادة محمود شوكت باشا، ودخل استانبول، وتمكن من إخماد حركة التمرد. وبعد هذه الأحداث، اتهم الاتحاديون السلطان عبد الحميد بتدبير هذا الحادث لإلغاء العمل بالدستور، وخلعوه عن العرش. انظر

Necip Fazıl Kısakürek, "Son Devrin Din Mazlumları", Büyük Doğu Yayınları, İstanbul 1997, s.11-35

والميادين، يهتفون قائلين: "الشريعة، الشريعة!". واحتشد قسم كبير منهم في ميدان أياصوفيا، ووطأوا مجلس المبعوثان الذي هناك، (وهو قصر العدلية الذي احترق في السنة العاشرة للجمهورية)، وقاموا بقتل بعض النواب، وهدموا كل شئ، ولجأوا إلى السلب والنهب. وتوجه إلى استانبول مجموعة من الانتهازيين يسمون بـ "جيش الحركة"، وزعم بعض أفراد هذا الجيش قائلين: "جئنا لإنقاذ السلطان!" وقاموا بدمج مجلس الأعيان والمبعوثان، وانتخبوا رجلاً من أتباع عبد الحميد القدامى يسمى سعيد باشا - وهو إنسان عديم الأخلاق، وسيء الطباع، كان يضطر دائماً إلى الالتجاء إلى إحدى السفارات الأجنبية عندما تضطره الظروف لذلك- رئيساً للوفد الذي سموه بـ "مجلس الأمة"، وأعلنوا قرار الخلع عن العرش، بموجب المذكرة التي رفعها رئيس هذا الوفد، بدق الطبول، والنفخ في البوق، وعزف الكمان.

وأكثر ما يحزن في هذا الأمر - والذي سيتضح أكثر يوماً بعد يوم، طيلة السطور القادمة منذ التنظيمات- أن هؤلاء الذين أرادوا القضاء على الشريعة، بلغت بهم براعة النفاق إنهم استندوا على الشريعة، في سبيل القضاء عليها، وحصلوا على فتوى من "شيخ الإنكار"، المفروض أنه "شيخ الاسلام"[459]. وقام هذا الرجل ذو الوجه الأسود، باتهام السلطان عبد الحميد المتدين جداً إلى حد الإفراط، بإنه ظالم ومسرف، وأنه أفسد أحكام الشريعة، وحرق كتبها. وبسؤال "هل يجوز هذا" يصير الجواب: "لا، لابد من القضاء على حكمه". وتم تكليف قوة خاصة من قادتهم لخلع عبد الحميد، السلطان العظيم الذي قال: "لا، إننى لا أرضى أن تُراق نقطة دم واحدة لمسلم بسببي" عن العرش.

وبهذا نستطيع من داخل قطار الأحداث الماضية، تعقب الاتحاد والترقي حتى وقت توقيع هدنة 1918، كما نتعقب طيور الكوارث التي تحوم في سماء الوطن التركي.

وهكذا كما أسلفنا، فقد أطاحوا بالسلطان عبد الحميد، مستغلين معدنه الطيب، واحترامه للحياة، ورحمته، ونقاءه الذي جعلهم يصفونه بإنه: "أرق من الرقة، وأنعم من النعومة" وأجلسوا على العرش العثماني "محمد رشاد أفندي"، وكان سنه حينئذ 65 عاماً، وكان جسداً بلا روح. وافتتحوا به العصر الذى بدأ بالتخلص من الأشياء المتحفية المتعلقة بالحاكم، والعرش العثماني. وسيُطرد هو أيضا من المتحف بعد 14 عاماً.

---

[459] - شيخ الإسلام: هو صاحب أعلى رتبة علمية في الدولة العثمانية. ويرأس الطبقة العلمية. وأُستحدث هذا المنصب في عهد السلطان مراد الثاني، وكان يسمى في أوائل عهد الدولة العثمانية بقاضي عسكر. وفي عهد السلطان محمد الفاتح كان يُعرف بالمفتي حيث كان يقوم بإصدار الفتاوي الخاصة بالدعاوي القضائية. ثم صار يُعرف بشيخ الإسلام. والصدر الأعظم هو المسئول عن تعيين شيخ الإسلام. وكان شيخ الإسلام عضواً في الديوان السلطاني الذي يرأسة الصدر الأعظم نيابة عن السلطان. انظر Mehmet Zeki Pakalın, "Osmanlı Tarıh Deyimler ve Terimleri Sözlüğü", cilt 3, a.g.e. s.347-350

السلطان محمد رشاد

بينما يُرسَل عبد الحميد الثاني في منتصف الليل إلى سلانيك، إلى قصر اليهودي (الأثيني)، جاء ذلك الوفد الذي زعم أنه أصبح ممثلاً للشعب، إلى محمد رشاد أفندي، وأخبره بإنه أصبح خليفة المسلمين وسلطان الأتراك، نزولاً على إرادة الأمة.

محمد رشاد لم يكن طيلة حياته يخرج من قصره للتنزه أو للتجول بدون وضوء، وهو مثل جميع آل عثمان، لم تضعف علاقته بالدين، ولم يشرب قطرة خمر، وتجنب كافة أشكال المحرمات. وخلال فترة ولاية العهد، وحتى فترة شيخوخته، لم يلجأ ولو مرة واحدة إلى الألاعيب والحيل السياسية. وكان يقرأ التاريخ والمثنوي فقط، لكنه عاش محروماً من إمكانية وصل عالمه الداخلي، بالعالم الخارجي. كان نقياً نقاء ماء المطر، لكنه كان محروماً من النشاط والفكر تماماً. فهذا المسن ذو العينان الزرقاوان، والبشرة البيضاء، والوجه الوردي، واللحية البيضاء، المتوكل على الله توكلاً يبلغ حد العبودية، ومثال الخضوع والإذعان، كان هكذا يجيب بكلامه الذي جهزه من قبل على كلمة الوفد:

"ــ حافظت على اعتدالي لمدة 33 عاماً. وكنت طيلة هذه المدة أدعو لأمتي بالسلامة والسعادة. ومادامت الأمة تريدني، فإنني أقبل هذه المهمة بكل شكر. وأملي الأول تنفيذ حكم الشرع الشريف بموجب القانون الأساسي. ولن انحرف ولو ذرة عن تحقيق آمال ورغبات أمتي. وإذا منّ الله علي بالتوفيق، فسأكون سعيداً".

كانت هذه الكلمات القاتمة، الجوفاء، عبارة عن مساعدة قدمها للاتحاديين، عن طريق الاتهام الخفي لعهد عبد الحميد. وإيضاح أنه كان زمناً من الصعب إبداء الاعتدال فيه. وهى كلمات توضح حالة الفكر لدى السلطان والسلطنة، وتقدم إطار محزن للضعف والتضاد، داخل أسلوب منافق. فقد تحدث عن الموافقة على اعتلاء العرش، بغاية المحافظة على الشريعة، بينما كل شئ يتجه نحو هدم الشريعة. وتصرف وكأنه منقاداً، وغايته إرضاء هؤلاء من هم ضدها. كما توضح كلماته أيضا، تصوره أن خدمة الوطن يكون في سيادة القانون الأساسي، وفي المحافظة على الشريعة. فضلاً عن الإشارة إلى عدم التقاعس عن تحقيق آمال ورغبات الشعب، والعمل على طمأنة الاتحاديين بدلاً من طمأنة الأمة.

ويرسم هؤلاء الذين احتشدوا في الميدان - عندما قام السلطان في هيئة مواطن "أرناؤوطي" بالسلام على طوابير المسؤلين الذين اصطفوا أمام نظارة الحربية التي أصبحت الآن جامعة - كل سطر وكل لون في عالم الغفلة والعالمية، حول نقطة الحرية المزعومة.

ويروي المؤرخ (أحمد رفيق) الذي رأى المسرح بعيونه،عن حوار دار بين اثنين من عامة الشعب. إذ يسأل أحدهما الآخر الذي يقف بجانبه، مستفسراً:

ــ من هذه الحرية؟

فيجيب عليه الآخر قائلاً:

ـ إنها سلطاننا الجديد يا سيدي!

وهكذا لم يعد هناك فرق في رأي الجميع، فسوف يصبح هذا الجديد (الحرية) الذي جاءوا به أظلم ممن ذهب، وممن سيجئ، وهذه الحرية لن تُخلع أبداً عن العرش، وستصبح صنم كل عصر، ولن ترحل بل ستحال من يد إلى يد.

وبينما أبدي أرائي في عهد الاتحاد والترقي، جمعية الأشقياء مادة ومعنـاً، مـن خلال قراءتي بنظارتي، كأني استحضر على اللسان، معايير محمد وحيد الدين شخصياً، وكأني أجعله ينطق.

أحب أن أشير إلى إنني اشترك مع محمد وحيد الدين - مع فارق التحليل والأسلوب- في جميع الأحكام القيمة التي أوضحناها، بدءاً من السلطان عبد الحميد الثاني حتى السلطان محمد رشاد. وأحب أن أبرز دليلاً على هذه الشراكة من خلال حديث محمد وحيد الدين مع أحد ياورانه - وهو ليس موجوداً اليوم على قيد الحياة- في الأيام الأخيرة من حياته في (سان ريمو) في إيطاليا، هذا الدليل مكتوب في كراسة مذكرات خاصة رأيتها مع ابن الباشا المرحوم، الذي طلب عدم ذكر اسمه، وهى عبارة عن بعض الجمل التى قالها وحيد الدين:

"ـ إذا كان أخى حضرة السلطان عبد الحميد قد جاء بعد السلطان سليم (ياووز)[460]، باعتبارهما من كبار السلاطين العثمانيين، لكانت الدولة قد أصبحت صلبة ومحكمة البنيان، وصامدة تجاه أعدائها في الداخل والخا رج. وقد ألمح لي عبد الحميد بنفسه بهذا المعنى. لكنه جاء في عصر من أخطر العصور وأحرجها، وطيلة 33 عاماً عرف وضعاً مأساوياً، مليئاً بالمشاكل الباقية من الماضي. وبرغم ذلك استطاع أن يحافظ على المريض من الموت، وإن لم يستطع أن يجلب له الصحة والسعادة. فقد هدمته جمعية الاتحاد والترقي بسبب طبع التدين الذى كان يتمتع به، والذى لم يسمح له بأن يريق الدماء ابداً. ومن بين أبناء عبد المجيد، انتقوا من هو أكثر حلماً وسلماً وشفقةً ورفقاً وتوكلاً وتحملاً، وأكثر ضعفاً في الإرادة، وأقل معرفة بالسياسة، فوجدوا فيه بغيتهم، وجاء الدور عليه، فوضعوه على العرش. وهكذا دخلت الدولة التي عمرت 600 عاماً، في طريق الدمار لمدة ستة أعوام، وبعد تسعة أعوام سقطوها. لايوجد في تاريخنا أي

---

460 - سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح (1470- 1520 م): سلطان الدولة العثمانية، وخليفة المسلمين، وأول من تلقب بأمير المؤمنين، وخادم الحرمين الشريفين. يلقب بـ (ياووز) أي الصارم، وقد حكم لمدة ثمانية أعوام. ومن أعدائه الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران، والسلطان قانصوه الغوري حاكم مصر والشام. انتصر على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة جالديران 1516، ودخل "تبريز" عاصمة ملكه. وقاتل قانصوه الغوري في معركة "مرج دابق" شمال حلب، وقتل قانصوه الغوري. ثم زحف على مصر، مصطحباً معه آخر الخلفاء العباسيين "المتوكل على الله الثالث". وحارب "طومان باي" خليفة الغوري، وقتله، واستولى على مصر عام 1517. عاد السلطان سليم إلى القسطنطينية، وتوفى في عام 1520م. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سبق ذكره، ص 188-197

عدو داخلي أو خارجي استطاع الإساءة للأمة، أكثر من هؤلاء الذين أصبحوا أداة اليهود والماسون والدونمة".

ومن الجملة الأخيرة في الحديث السابق الذى ورد حرفياً على لسان السلطان وحيد الدين، نؤكد على هذه الحقيقة الكبيرة التالية.

صارت جمعية الاتحاد والترقي بكل كبار قادتها، تشكيلاً واحداً منساقاً نحو الماسون، ويتحكم فيه التشكيل اليهودى السري. وبعد أن وجه التشكيل اليهودي العالمي أكبر ضربة إلى عبد الحميد- وهو القائد الذي كانوا يعتبرونه شخصية خطيرة نظراً لسعيه نحو توحيد المسلمين، وتوحيد الأتراك- تلك الضربة التي كانت بيد أعضاء الاتحاد والترقي الذين كانوا عبارة عن شباب غض، قليل التجربة، يزعق بالحرية المنحوسة، والتقليد الأعمى للغرب، تركهم أحراراً يُغرقون الدولة بمفردهم. وساقوا صنيعهم وهم الاتحاديين ومعه الوطن التركي إلى العدم، بعد أن جعلوه يمسك بطرف منظومة الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا وعلى رأسهم أمريكا)، ومن خلفهم أزمتي طرابلس والبلقان. وصار هؤلاء المنتسبين لجمعية الاتحاد والترقي، لا فرق بينهم وبين الثور الهائج الذي يهاجم القماشة الحمراء التي يمسكها مصارع الثيران. وهكذا أصبح الاتحاد والترقي ألعوبة لليهود، قبل أن يدركوا أى شئ، ودون أن يُمهَلوا لإدراك أى شئ.

شكّل الاتحاديون أساس الجمعية التي صارت أداة اليهود، وضحيتها بعد ذلك. ولكونهم ذوي أصول غامضة، قاموا بعد فترة من وصولهم إلى الحكم بالبحث عن أيديولوجية لنظامهم، ووجدوا ضالتهم في القومية التركية فتعصبوا لها، وكان هذا عمل جهز اليهود بيئته دون ظهور أثر مباشر لهم فيه، وفي الوقت نفسه سهل لهم لعب دوركبير فيه.

وضيا گوك ألب- ذلك المفكر الذي أودى به هذا الذي ابتكره، إلى الهاوية، ولن يعفيه الموت من محاسبته في الدنيا- كان غافلاً عن رؤية ساحة الاستثمار الكبيرة التى فتحها لليهود. وعن إدراك الحماية الكبيرة التي وفرها لهم، عن طريق التعصب للقومية التركية التي ابتكرها لتأخذ مكان الإسلام، بدلاً من أن تكون من داخل الإسلام. فالجبان الفيلسوف اليهودي (إميل دور كايم)[461] الذي حرص على الثأر لليهود- لأن الله لعنهم في القرآن- بهدم الأتراك الذين يمثلون الإسلام، والذي حرص على توفير كل السبل، وكل الاعتمادات للقضاء عليهم، هو السبب في توجه ضيا گوك ألب هذا، بأساليبه الرخيصة وتحريفه للحقائق. ومن بعد ضيا، جاء المنادون بالقومية التركية الذين علت أصواتهم تأييداً لنفس هذه الدعوة، منهم (خالدة أديب)[462] وفكرة "يني طوران" أى طوران الجديدة.

---

[461]. يُعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع إميل دور كايم: هو فيلسوف، وعالم اجتماع فرنسي (1858 - 1917- الحديث بعد كونت،فقد تأثر بفلسفته الوضعية التي تقوم على النظرية والتجريب. من آثاره "تقسيم العمل في المجتمع" في عام 1893، و"قواعد المنهج الاجتماعي" في عام 1895. كان أستاذاً في السوربون حيث تولى تدريس علم الاجتماع والتربية. وسمى أحد كتبه "التربية والاجتماع". انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 816

[462]. خالدة أديب (1882- 1964): روائية وأديبة معاصرة، وسياسية، وناشطة نسائية تركية، انضمت إلى الحركة القومية التركية التي تزعمها الشاعر ضيا گوك ألب. وكانت من المؤيدين لتتريك اللغة وتصفيتها من التراكيب العربية

وكثير من المؤسسات التي تشكلت مثل"تورك أوچاغي" أى جمعية الأتراك، ومعظمها لا علاقة لها بالأتراك، كما ظهرت أنواع كثيرة من هذه المؤسسات خارج الأناضول.

وهذه المذحة لسليمان نظيف، كم تعبر عن الحال:

"ـ من أدوات الحرفة في اللغة التركية حرف "جي" حسب توافق الحروف الصوتية، فمثلاً: نقول قهوةجي أى عامل بمقهى، وعربةجي أي يشتغل على عربة، وكومورجي أى فحام، وصابونجي أي بياع أو صانع الصابون ..... الخ، فإذا قلنا أن كلمة قهوةجي ليست أصلها قهوة، وصابونجي ليست أصلها صابون، وعربه جي ليست أصلها عربة، وكمورجي ليست أصلها كومور، فبالتالى معظم الأتراك ليسوا أتراك باعتبار أن كلمة توركجي معناها ذو أصل تركي!".

وهيام وتهافت شخصيات مثل (خالدة أديب أديوار) صنيعة يهود الدونما، وحاملة مشعل الدعوة، وآخرين مثلها مرتبطين بخارج الحدود التركية، وذوي ثقافات أجنبية، (معظمها روسية)، على القومية التركية، يكفى لإيضاح كل شئ.

ومن المثير للدهشة، ويحيرني أنا بصفة شخصية، هو الرجل رقم "1" في الدولة، ذو العنصر التركي الحقيقي، وهو السلطان محمد رشاد الذي ظل صامتاً، واجماً تجاه هذا الانتحار السياسي والعسكري، وهو الرجل المتدين جداً، والمتصف بالخلق الكريم. ولذلك علينا إيضاح دقائق هذا كله، من حيث البيئة المكانية والزمانية التي تشكلت فيها هذه الأمور.

أما وحيد الدين الذي كان قد قارب الخمسين من عمره حينذاك، فسأجعله يمر من أمام عيني قليلاً حتى نراه في فترة ولاية العهد، وكان قبل ذلك لا يأمل في اعتلاء العرش. ونرى وزرائه وهم يتسببون في اضمحلال الدولة العثمانية وانهيارها، وهو يشهد هذا كله، وتسيل أمامه دماء الوطن الجريح، التي تندفع كلها إلى داخله.

ومن نفس دفتر المذكرات نقرأ:

"ـ ظللت ساهراً حتى الصباح، مهموماً لاقتراب الدولة الخالدة من الزوال. أمامي أجد يوسف عز الدين في ولاية العهد، وهو أقرب إلى الجنون. كنت أشعر بالأسف الشديد لهذا كله! كان اغتصاب طرابلس الغرب، وحرب البلقان، بمثابة عقوبتين ثقيلتين من الله بعد الأطاحة بعبد الحميد، والحرمان منه. أما العقوبة الأكبر فهى الحرب العالمية التي كانت بمثابة الحكم الأخير بالإعدام..."

فالاستيلاء على طرابلس الغرب، يوضح مدى الضعف المثير للدهشة الذي اصاب بنية الدولة القوية عندما أُعلنت الحرية. ويكشف أيضا- حتى للإيطاليين صانعي

والفارسية. اشتهرت برواياتها التي تنتقد واقع المرأة التركية. دعت إلى تحرير المرأة. ناصرت الحركة الكمالية في بدايتها حيث خدمت كجندية في الجيش التركي في فترة حرب الاستقلال. ثم أصبحت وزيرة للمعارف في عهد الجمهورية التركية. هاجرت من تركيا هى وزوجها عدنان بك، وظلت خارج تركيا لمدة 5 سنوات حيث عملت كأستاذ زائر في جامعات أوروبا وأمريكا. ومن رواياتها (طوران الجديدة) و(اضربوا الغانية) و(قميص اللهب) و(سينكلي بقال). انظر عاطف حسين النحاس،"الواقعية في رواية سينكلي بقال للأديبة خالدة أديب آديوار، ترجمة ودراسة"، رسالة ماجستير، قسم اللغات الشرقية، فرع اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس 2002، ص1- 3 ،26

المكرونة- أن الدولة لم تعد قادرة على حماية شمال أفريقيا. وبالنظر بالعين المجردة لانقلاب المشروطية، نجد إنه استثمار سريع للأحداث، الهدف منه ليس بعث الأتراك ونهضتهم، بل قتلهم. إذ يعنى أن أجل الدولة العثمانية قد حان، وجاءت اللحظة التي انتظرتها أوروبا طويلاً.

وصارت حرب البلقان مانشيت غلاف صحيفة (الوستراسيون) الفرنسية التي كانت تصدر في ذلك الزمان. وبعد 38عاماً نشرت صحيفة (بيويوك دوغو) التركية، نسخة مما نُشر في تلك الصحيفة. وها هو جزء من هذا الذى نُشر، وهو ينقل صورة مرعبة لما حدث:

"ـ هاهم من كانوا بالأمس وحوش الأناضول وأسودها التي انطلقت جائعة، بلا سلاح ولا علاج ولا قيادة ناجحة، بعد فساد الجيش نتيجة استشراء سم السياسة بين صفوف الضباط وهيئة القيادة. (فهم لم يكونوا سوى حيوانات دنيئة لا ترقى لمستوى الأسد، كانوا عبارة عن ضبع أعمى، وابن آوى جربان، وفأر أعرج.) هاهم وقد صاروا بعد المواجهة مهزومين، بلا شرف، يعتصرهم الألم."

كانت هزيمة البلقان من أكبر هزائمنا وأفجعها، بداية من الهزيمة الكبيرة التي افتتحت عصر هزائمنا، وكانت على يد (مارزيفونلي قره مصطفى) حيث كادت راية الرسول تسقط في أيدي أعدائنا، لولا إنقاذها على يد بعض المؤمنين الشجعان. وبعد هذه الهزيمة لم يعد في مقدورنا فعل أي شئ سوى إنشاد الأغنيات في مدارس الأطفال، معلنين بيننا وبين أنفسنا سقوط شرفنا، مثل ذلك المقطع من الأغنية:

آهـ تلطخ شرف الأتراك في 1328 (هـ)

آهـ ، آهـ ... آهـ ، آهـ ! ...

تُرى هل كانت تلك رؤية النظام، هل هو الذى رأى أن نعلن لأطفال المدارس بالأغاني، تلوث شرفنا في العالم؟

قبل حرب البلقان ظهر "المنقذون"، وكانوا عبارة عن مجموعة من الضباط المناهضين للاتحاديين، كانوا بمثابة شرارة كبريت اشتعلت وانطفأت في الحال، لكنها من حين لآخر كانت تهز جمعية الاتحاد والترقي. وأصبحت وكأنها قوة تريد إبعاد الاتحاديين عن الحكم. وبعد الهزيمة أخذ الاتحاديون في هذه الفترة، يتنصلون من مسئولية فجيعة الجيش الذي أفسدوه. وتهجموا على الباب العالي. وبذلك ارتكبوا جريمتين: الأولى، محاولة الانزواء بمناورة غريبة، في لحظة الأزمة التي تسببوا هم أنفسهم فيها، ثم الظهور في اللحظة التي ينتهى فيها كل شئ، فاتحين المجال لأزمات جديدة...

وكان الهجوم على الباب العالي الذي يمثل قوة الدولة، بمثابة حركة مجنونة ومكشوفة لامثيل لها، قام به بعض المعتوهين الذين نجحوا في الوصول إلى الصدر الأعظم العجوز، الكسلان، دون أن تراهم حتى القوة التي في معيته. ولكنها في الوقت نفسه حركة تتسم بذكاء لا نجده لدى أكبر العقلاء، وفقاً لشروط ذلك الزمان ... فكروا معي! فقد كانت هناك فرقة تقوم بالتدريب العسكري خلف حجرة الصدر الأعظم في ذلك

الوقت، وكان من الممكن إصدار الأمر بكسر الزجاج، فيتوقف الهجوم في الحال، وتنتهى هذه الحركة الساذجة. لكن تم الهجوم، وانتشر المهاجمين، ووصلوا إلى مقر ناظر الحربية الذي فغر فاهه، وأرغموه على كتابة استقالته إلى الصدر الأعظم الذي أخذ يرتعد. وبعد ذلك هرولوا إلى القصر، للحصول على تصديق السلطان على تشكيل وزارة جديدة. وهكذا دائماً، لم يكن هناك شيئاً أسرع من توقيع السلطان رشاد. و بتوقيعه انتهى كل شئ!

وبسرعة طرقت الحرب العالمية الأبواب. حرب كانت مقتصرة على دول المحور، و تضم (ألمانيا وأوستريا،أي " النمسا والمجر") ضد الحلفاء، وهم (إنجلترا وفرنسا وروسيا). وعندما تصبح أمريكا على رأس هذه الحرب، تنضم دول العالم جميعها، صغيرها وكبيرها، إلى قوات الحلفاء.

وينساق العالم إلى حرب شنتها فرنسا والأنجلوساكسون، ضد ألمانيا،لإحداث تغييرات كيميائية في بنية الحضارة الغربية. وبجانب هذا السبب الأساسي المؤثر، كان هناك سبباً آخر ظاهري، وهو التنافس الصناعي والاقتصادي بين إنجلترا وألمانيا. استمرت الأزمة الغربية التي بدأت في أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين، ثم تطورت بالتدريج، وعندما لم تحقق أدوات العلم التي تسببت في الأزمة، قوة روحية مؤيدة، خرجت عن نطاق السيطرة. واستمرت المشاكل الجديدة التي جلبتها الاكتشافات الحديثة، والتي أدت إلى ظهور الاشتراكية ثم الشيوعية. وكانت أهم هذه الاكتشافات، اختراع الألة التي بلغت حد التقديس بعد الحرب العالمية الأولى. تلك الألة التي أوجدت الفوارق الاجتماعية داخل المجتمع الواحد، وفتحت مجالاً إنتاجياً في المجتمعات التي بحاجة إليها. وبجانب ذلك، فتحت أسواقاً استهلاكية جديدة، وأوجدت عالماً سياسياً مغايراً تماماً. وعندما تجنح تلك الألة، وتصبح أداة تخريب داخلي وخارجي، وتلقي بالجميع في الخطر، تتولد مشكلة أن المجتمع الذي يستعملها يصبح هو الأفضل، و يدعي التفوق. وتنحصر قيمة الألة في هذا.

فماذا كان المشهد في تركيا التي اضطربت بسبب هذا الألم نفسه إلى يومنا هذا، والتي لم يداوى جرحها الحرب الأولى، ولا الثانية، بينما تعيش هذه المشاكل الإنسانية الكبيرة، الروحية والاجتماعية والصناعية والاقتصادية.

منذ بداية الحرب صارت تركيا وطن خارج حدود الزمان والمكان، في أيدى حفنة من المنحوسين المشئومين. وانجرفت تجاه طرف، كان واضحاً إنه مغلوب ومهزوم. انجذبت إلى المظهر الخارجي للجيش الألماني، إلى هندسة جيش منظم أكثر من خلية النحل، إلى قائده الصارم، وإلى زيه المزخرف...

أما مشهد القصر، فيعرض غفلة إثر غفلة...قصر يسيطر عليه بضعة مشئومين، في وطن خارج الزمان والمكان، لايدري شيئاً عن الدنيا، حتى غافلاً عن هذه الحالة التي صار اليها الوطن. فقد توقفت جميع الساعات، وصار حجم الوطن مسطحاً بلا أي أبعاد...

ويروي لنا خالد ضيا أوشاكليجيل، ممثل " الأدب الجديد" خاصة في مجال الرواية، ما رآه في ذلك الوقت الذي كان فيه باشكاتب القصر، في قصر طوب قابي المهيب. فيصفه أولاً من الخارج، بإنه في طراز "الباروك" و"الروكوكو" الذى يخلو من أي ذوق فيقول:

"ـ إذا نظر المرء من جهة البحر، يرى قصر دولماباغچة الذي يمثل التأثير الأوروبي، والذي بُنى وفق شروطه وأسلوبه. كان مثل قطع جاتوه حجرية كبيرة جداً، صنعها حلواني مستخدماً فيها السكر بإفراط، وزينها، ووضعها في الفترينات الزجاجية، بطريقة لا تليق بعصر وقور، مهيب..."

الحقيقة هذه رؤية خاصة بصاحب شخصية وحيثية...

ثم يتحدث خالد ضيا عن السلطان، في المذكرات التي بعنوان(القصر وماورائه) قائلاً: "إنه رجل مثل الباشكاتب، أتت به الجمعية التي خلعت سلطاناً جسوراً، فتح صدره لكل أنواع الخطر، عن عرشه، وأرسلته إلى المنفى، من أجل تأمين وجودها وحياتها".

كان خارج القصر يدل على أن من بداخله بلا شخصية ولا قدرة. كان "باشكاتب القصر" - أي السلطان محمد رشاد الذي أتى به الاتحاديون- مسكيناً، بلا حيلة، لايقول سوى: "أنا ممنون أنا محظوظ".

ولاية العهد

في تلك الأثناء سيطر القلق على محمد وحيد الدين أفندي، فهو وإن لم يحاول تحليل ما يحدث حوله من أمور، فقد كان يشعر بمدى سوئه وفداحته ومرارته.

قلق فترة ولاية العهد...

ما سبب هذا القلق؟ رأى محمد وحيد الدين أنه لابد وأن يعتلى العرش، لأنه أدرك أن "الدولة العلية" تسرع الخطى نحو الانهيار، وكان يريد أن ينقذها. تُرى هل كانت رغبته في الوصول إلى العرش لهذا السبب، أم كان مجرد طمعاً في العرش، ورغبة في تحقيق "سعادته باعتلاء هذا العرش العالي المقام؟".

إننى في الواقع لا أمتلك أي وثيقة تاريخية تثبت أي واحد من هذين الاحتمالين. فكلا الاحتمالين ممكن أن يكون صحيحاً، كما أن الاحتمال الثاني لا يقلل من قيمة وحيد الدين كصديق كبير للوطن. ولو كانت هناك مسابقة لأكثر المظلومين في التاريخ، لكان محمد وحيد الدين هو الفائز الأول. فحتى إذا كان قد رغب في اعتلاء العرش طمعاً فيه، لم يكن ذلك لينام فوقه، بل ليفعل شيئاً للوطن.

بقى أن العرش العثماني في ذلك الوقت كان مثل البرميل المثقوب الذي لا يمكن أن يجذب أحداً، أو يجعل أحداً يطمع في اعتلائه. فضلاً عن ذلك فإن الكلام الذي قاله محمد وحيد الدين فيما بعد، يفيد على نحو واضح أن قلقه خلال فترة ولاية العهد لم يكن سوى من أجل الوطن.

كان وحيد الدين يشعر بالقلق في فترة ولاية العهد بسبب يوسف عز الدين أفندي[463]، ولي العهد الأصلي. وأذا رجعنا للوراء نجد أن يوسف عز الدين، هو الابن الأكبر للسلطان عبد العزيز. ومحمد وحيد الدين هو الابن الأصغر للسلطان عبد المجيد. إذاً فهما من نسل السلطان عبد العزيز، والسلطان عبد المجيد، ابناء السلطان محمود الثاني. والحكام الثلاثة الذين جاءوا بعد السلطان عبد العزيز، كانوا من نسل السلطان عبد المجيد.

كان وحيد الدين يشعر بالقلق، لأنه وجد الطريق أمام العرش مسدوداً بعد حكم أخوته الثلاثة من نسل عبد المجيد، بينما هو مفتوحاً أمام يوسف عز الدين، وهو شخص قواه العقلية غير سليمة.

الحقيقة إن قلقه بشأن الوطن، ومظاهر هذا القلق المتنوعة، كان بسبب سيطرة تلك الروح على الأمراء السابقين التي يوضحها خالد ضيا بقوله:

"ـ عندما كان جميعهم يأوون إلى فراشهم ليلاً، كانوا ينظرون إلى التوقعات والاحتمالات، وكأنها مخطوطة في السقف، ويحصون عدد الذين كانوا قبلهم، وفي الصباح تختفى النقوش المخطوطة عندما يدخل ضوء الشمس من خلال الستائر الحريرية، فيتسائلون قائلين: تُرى كم بقي هذه الليلة من أيام."

وهاهى شروط ولاية العهد:

"ـ أن تصبح ولياً للعهد، وأن ترى اليوم الذى تصير فيه الدولة كلها تحت رجليك، لابد من شرطين. أن تكون الأكبر والأرشد..."

بعد ذلك يمضي خالد ضيا في سرد الحكاية:

"ـ أمام عينى كان هناك اثنان: يوسف عز الدين بن عبد العزيز، ووحيد الدين بن عبد المجيد ... لكن القاعدة تقول أنه لابد أن يكون هناك ولي عهد واحد: يوسف عز الدين كان هو الأكبر من وحيد الدين ... وكان ذلك تفكيره أيضا. لكن وحيد الدين لم يكن يفكر على هذا النحو. كان وفق تفكيره الشخصي يرى أنه لابد أن يكون هناك اثنين ولي عهد. وكان يريد أن يعرف الجميع هذا، بداية من سلطان ذلك الزمان، والحكومة، إلى أصغر فرد. وبالطبع الشخص الذي سيكون هو ولي العهد لم يكن مضطراً لقبول هذا. ومن أول يوم طُرح فيه هذا الاقتراح، اصطدم بموقف ولي العهد الأصلي الذي هاج، وماج، واشتاط غضباً ."

وهنا يظهر أن وحيد الدين طرح هذه الأطروحة الجديدة في قضية ولاية العهد، عندما جاء الدور عليه. تُرى هل فكر وحيد الدين بهذه الأطروحة، في الأسباب الموجبة لذلك:

---

463 - كانت ولاية العهد في عهد السلطان محمد رشاد، للأمير يوسف عز الدين ابن السلطان عبد العزيز.وذلك لأن ولاية العهد في الدولة العثمانية كانت من حق أكبر أفراد الأسرة المالكة سناً، بعد الجالس على العرش، وليس من حق أكبر أولاد الجالس على العرش. ومات الأمير يوسف عز الدين عام 1916، وقيل إنه مات مسموماً على يد الاتحاديين، لأنه لايوافقهم على سياستهم، وأشيع أيضاً إنه مات منتحراً إثر نوبة جنون أصابته كالتي أصابت أباه السلطان عبد العزيز. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق محمد إحسان حقي، مرجع سبق ذكره، ص 717

ـ إنه يلزم وجود اثنين ولي عهد، عندما تكون بحاجة إلى ترجيح واحداً منهما. فرق السن ليس معيار يوضح أهلية من يريد الوصول إلى العرش، ويسد الطريق أمام غيره. إن معيار الأهلية بين المرشحين أفضل كثيراً. وهكذا يكون هناك نوع من المعيار الديموقراطي داخل السلطنة.

فكرة أن يكون هناك اثنين ولي عهد لاتستحق أن نراها خالية من دقة التفكير العالي، لكونها تصدر مباشراً من وحيد الدين. فمن وجهة نظري الشخصية البحتة أراها غير ضرورية، فإذا كان وحيد الدين هو ولي العهد الثاني من حيث الدور، ففكرة أن يكون هناك اثنين ولي عهد ليست سوى تأكيداً على إنه هو ولي العهد الثاني، لأن دوره حتماً سيجئ بعد الذي أمامه. لكن إذا كان وحيد الدين يريد بهذه الفكرة أن يجعلنا نأخذ في اعتبارنا الجوانب الإيجابية الخاصة به، والجوانب السلبية الخاصة بمنافسه، وفي هذه الحالة تظهر الحقيقة بنفسها. وفي الوقت نفسه لا تدع مجالاً للجدال، وتتضح الأسباب الموجبة لما ذكرنا سابقاً، وهو ضرورة أن يكون هناك اثنين في ولاية العهد.

وفى الوقت الذي يتجنب فيه الروائي خالد ضيا أوشاكليجيل باشكاتب القصر، وجاسوس الاتحاديين في السراي، التلفظ صراحة برجاحة عقل وحيد الدين ورشاده، وعلة يوسف عز الدين الروحية، يجسد لنا هذا المشهد الذي يوضح ذلك:

"ـ هذه الأطروحة تجعل الاستناد على ماذا؟ ربما على شرط أن يصبح ولي العهد هو الأرشد.. فهو وكل واحد كان يعرف الأحوال الغريبة التي تصدر عن ولي العهد يوسف عز الدين. كانت أفعاله الغريبة واضحة، ولا تخفى عن عين أحد. وكان وحيد الدين يعلم أيضاً ما يُخفى من التصرفات الغريبة التي كانت تصدر عنه، عن طريق استخباراته الخاصة. فهذا الشخص (وحيد الدين) كان باحثاً نفسياً دقيقاً للغاية. فحتى لايتأخر على الوصول إلى الحكم، وحتى لايكون في الساحة سوى ولي عهد واحد ، يدفع بأطروحته. فقد وضع خميرة المرض التي أخذت تكبر يوماً بعد يوم، ساكباً قطرة سم كل دقيقة. وفي النهاية يتحول الوهم إلى حقيقة واضحة. وكانت الأرض المهيئة لبذر بذور هذا المرض مناسبة جداً. ألم يكن عبد العزيز مصاباً بنوع ما من الجنون؟ وألم تكن السلطنة كلها تمتلئ بمناظر متنوعة من هذا الجنون؟ وعندما ينتهى الأمر بالانتحار تكون الفرضية أقرب للحقيقة. وهنا ألايصبح هذا بالضرورة نتيجة للمرض؟ في خيالي أرى ابتسامة الرضا في عيون وحيد الدين الذي أحكم تدبير هذا التسلسل، وهو يخمن النتيجة.

عندما كنا ندخل القصر نجد الشواهد أقرب إلى ظنوننا. فقد كنا لا نرى يوسف عز الدين إلا نادراً.وكانت تصرفاته تنم عن الكبر والعظمة والغرور. ومن نظرة الغم التي تظهر من خلف نظارته، والتي تبدو وكأنها تبحث عن سر خُفى عنها، ومن يديه في أثناء سلامه علينا، ومن خطواته وهو يصعد السلم، ومن ساقيه خلال تجوله في غرفته قبل أن يسمح لنا بالدخول إلى حضرته، ومن خفقان قلبه ونفسه اللاهث البطيء، وحديثه القصير، كنا نفهم أن المرض يزيد يوماً بعد يوم، وأصبح حقيقة واضحة تنتظر وسيلة من أجل إضفاء صفة الجنون الصريح. حتى نفهم هذا لانحتاج إلى محلل نفساني. فكل

شيء كان يدل أننا أمام حالة مرضية. وقد رأينا كيف عاد أندرون أفندي من عنده، ومعه القهوة والماء بعد رفضه تناولهما، خشية أن يكون بهما سماً."

ورسم الشخصية هذا الذي رسمه خالد ضيا لوحيد الدين بحس أقرب للنفرة عن الود، يكشف لنا عن شخصية وحيد الدين بوضوح، فقد كان على حد تعبيره "باحثاً نفسياً دقيقاً، ومالكاً لهيئة استخبارات خاصة، وعاقلاً ومدبراً ورزيناً"، وفي مقابل هذا نجد شخصية يوسف عز الدين، وهو مرشح مجنون يقترب من النتيجة المشئومة كل يوم، مضطرب ومتكدر بسبب طمعه في العرش. فإذا كانت هناك قطرة حب للوطن في قلب وحيد الدين، فلا يكون أمامه تجاه هذا الحال سوى الاجتهاد، وطرح أطروحته السابقة لإعاقة ابن عمه المجنون هذا عن الوصول إلى العرش.

الحقيقة إننا نجد في مذكرات خالد ضيا أجمل تابلوه للحقيقة، حيث نجد المشهد عبارة عن اثنين ولي عهد، أحدهما وسيلته الاضطراب الداخلي، كالسيدة الذي أصابها هوس فتقوم بكسر الأطباق، والآخر يسعى بكل وسيلة لتحقيق مراده.

يقول خالد ضيا في مذكراته:

"ـ كان يسيطر على يوسف عز الدين هذا الوهم: إنه سيُعزل عن ولاية العهد وأن وحيد الدين سينجح بمساعدة أخيه السلطان من خداع الحكومة، والاستيلاء على مكانه. كان هذا الوهم في البداية مثل ثعبان خامل نائم، ورويداً، رويداً بدأ هذا الثعبان يستيقظ، ويُخرج لسانه، ويطل برأسه من جُحره بلا خجل.إذ رأى أنه لا داعي للاختباء أكثر من ذلك. وبدأ الثعبان في تفقد ما حوله بلا ملل أو كلل. فمن هم هؤلاء الذين كان يتفقدهم ويبحث عنهم؟ كان يبحث عن عناكب الليل التي تعرف كيف تنسج الشباك التي يقتنص بها حقه. وبعد أن وجدهم أخذ يستدعيهم واحداً واحداً لاستجوابهم والتقصي عما خُفى عليه من أسرار يوسف عز الدين، ناصباً شراكه ببراعة على حد ظنه. وبعد ذلك شدد الأمر عندما تقدمت مسألة المرض، وأصبحت المناقشات تبدأ بحلف اليمين على صدق ما يدلون به، كما لو كان يقوم باستجواب قضائي.

.....

وحتى نروي ما كان يقوله كل واحد من هؤلاء الذين كان يستجوبهم، سيصيبنا الملل والضيق، لكني سأجمع ما حدث في خط عام واحد، وأقول إنه كان حريصاً أن يعرف سقطات خصمه يوسف عز الدين الصغيرة، بكل وسيلة ممكنة. ولما لم يصبح وحيد الدين في حاجة إلى معرفة السقطات الصغيرة، أخذ يسقي بذور مرض يوسف عز الدين، ولا يدع فرصة تفوت في رعاية هذا المرض."

ثم يأتي الراوي إلى أكثر المواضع تلويناً في حكايته فيقول:

"ـ تُعد بصفة عامة المراسم والمواكب والضيافة والرحلات، من المناسبات التي يلزم أن يحضرها الاثنان. كانت إحدى وسائل وحيد الدين لإثارة يوسف عز الدين عند الخروج لحضور هذه المناسبات، قوله إن من حقه حضورها بمفرده، وهنا يصير يوسف عز الدين مثل القنفذ الغضبان، ويأخذ في طرح أشواكه أينما أُتفق هكذا علناً أمام الجميع.

.....

وبمناسبة أحد المواكب دعُم وحيد الدين فكرة أنه لابد أن يحضرها بجانب يوسف عز الدين بصفته ولي العهد الثاني، (ونرى هنا أن وحيد الدين يسعى بكل وسيلة لإلصاق هذه الصفة بنفسه) ... وربما تولدت هذه الفكرة في رأس السلطان نفسه من أجل أن يحدث صدام بين هذين الخصمين. ووُكلت أنا من دون الجميع للقيام بهذه المهمة. قلت في نفسي (نعم!) حتى يغضب يوسف عز الدين، ويظهر وحيد الدين هو الأفضل، إذ ليس من الممكن أن يقبل يوسف عز الدين هذا الأمر. إذاً لماذا يحدث هذا؟ ربما من أجل دعم المنافسة بينهما باتهام يوسف عز الدين بعدم الامتثال لرغبة السلطان عندما يرفض هذا الأمر...وربما كانت هذه الفكرة مجرد لعبة من السلطان تهدف الى إغضاب أحدهما من أجل فوز الآخر... أصبحت أنا بين المطرقة والسندان. وكان علي أن أجد وسيلة للخروج من هذا المأزق حتى لايتم سحقي... يجب أن أسوق الماعز بورقة الكرنب ... كما يقول المثل الفرنسي، تُرى من يكون الماعز ومن يكون الكرنب؟... ما علينا، فليس هنا مجال حل ألغاز... دخلت على يوسف عز الدين و أنا أفكر في هذا الأمر، بدأت بقولي: (السلام عليكم يا سيدي)، فجأة هب هذا الرجل واقفاً على قدميه وهو يرتعش قائلاً: ماذا وراء هذا الخبر الذي يقوله كل من يأتي هنا؟ وانتظر ردي الآتى: (لقد رأوا أن الموكب القادم لا يجب أن يكون طويلاً، وهم يتساءلون عما إذا كان من الممكن أن تجلسوا بجانب أخيكم وحيد الدين في عربة واحدة.) فرد قائلاً: أه! أخيكم! ياله من تعبير! كانت اليزابيث وماری ستيوارت تدعوان بعضهما البعض بالأخت الحبيبة، ثم وبسوء قصد انقلبا على بعضهما البعض، ولم تتوان إحداهن عن جز رقبة الأخرى.

كان يوسف عز الدين يهتز من رأسه إلى قدميه، ويعرق ويتلعثم. وعندما بدأ ينطق بصعوبة قال: (أما والأمر كذلك، فأرجوا أن تقبلوا اعتزارى عن حضور الموكب! مستحيل أن أكون في الموكب بجانب هذا الشخص.)

وبعد أن فكرت بيني وبين نفسي أن أقول له: (إن السلطان، كما تعلمون، يريد أن يرى كل شخص إنكم متواجدين بجانبه، كجلدتى كتاب واحد)، بحثت عن طريقة لانسحب ببراعة من بين المطرقة والسندان فقلت: (حضرتكم تفهمون إنكم عضو أساسي في هذا الموكب. فإذا سمحتم لي باقتراح يا سيدي: إن وجود عربة أخرى لن يزيد الموكب طولاً، فليجلس أخوكم وحيد الدين في عربة أخرى.)

جلس وبدا الأمر يروق له. وكان علي بعد أن أرضيت هذا الطرف، أن أنقل هذا الاقتراح إلى السلطان أيضا، فذهبت إليه، وقلت له: (يقولون يا سيدي إن وجود اثنين في عربة واحدة غير مناسب، حيث سيشعر كلاهما بالضيق، فإذا سمحتم لي بإضافة عربات أخرى إلى الموكب.)

لعل السلطان أيضا كان ينتظر هذه النتيجة. إذ قال: (وهو كذلك، وأرجوا أن تخبروا وحيد الدين بالأمر، ثم أدعوهما لحضرتي كل على حده ...)

عندما ذهبت إلى وحيد الدين وجدته هو أيضا يسير في حجرته، فقد كانت أطماع هذا الرجل التي لم تهدأ، تجعله دائم السير بل والركض من مكان إلى آخر. قلت له باختصار: (حضرة السلطان يرحب بوجودكما أنتما الاثنان في الموكب، وسيتم تجهيز عربة من

أجلكم) فرد قائلاً: (شكراً على العرض). وانتهى الأمر بهذا الشكل، بعد أن واجهت صعوبات كثيرة في حل هذه المشكلة التي ترتبت على هذه الدعوة الغريبة.

كانت مسألة وحيد الدين هذه بالنسبة لنا عبارة عن مسرحية مسلية، ومقلقة في نفس الوقت. فمع كل فتحة ستارة كانت تظهر مشاهد جديدة كثيرة.

وأحد هذه المشاهد كان مشهد مناورة (سيدلر)، ورحلة (أدرنه) التي أعقبتها.

كان الصراع بين أولياء العهد هذين كالأتي: أحدهما يقول: "أنا الأكبر سناً، وبهذا تكون السلطنة من حقي!" والآخر يقول: "أنا الأنسب لأنني عاقل وليس مجنون! وبهذا من حقي أن أمثل العرش". ولم يكن هناك تأثير للسلطان رشاد على هذا الاشتباك، فقد كان سلطاناً يتجنب التدخل في الأمور الحياتية بصفة عامة، وكان يبدو تجاه هذا الأمر وكأنه ليس من اختصاصه. وأحياناً كانت طبيعة الصراع تضطره إلى توفير الوسائل التي تزيد من اشتعاله. كان واضحاً أن السلطان رشاد يرجح أخيه الصغير وحيد الدين على ابن عمه يوسف عز الدين. فيكفي قبل أي شئ أن وحيد الدين من أولاد عبد المجيد. ولهذا السبب كان السلطان رشاد ـ وفقاً لبعض الروايات ـ يُقرب وحيد الدين منه ويضعه بصفة شخصية، في مقام "ولي العهد الثاني"، فلم يكن هناك أي فرمان رسمي بذلك. وعندما كان يدعو وحيد الدين إلى حضرته كان يستخدم هذا التعبير:

ـ أدعوكم يا ولي العهد الثاني!

أظهرت مناورة (سيدلر) التي أشار إليها خالد ضيا أوشاكليجيل في مذكراته،الوضع المخزي بين أولياء العهد الاثنين، وحال الدولة المفجع:

فقد ظهر على المسرح مشهد شهامة الأتراك في الزمن البعيد، وصورة مناورة محتشمة، القصد منها الرغبة في إظهار قوة الترك أمام الدنيا كلها، ومواجهة ثورة البلقان. ثم يأتي العرض الرسمي المعظم، التقليدي، بحضور السلطان الجديد... وكان هذا بناءً على رغبة الباشاوات الاتحاديين الذين أرادوا المباهاة، فأصبحوا كمن خلع قميصة للمباهاة بعضلاته، فلم يظهر من تحت القميص سوى جسد بهلوان. فلم يتصوروا أن الذى سيظهر هيكل عظمي نتيجة مرض العظام الذي سببته الأحداث الأخيرة، وسوء القيادة...وهكذا صار الاحتمال، حقيقة صدقتها الدنيا كلها حتى ذلك اليوم. إذ أصبح الجيش- وهو يمثل القوة التركية الوحيدة أمام أوروبا- عبارة عن كومة متعفنة بلا قائد، وبدلاً من أن يكون عنوان قوة أصبح إعلان ضعف. وهى النتيجة التي رآها الأوروبيين يقيناً في المختبر، وكانوا يتوقون كثيراً إلى مشاهدتها على أرض الواقع. أقصد نتيجة تخريب الترك من الداخل وحتى الجذور، وهى نتيجة أخذ الاتحاديين على عاتقهم، أن يقدموها إلى أوروبا مجاناً.

وصار الأمر هكذا!

كانت مناورة (سيدلر) فضيحة للجيش من ناحية التعليم والتدريب والتربية، ومن ناحية الضبط والربط والنظام! ... فقد تداخلت الفرق والطوابير والمواكب، واختلط بعضهم البعض، واشتبكت أرجلهم، وصاروا مثل شعر زنوج قارات العالم أو كالسلك الذي تشابك وأصبح كومة يصعب حلها من بعضها. ثم جاء العرض العسكري، وكان

على غرارها. كان عبارة عن مشهد على المسرح يحكي عن معنى عدم النظام. فقد كان الجيش كقطيع حيوانات يسير أمام السلطان، لا يعرف أحدهما شيئاً عن الآخر.

لنتخيل نظرة الاستهزاء التي في عيون السفراء ذوى القبعات ذات الطرات المزدانة بالجواهر، والملحقين العسكريين ذوي الخوذات المذهبة، المزدانة بالريش، عند مشاهدتهم هذا المشهد! ...

وكان أيضا مشهد عودة موكب السلطان مشيناً.

ويقول خالد ضيا عن هذا الموكب ما يلى:

"ـ كان هذا الموكب المضطرب أشبه بهروب منهزمين أكثر منه موكباً ..."

ويعرب السلطان الرقيق كالملائكة، والمحكوم عليه ارتداء صفة "أحمق" لأنه مجرد إنسان، عن إحساسه وانطباعه تجاه هذا المشهد بقوله:

ـ أنا ممنون، أنا محظوظ!

عندما نحيط اللوحة التي رسمناها لتصوير الخواء المادي والمعنوي الذي أسقط الدولة، فضلاً عن حالة الغرور المشئوم، بإطار مما كان يحدث حول العرش العثماني من تصرفات، مثل الجدال الذي ثار في ذلك الوقت بين الأميرين المرشحين لاعتلاء العرش يصبح التأثير فعالاً وكاملاً.

عندما علم السلطان رشاد أن هناك مناورة فرح مثل الطفل، وأمر فوراً بالبدء في تجهيز القصر، وقال لخالد ضيا ،الذي ذكر أن السلطان لم يكن يريد زحاماً حول "المعية السلطانية":

"ـ يجب أن يحضر معي المناورة يوسف عز الدين أفندي، ووحيد الدين أفندي".

وتصدر الأوامر إلى إدارة سكك حديد الشرق من أجل تجهيز القطارات. ويركب يوسف عز الدين ووحيد الدين في قطار واحد، ولكن في قاطرتين مختلفتين، وتسلك القطارات طريق ساحة المناورة.

ولندع خالد ضيا يتحدث:

"ـ لم يكن يوسف عز الدين جاهزاً في أي وقت، أما وحيد الدين فكان يجهز، ليس قبل يوسف عز الدين فقط بل قبل أي شخص آخر. مثلاً عند السفر إلى (سيدلر) تم انتظار يوسف عز الدين طويلاً. أما وحيد الدين فقد ارتدى ملابسه الرسمية، وتزين بجميع النياشين، (وقد حدث هذا أيضا في رحلة أدرنه) فقد كان ينتظر بفارغ الصبر مجيء فرصة أن يبدو أمام الناس من نافذه القطار، في صورة ولي العهد الثاني."

وفي المقابل نرى ولي العهد الأصلى، مشتتاً، مريضاً، ومضطرباً. يمر بأزمة تلو أزمة.

وهذا ما قاله وحيد الدين، بعد المناورة والعرض العسكري في (سيدلر)، إلى أحد المقربين منه:

"ـ فليحفظ الله هذا الوطن الذي صار مضطرباً على أيدي الاتحاديين، من أي حرب مهلكة، وياويل السلطان الذي سيأتى على رأس الأمة، في وقت اشتعال أي حرب!"

والحرب التي كان يشير إليها وحيد الدين لم تكن حرب البلقان الصغيرة، بل الحرب الكبيرة، ولم يكن يعرف أن هذا الدعاء سيخصه هو أكثر من السلطان محمد رشاد.

وبعد ذلك تأتي نهاية يوسف عز الدين ... إذ ينتحر بصورة مفجعة، حيث يقطع شرايين رسغه مثل أبيه على حد الاعتقاد ...

وفي هذا يقول خالد ضيا أوشاكليجيل:

"ـ جاءت واقعة انتحار يوسف عز الدين المفجعة في السنة الأولى للحرب الكبيرة. والذين شاهدوه وعرفوه عن قرب، لم يستغربوا وقوع هذه النتيجة، لكنهم تأثروا بها تأثراً شديداً. على أية حال فإننا إذا تسائلنا عن كيفية حدوث هذا، نقول إن الأمير كانت تسيطر عليه أوهاماً وأفكاراً أدت إلى تسميم ملكاته العقلية، وتدمير روحه. فقد كان لديه اقتناع بأن الحكومة سوف تنزع عنه صفة ولي العهد ... من أين جاء هذا الاقتناع ؟ يمكن القول بإنه كان يدرك حالته، وإن مرضه من النوع الذي يدخل في دائرة الجنون. ومن يوم ليوم كان يوسف عز الدين ينتهي داخل صراعه واضطرابه، بسبب الوهم الذي سيطر عليه. وفى النهاية، وحتى يتخلص من اكتئابه الشديد، لم يعد أمامه سوى اتخاذ قرار الانتحار. كانت هناك محاولات كثيرة منه للانتحار قبل ذلك، وتم اتخاذ تدابير احترازية مشددة لحمايته، ومنعه من تكرار هذه المحاولات. لكن ذات يوم قام بقطع شريان يده مستخدماً شفرة حلاقة، مثل أبيه تماماً، ولانعرف كيف وصلت هذه الشفرة إلى يده. ما نراه في وقائع الانتحار خصوصاً، إنها كانت عبارة عن عمليات تتسم بالتقليد الأعمى. والغريب أن من يعرفون هذا الرجل سيء الحظ، صدقوا وانخدعوا بالروايات المتنوعة التي قيلت بعد الفجيعة، لأنهم لم يتشككوا مطلقاً في واقعة الانتحار.

بالطبع كان هناك أساس لوهم يوسف عز الدين. فمرضه الذي بلغ درجة تجعله ملحوظاً لكل شخص، كان عائقاً لبلوغه مقام السلطنة. ومماالاشك فيه أنه هو نفسه كان يفهم هذا، أكثر من أي شخص آخر. حتى أننا كنا نسمع دائما ونحن في القصر، من هؤلاء الذين يترجمون تصورات الجمعية (الاتحاد والترقي)، كلام مثل (ماذا سنفعل؟). وكان الذين يرون أن جعل وحيد الدين سلطاناً فيه خطر كبير على الدولة، يفكرون في أن يكون صلاح الدين أفندى ابن السلطان مراد، هو السلطان القادم، خاصة أن ترتيبه يأتى قبل وحيد الدين، شاء ذلك أم أبى، لكنه مات قبل يوسف عز الدين. والغريب أن أفكار وحيد الدين تجاه العرش تغيرت،إذ رأى أنه لامناص من أن يصبح السلطان القادم، فاضطر لقبول ذلك."

وثمة ادعاء بأن يوسف عز الدين لم ينتحر بل قُتل. وهذا القتل من فعل الاتحاديين الذين كانوا يجزرون البشر، ويفرمون الحياة.

إننا لا نقدم احتمالاً! لأن الاتحاديين الذين كانوا يرون أن يوسف عز الدين لايقاوم رغباتهم، فتحوا أمامه طريق العرش. ولما حال مرضه دون تحقيق أملهم هذا، لم يبق أمامهم سوى الرضا عن وحيد الدين الذي كانوا يتشككون فيه قبلاً.

وفي مواجهة وحيد الدين، أخر نموذج للأسرة العثمانية الشريفة، والذي يتصف بالكمال والرزانة والذكاء، نجد ابن عمه ينتمى لرسم آخر. ويشكلا سوياً رسمين

متضادين. ويرى فؤاد توركجلدي، باشكاتب ديوان القصر السلطاني، أن الوهم قد سيطر على يوسف عز الدين تماماً لدرجة أنه أخذ ورقة مكتوبة من السلطان محمد رشاد خاصة بولاية العهد، ومكتوب فيها أنه لن يسقطه من ذلك المقام. كما بلغ به الأمر أن أخذ خطاب ضمان منظوم من "الشاعر العظيم" عبد الحق حامد[464]. وذات يوم سأل يوسف عز الدين، شيخ إسلام ذلك الزمان، عن حقوق ولاية العهد في الشريعة، فأجابه بقوله:

ـ لايوجد في الشريعة ولاية عهد حتى يكون لها حقوق!

وقد ساءه هذا الرد تماماً.

الحرب الكبيرة

ونستطيع أن نعرف المزيد عن وحيد الدين والمحيطين به، من خلال تعقبنا لإطار الحرب العالمية الأولى، المعروفة لنا بـ "الحرب الكبيرة".

إن الحرب الكبيرة، وتأثيرها الواسع الذى لا يُقارن بالحرب العالمية الثانية، من ناحية العالم الذى ذهبت به، والعالم الذي جلبته، تمثل مرحلة لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية. هذا بالإضافة إلى المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي صاحبتها. وهذا كله خارج نطاق موضوعنا.

فالأصول الفكرية للحرب الكبيرة، كما أوضحنا من قبل، كانت عبارة عن أول انفجار للأزمة الغربية ... وبينما يتناطح الأسد والنمر والفيل والدب، ومن ورائهم قطيع من حيوانات الغابة التي سقطت فوقها الصواعق، كانت هناك غزالة مجروحة مثلنا لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى الاختباء في مكان آمن، والبحث عن حل هناك. كان هناك طريقاً واحداً، لكنها سارت في الاتجاه الذي لايؤدى إلى هذا الطريق. ولم تستطع مواصلة السير في هذا الاتجاه، إذ سرعان ما وقعت في مستنقع الكارثة التي كانت تنتظرها في هذا الاتجاه الخطأ. بعد أن تم إيقاف الجيش الألماني في جبهة الغرب، بعد الحرب الصاعقة، والضربة الفجائية التي جاءت نتيجة تكتيك سياسي وعسكري فريد- وكان هذا كله بسبب حظنا العاثر- وبعد أن ضاع كل أمل لهم في النصر، اشتركت "الدولة العلية" في الحرب إلى جانب ألمانيا، وكأنها تركض لنصرة الضعيف. وأخذ أنور باشا الذي كان على رأس الدولة العلية، وهو واحد من الاتحاديين المشئومين، يبحث سراً عن باب البيت التركي، وأخذ معه "حية" متظاهراً بإنه سيقوم بقطع رأسها، ولكن الحية تقطع رأسنا نحن. فقد فرضوا هذا الأمر "كأمر واقع" دون استشارة الأمة، أو الحكومة أو حتى الحزب. وقدموا الوطن التركى للإمبريالية "اللحية"، كطعام تأكله.

---

464 - عبد الحق حامد: من أشهر الأدباء والشعراء الأتراك، ولد في استانبول عام 1851. والده خير الله أفندي المؤرخ المعروف. درس في باريس لمدة عامين، ثم عاد إلى استانبول واستكمل دراسته في إحدى المدارس الأجنبية.عُين والده سفيراً في طهران، فذهب معه حيث تعلم اللغة الفارسية وآدابها. وعُين سفيراً في بروكسل عام 1908. ومن أشهر قصائده "مقبر" التي رثى بها زوجته. ومن مسرحياته "دختر هندو" أي الفتاه الهندية، و"طارق" أو "فتح الأندلس". توفى عام 1937. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، مرجع سبق ذكره، ص 208 ،209 ،215

وهكذا عاش وحيد الدين الذي كان عمره 53 او 54 عاماً، عندما أصبح ولياً للعهد في العام الأول للحرب الكبيرة، في داخل هذه الحرب، وأعوامها المضطربة أيما اضطراب.

ففي الجبهة الشرقية، اكتوت العساكر المحمدية[465] بنيران صحاري سوريا، وتجمدت بثلوج جبل "الله أكبر". وتم تقديمها مثل نقود القمار، في سبيل تجسيد رواية "دون كيشوته"[466]. وفي أرضروم، صعد من أحد أطراف جبل "الله أكبر"، 30 ألف جندي ثم هبطوا من الناحية الأخرى في حالة يُرثى لها. فقد صاروا بضعة فرق، بلا طعام، ولا رصاصة واحدة. وبعد سماع أصوات تردد قائلة: "الله، الله!" من بعض الأشخاص الذين عادوا من حرب القناة، بعد أن استطاعوا العبور إلى الساحل المواجه، توقف كل شئ، وساد الصمت، وبدأ الخوف يستولى على سوريا، والبلاد العربية.

أما أمة محمد التى لم تكن قد انكسرت بعد، فقد أبدت شهامة لا نظير لها عند باب الدولة في چناق قلعة، في سبيل الحفاظ على شرف الأمة. كانوا يتلقون بصدورهم طلقات المدافع التي أمطرتهم بها مدرعات الأعداء، بينما يردون عليها بطلقات أشبه بكرات مطاطية، ولكن للأسف لم تثمر هذه الروح، ولم تؤتِ بنتيجة، فقد سال الدم التركي من (جاليجيا) حتى صار بعمق نهر دجلة، وارتوت الأرض به.

وكيف أصبح الحال بعد ما حدث في هذه الجبهة؟

صارت الفتائل الجافة التى تنثر شرارات الهباب بدلا من الضوء، في لمبات الإضاءة في الدولة، بديلاً عن الغاز ... ولم نجد احتياجاتنا من السكر، واستعضنا عنه ببضعة حبات جافة من العنب. وصار الأطفال جلد على عظم، وصار لون جلدهم أصفر من سوء التغذية ... وبدلاً من الخبز الخاص النقى، صرنا نأكل خبز الصامون الأسود، الناشف مثل الحجر، المصنوع من الذرة الصفراء والنخالة ...

هناك روائي عجوز لايزال يحيا حتى اليوم يستخدم هذا التعبير للتحقير عندما يتحدث عن زماننا، من أجل توضيح حالة الطفولة في ذلك الزمان، والضعف الذي أصاب جيلنا الذي عايش تلك الأيام فيقول:

---

[465] - أسس السلطان محمود الثاني بعد إلغائه الفيالق الإنكشارية، جيشاً جديداً وفق النظم الأوروبية الحديثة، وأطلق عليه اسم "جيش العساكر المحمدية المنصورة". كان هذا الجيش هو حجر الأساس في تشكيل الجيش التركي الحديث. انظر طارق عبد الجليل السيد، "دور المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية في تركيا المعاصرة على ضوء المصادر التركية"،مرجع سبق ذكره، ص 29

[466] سرفانتس" (1547 – 1616). وتقع " - "دون كيشوته دي لامانتشا": هو عمل روائي ملحمي للكاتب الإسباني في جزأين. وهى تعبّر عن أزمة الفرد الذي لا يتكيف مع التغيير في زمن التحولات. ويسخر سرفانتس في روايته هذه من أفكار الفروسية، ويهاجم الروايات المفرطة في الخيال. وملخص الرواية أن دون كيشوته – بطل الرواية- رجل من الريف، أفسدت ذهنه روايات الفروسية التي كان يقرؤها، فقرر أن يمتطي جواده بصحبه أحد الفلاحين، كخادماً له، ويذهب باحثاً عن أعمال البطولة والفروسية. وأول المعارك التي سعى هذا الفارس الوهمي إلى خوضها، كانت ضد طواحين الهواء. فقد توهم أن هذه الطواحين التي لم يشاهد مثلها من قبل، شياطين ذات أذرع هائلة. وتصور إنها مصدر الشر في الدنيا، فهاجمها غير مصغ إلى صراخ تابعه وتحذيره. ورشق فيها رمحه فرفعته أذرعها في الفضاء، ودارت به، ورمته أرضاً، فكسرت عظامه. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 822- 823

"ـ جيل خبز الصامون!"

بيد أن هذا التعبير، إذا كان ملائماً لوصف أوضاع تلك الفترة، فهو لا يلائم وصف جيلنا، فهو هنا بعيد عن الحقيقة. فجيلنا كان جيل الاضطراب والخوف والهلع. فقد وُضع في موقع المحاسبة، لجيل فاسد العقل سبقه، والتقدير الجيد، لفجيعة جيل طيب الروح أمامه. وسوف نجد فيما قاله وحيد الدين للمقربين منه مدى الإحساس بالاضطراب والدهشة التي استولت عليه طيلة الحرب الكبيرة، والأحداث التي نجمت عنها. وكيف عاش في مدينة (سان ريمو) في إيطاليا منكسراً أشد الانكسار، بعد ضياع الوطن العزيز، وضياع كل شئ.

وأمام قصر أسير لدى رؤساء الجمعية، وجياع مناظرهم مؤلمة للعين، وألم أمة مريضة يدمي القلوب، وكارثة أسوأ من الموت، لم يستطع ولي العهد أن يفعل أي شئ تجاه ذلك ... فكأنما صبت بداخله دماء الجميع ... وفي المراسم أو أيام التمثيل الرسمي، كان عليه ارتداء زيه الفخم، والظهور بوجه جامد خلو من أي تعبير.

وكانت تُسند إليه مهام مثل، مهمة تمثيل تركيا في جنازة إمبراطور النمسا والمجر.

وبعد ذلك يتعرف وحيد الدين في أخر أيام الحرب الكبيرة على مصطفى كمال باشا[467] الذى سيعينه ياوراً له فيما بعد، ثم يرسله شخصياً إلى الأناضول حيث يلعب أكبر دور مؤثر في حياته.

باع مصطفى كمال لصاحبه جمال باشا، قائد الجيش الرابع، حصان ومجموعة أفراس بـ 2000 قطعة ذهب، وقام جمال باشا بعد ذلك ببيعهم بسعر أعلى، فأعطى

---

[467] - ولد مصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الجمهورية التركية الحديثة، في سلانيك عام 1881. وهو من عائلة تركية متواضعة، أبوه موظف حكومي اسمه علي رضا، وأمه هى زبيدة هانم، وقد فقد أباه وهولايزال طالباً في المدرسة الابتدائية، فرحلت به أمه من سلانيك ثم عادت به بعد أن أتم دراسته الابتدائية. وكان يتلقى الدروس في اللغة الفرنسية في العطلات المدرسية، على يد رئيس دير فرنسي.

دخل المدرسة العسكرية الثانوية وأصبح ضابطاً في الجيش العثماني. وفي هذه المدرسة أُعجب به أحد أساتذة الرياضيات لمهارته في تلك المادة، فاقترح على تلميذه أن يسميه باسمه مصطفى كمال. التحق مصطفى كمال بالمدرسة الحربية العليا في مناستر، ثم بالأكاديمية الحربية في استانبول حيث ظهرت اهتماماته السياسية. تأثر بأفكار الشاعر نامق كمال، وقرأ العديد من الكتب عن الثورة الفرنسية، وكان معجباُ بنابليون. تخرج من الأكاديمية الحربية، ثم دخل كلية الأركان وتخرج برتبة نقيب، ثم عُين في سلاح الفرسان المرابط في دمشق. رُقي إلى رتبة رائد، وعُهد إليه بالدفاع عن شبه جزيرة غاليبولي أثناء حرب البلقان في عام 1910، ثم أُرسل في نفس العام إلى صوفيا كملحق عسكري حيث تأثر بالحضارة الغربية. رُقي إلى رتبة مقدم، وبعد نشوب الحرب الأولى، عُين قائداً للفرقة التاسعة عشرة في "چناق قلعة" حيث هزم الإنجليز مرتين، ورُقِّي إلى رتبة عقيد في عام 1915، ثم إلى عميد أثناء خدمته في الجبهة الشرقية. رافق الأمير وحيد الدين فى زيارة رسمية إلى المانيا.

بعد عودته من رحلة ألمانيا تعرض للمرض، ثم ذهب إلى فيينا للعلاج، ثم إلى كارلسباد (كارلوفي فاري في تشيكوسلوفاكيا. عُين قائداً لأحد الجيوش في فلسطين، وبعد عودته من الجبهة، أرسله السلطان وحيد الدين إلى الأناضول لتشكيل القوات الملية أو الشعبية لإنقاذ الدولة العثمانية من يد الحلفاء. حارب اليونانيين وانتصر عليهم في معركة صقاريا خلال حرب الاستقلال، ثم انقلب على السلطان وحيد الدين، وعزله من عرشة، وألغى السلطنة، وأسند اختصاصاتها إلى مجلس الشعب التركي الكبير، وذلك حتى يتمكن من الاشتراك في مؤتمر لوزان الذي تمت فيه تصفيه الدولة العثمانية عام 1922. أعلن الجمهورية التركية عام 1923، ثم ألغى الخلافة الإسلامية في مارس 1924. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص 26 ،27

مصطفى كمال 3000 ليرة، فعاد من سوريا، واستقر في حجرة في فندق (بيرابالاس) في (باي أوغلي). (كمال أتاتورك وتاريخ الحرب القومية ص 179).

وفي هذا الأثر نعرف سبب، وشكل التعارف بين وحيد الدين ومصطفى كمال، من كلام مصطفى كمال باشا نفسه، حيث يقول:

"ـ أقمت في غرفة بفندق (بيرابالاس) في استانبول. كنت يائساً أفكر مثل أي شخص، مقتنعاً بأن كل شئ انتهى. لكنني كرجل عسكري، كنت أواسي نفسي بأن كل شئ يمكن إنقاذه."

سوف نفهم من هذه الكلمات التي قالها مصطفى كمال باشا نفسه، أنه في النهاية وفجأة، توصل إلى الأمل الذي أوضحه، دون أن يشير إلى من بعثه فيه، برغم مواساة نفسه، واقتناعه في البداية بأن كل شئ انتهى...

وكان يقول دائماً:

"بينما كنت في هذه الحالة النفسية استدعاني أنور باشا، بصفته وكيل السلطان، وكان موجوداً في غرفة المراجعة ... ثم قال لي بنفسه شفاهةً ما يلي:

ـ إن إمبراطور ألمانيا دعى الذات السلطانية إلى مقر القيادة العامة. ولأن الذات السلطانية لن يسافر، فكرنا أن يسافر حضرة ولي العهد نيابة عنه... فهل تقبل أن تكون برفقته؟

وافقت في الحال على العرض، لأنني رأيت أنه أمرمسلي أن أكون برفقة هذا الشخص. وتم عمل الترتيبات اللازمة، وبعد يومين أوثلاثة تقرر سفري مع وحيد الدين وركوب القطار يوم الخميس. وقيل لي مايلي:

"ـ قبل السفر لابد وأن تتعرف على حضرة ولي العهد!"

كان ناجى باشا في ذلك الوقت قائد فيلق، وكان قد قام بتدريس مادة التربية العسكرية لي في المدرسة الحربية، وأظن أنه كان مناسباً وجود الأميرألاي ناجي بك مع وحيد الدين."

وبعد هذا الكلام يروي مصطفى كمال باشا، انطباعاته عن اللقاء الأول بينه، وبين وحيد الدين. في رأيه أن ولي العهد وحيد الدين أفندي إنسان يثير الضحك، ويستحق الشفقة.

"ذات يوم ذهبنا إلى قصر وحيد الدين قبل السفر. أدخلونا إلى غرفة من باب مفتوح على صالون داخل القصر، مفروشة بحصير عربي. كانت الحجرة مليئة برجال يرتدون (الردينجوت) أي ملابس رسمية، وأثاثها عبارة عن كنبة، وعلى جانبيها كراسي كبيرة. وبينما نقف في الغرفة ومعنا الرجال الذين يرتدون الردينجوت، والذين يبدو عليهم عدم المبالاة، انضم إليهم رجلاً آخر يرتدي ردينجوت مختلف. لم ندرك من هذا الذي جاء، ولماذا جاء، وما لزوم مجيئه؟ دخل الغرفة، ونظر تجاهنا، وجلس في الركن الأيمن للكنبة، وجلست أنا على الكرسي المواجه له. وجلس ناجي باشا على الكرسي المواجه. أغلق هذا الشخص عينيه، وسحب تنهيدة طويلة، ثم فتح عينيه، وتفضل بالالتفات إلينا، وقال:

ـ تشرفت بكم. أنا ممنون!
ثم أغلق عينيه مرة أخرى، دون أن ينتظر ردنا على تحيته، فأدركت أنني موجود مع شخصية لا إحساس لديها، ولا شعور. وشعرت بالحيرة، تُرى هل أرد على التحية أم لا. ونظرت إلى وجه ناجى باشا، كان هو أيضا ساكناً. ففضلت الانتظار، وفهمت أنه ليست لديه القدرة على الكلام على نحو متواصل. ثم فتح عينيه بعد قليل، وقال:
ـ سوف نسافر، أليس كذلك؟
شعرت بضيق شديد، وأحسست بالعذاب، وقلت:
ـ نعم سنسافر!
اعترف أنني أحسست كما لو أنني أجلس مع شخص أبله، لكن منعت نفسي من الخوض في هذا. فنهضت من فوري وقلت:
ـ سوف أسافر مع حضرتكم، والسفر سيكون بعد يومين. وستكون حضرتكم في المحطة مساء يوم الخميس، وسنتحرك من هناك.
ودعناه وخرجنا. وركبنا العربة التي خصصها لنا القصر. ودار هذا الحديث بيني وبين ناجى باشا:
ـ مسكين، سيء الحظ، يستحق الشفقة... ماذا يمكنه أن يفعل؟
ـ ماذا تقصد!
ـ هذا المسكين سيصبح غداً سلطاناً، فماذا يمكن أن ننتظر منه؟
ـ لا شيء ...
ـ نحن الذين لدينا عقلنا، ومنطقنا، نحن الذين نفهم مقدرات بلدنا وحالها ومستقبلها، ماذا نستطيع نحن أن نفعل؟
قال ناجى باشا:
ـ القوة!..."
يستمر مصطفى كمال باشا، في الحديث عن الرحلة التي قطعها إلى ألمانيا برفقة ولي العهد وحيد الدين أفندي، فيقول:
"ـ ذهبت إلى المحطة مساء يوم الخميس، وكنت قد أخبرت الرجال المحيطين بوحيد الدين قبل السفر، أن الرحلة ستكون عبارة عن رحلة عسكرية. ولذلك يلزم أن يرتدي ولي العهد، ملابس رسمية عسكرية فخمة. عندما ذهبت إلى المحطة رأيت وحيد الدين مرتدياً ملابس مدنية. كان هناك رجل يُدعى إحسان بك، كان يعمل لدى ولي العهد كمسئول عن البروتوكول. قلت له:
ـ كنت قد أبلغتكم بضرورة ارتداء ولي العهد الزي العسكري الرسمي، أليس كذلك؟
فرد قائلاً بكل غرور:
ـ وأنت من تكون؟
قلت:
ـ لامجال لتعريفكم من أكون، لكنني أسأل فقط: ألم أقل لكم إنه لابد وأن يرتدي ولي العهد الزي الرسمي. فهل أخبرته، أم لم تفعل؟

وقلت هذا الكلام بشيء من الغلظة. فاضطر إلى أن يرد قائلاً:

ـ فلتأذن لي أن أوضح لكم... كان ولي العهد يعرف أنه سيرتدي ملابس برتبة فريق، فلما جاءوا له بملابس برتبة لواء، غضب، وقال: طالما نزعوا مني الرتبة الأولى، فلا أهبط إلى الرتبة الثانية. ولهذا السبب رجح وحيد الدين - الذي لم يكن جديراً بأي رتبة- أن يأتي إلى المحطة مرتدياً ملابس مدنية. فرأيت أنه لا داعي لأن انشغل أكثر من ذلك بالحديث مع هذا المدعو إحسان بك. وجاء القطار، ووقف في انتظار ركوبنا. كانت هناك مفرزة عسكرية من ضباط الصف تقف منتظرة توديع ولي العهد، اقتربت من ولي العهد، وكان بجانبه أنور باشا، نائب القائد العام، وقلت: هؤلاء الجند جاءوا من أجل توديع حضرتكم. فلتقوموا بتحيتهم!

نظر وحيد الدين إلى وجهي، وكأنما بهذه النظرة يريد أن يقول:

ـ كيف؟

أشرت بقولي:

ـ حضرتكم تسيرون، وسوف نأتي خلفكم.

فمر وحيد الدين من أمام الجنود رافعاً يديه، وأخذ يلقي عليهم التحية بطريقة غير طبيعية. ثم عاد وركبنا القطار. وفتحت نوافذ الصالون الذي جلسنا فيه بداخل القطار، وعندما تحرك القطار قلت لوحيد الدين:

ـ فلتقوموا بتحية الجنود والأهالي الذين يودعونكم خارج القطار! فقال:

وهل هذا ضروري؟

قلت:

ـ نعم ضروري!

كان وحيد الدين منقاداً لي، ومطيعاً. غادر القطار استانبول، وذهب وحيد الدين بعد ذلك إلى صالون آخر في القطار، أُعد له خلف الصالون الذي كنت أجلس فيه معه. وأصبح هذا الصالون الذي غادره لي وحدي، والمفروض أنني سأنام فيه، لكنني رأيت في أنحاء الصالون، أكواماً من الحقائب والسلال وغيرها. وكنت قبل السفر قد أخبرت شخصاً اسمه رفيق بك، وهو من المقربين جداً لوحيد الدين بما يلي:

ـ إنني أريد أن أكون بالقرب من وحيد الدين، وأريد منك أن تطلعه على ذلك.

وعدني هذا الرجل بذلك، ثم عمل الترتيب التالي: وضع بالقرب من وحيد الدين، جميع الرجال المقربين له، وبقى لي هذا الصالون الذي أتحدث عنه ... فقلت له:

ـ لماذا فعلت هذا؟

فأجابني بهذا الرد الجميل:

ـ إن أفندينا يريد أن يكون بجانبه جميع رجاله المقربين، وهو بهذا قد يتسبب في إزعاجكم. ولهذا السبب رجحت أن تبقى أنت في مكان آخر، متصل بقاطرته."

وهنا، وفجأة، يصل مصطفى كمال إلى هذا التصور:

ـ لقد وجدت كلام رفيق بك معقول. نعم يلزم أن يكون بجانب وحيد الدين جميع جواسيسه، ورفيق بك هذا على رأس هؤلاء الجواسيس!"

ويروي مصطفى كمال باشا عن رحلته قائلاً:
"ابتعد قطارنا كثيراً عن استانبول، وتقدمنا نحو أرض (تراقيا). وجاءني شخصاً قال لى:
ـ إن أفندينا يدعوكم إلى صالونه. أسعدتني هذه الدعوة. فقد كان هذا يعني أنه قد أُنعم علي بأول فرصة للاقتراب من سلطان الغد. عندما دخلت على وحيد الدين في صالونه وجدته واقفاً، كان ينتظرني. ثم جلس وأشار إلى المكان الذي علي أن أجلس فيه. وجدته هذه المرة مختلفاً تماماً عن الشخص الذي قابلته في القصر، كان في القصر يتحدث وهو مغلق العينين معظم الوقت. بالعكس هذه المرة، كانت عيونه مفتوحة، وكان ينظر إلي متفحصاً إياي بكل دقة. ثم قال وكأنه يلقي خطبة أو بيان:
ـ عفواً حضرة الباشا، إنهم لم يوضحوا لي من هذا الشخص الذي أسافر معه سوى من عدة دقائق،وقد فهمت أنني موجود مع قائدنا الذي أقدره، وعرفت عنك الكثير بعد المعلومات التي حصلت عليها بعد تحرك القطار. إنني أعرفك جيداً، فما قمتم به في (أري بورن) و (أنافارتا) والانتصارات التي حققتها كلها معروفة تماماً. إنك قائدنا الذي أنقذ استانبول وكل شيء، إنني سعيد وفخور جداً بسفري معك.
كان وحيد الدين يقول هذا الكلام بثقل وصعوبة، لكن بشكل منتظم. احترت، واندهشت، وأجبت بالرد اللازم. وصارت بيننا صداقة رائعة، جادة، وصادقة."
وكلمات مصطفى كمال باشا هذه التي تُعبر عن اللقاء الأول، واتصاله وتعارفه بوحيد الدين، وتدل على ما كان في فكره وروحه تجاهه، ليست في حاجة لمزيد من الإيضاح، فهى واضحة في حد ذاتها.
وفيما يلي كلام مصطفى كمال باشا، بأسلوبه وتصوره الخاص:
"اعتبرت هذا اللقاء كافٍ من أجل تلك الليلة. استأذنت قائلاً: إنني لا أريد أن أقلق راحتكم أكثر من ذلك. وعندما عدت إلى الصالون الخاص بي شعرت بالانشراح. كنت أفكر في أن هذا الشخص لابد وأن يكون شخصاً عاقلاً. عندما قابلته لأول مرة في استانبول بدا ولي عهد غريب الأطوار، تحت تأثير شروط وأسباب تسهيل لقائنا، في رأي العارفين ببواطن الأمور في هذا الزمان، لكن بعد أن غادر استانبول شعر بالتحرر تماماً. وعندما فهم أنه يتحدث مع رجل من الرجال الذين يُعتد بهم، لم يجد مانعاً في أن يبدي شخصيته الحقيقية... ولهذا تمكنت أن أطلعه على الأحوال والأمور الضرورية، وأصبح في مقدوري، في رأيه، أن أبدأ نشاطي مرتكزاً على بعض الأسس فتفاءلت.
وتمر أيام الرحلة الواحد تلو الآخر، وكنا نلتقي كل يوم لقاءات طويلة حيناً وقصيرة حيناً آخر. واقتنعت حينئذ أنه يمكن عمل بعض الأشياء مع هذا الرجل، بشرط إظهار الود والتقرب منه وتنويره. وأعربت عن وجهة نظري هذه لأشخاص مثل ناجي باشا وأخرون. وأشرت إلى ضرورة إعداد ولي العهد للقيام بمهمة تستهدف مصلحة الدولة. واستمرت رحلتنا في لقاءات من هذا النوع الذي بين الأصدقاء."
وهنا نجد مصطفى كمال باشا قد غير من رأيه القديم، وأصبح وحيد الدين الذي كان يقول عنة "المسكين المستحق للشفقة"، في رأيه مصدر الأمل الواعد.

ولنستمر في الاستماع إلى مصطفى كمال باشا:

"ـ ذهبنا إلى المدينة الصغيرة التي توجد بها المقر الرئيسي للقيادة الألمانية. ألقينا التحية على حشد ألماني مهيب، يقف منتظماً أمام مدخل مقر الإمبراطور، وكان يشترك في استقبالنا في صحن المدخل القيصر بنفسه. ومن المدخل دخلنا إلى ردهة كبيرة. كان هناك الإمبراطور و(هيندنبرج)[468] و(لودندورف)[469] وجميع أركان القيادة وضباطها، كلهم كانوا في استقبال وحيد الدين ومن برفقته. وبعد أن صافح القيصر ولي العهد، تحدث حديثاً ذو دلالة مع ناجي باشا الذي قال لوحيد الدين:

ـ لابد وأن تقدموا من برفقتكم إلى الإمبراطور.

فقدمني ولي العهد إلى الإمبراطور. كان الإمبراطور يضع إحدى يديه بين الأزرار التي في سترته، وباليد الأخرى أمسك بيدي، وقال بصوت عالي، وباللغة الألمانية:

ـ الفرقة السادسة عشر... أنافارتا...

التفت الجميع ناحيتي عند سماع كلام الإمبراطور. فنظرت أمامي وأنا أشعر بالخجل قليلاً، لأنني لم أفهم ماذا يريد مني فعله بالضبط. وعندما وجدني الإمبراطور خجولاً ومتواضعاً تشكك، وظن أنه أخطأ وسألني قائلاً:

آلست أنت مصطفى كمال قائد الفرقة السادسة عشرة، وقائد معارك أنافارتا؟

قلت:

ـ نعم يا صاحب السمو.

عندما خرجت هذه الكلمات من فمي، فهمت في الحال أنني أخطأت.

كان لابد وأن أقول، ياسيدي أو يا جناب الإمبراطور. كانت ذلة لسان. فكثيراً ما يتسبب الإنسان في المشاكل بسبب الأشياء التي تعود لسانه على قولها. إنني فعلت نفس الخطأ عندما قابلت ملك بلغاريا (فرديناند) لأول مرة."

وبعد هذا يقول مصطفى كمال، إن إقامته في مقر القيادة العامة الألمانية كانت جميلة ومريحة، وإن ولي العهد قام ببعض الزيارات اللازمة، ومنها الزيارات التي قام بها إلى (هيندنبرج) و(لودندورف) حيث يتحدث عنها بقوله:

---

468 - بول فون هيندنبرج (1847- 1934): عسكري وسياسي ألماني، كان القائد العسكري لألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918م). هزم الجيش الروسي في معركة تاننبرج عام 1914 بمعاونة لودندورف رئيس أركان حربه، واحتل بولندا. أُنتخب رئيساً لألمانيا منذ عام 1925 وحتى وفاته. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 1905

469 - إريك فريدريك ويليام لودندورف (1865 - 1937): هو ضابط في الجيش الألماني، وصانع النصر في معركة لياج، وهي عملية غزو بلجيكا، وكانت أول عملية عسكرية في الحرب العالمية الأولى. قاد مع الجنرال بول فون هيندنبرج معركة تاننبرج ضد القوات الروسية في الأيام الأولى للحرب. في أغسطس 1916 عُين رئيس هيئة أركان حرب القائد هيندنبرج، وبدأ بإدارة دفة الحرب، حتى استقالته في اكتوبر 1918. وبعد الحرب اشترك في الحركات الوطنية، وخاصة في "الزحف من قاعة البيرة" الذي قام به هتلر في ميونيخ عام 1923. أسس مع زوجته الثانية مذهباً دينياً لتمجيد الجنس الآري. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 1574

"كان مكتب هيندنبرج الضخم، صغير جداً. كان المارشال يجلس على رأس المائدة ... ووحيد الدين يجلس على كرسي كبير على يسار المائدة، وبجانب وحيد الدين يجلس ناجي باشا، وكان بمثابة المتحدث عن وحيد الدين"... أما مصطفى كمال، فكان يجلس على كرسي على يمين (هيندنبرج)...

وداخل هذا الديكور الذي رسمه مصطفى كمال باشا شخصياً، كان ولي العهد وحيد الدين أفندي، سيء الحظ، يتحدث مع الرجل العسكري الكبير الذي وجه له الجيش الروسي الضربة القاضية. "ولما كان من غير المعتاد مناقشة أمور مهمة في لقاء قصير كهذا - أجرى بعد مراسم استقبال قصيرة- طمأن المارشال ولي العهد والأمة التركية من خلاله ببعض الكلمات، وشكره ولي العهد على ذلك."

لم ينشرح صدر مصطفى كمال لكلمات المارشال الألماني. فقد أصبح مقتنعاً أنه قد خسر الحرب، وما قاله بعد ذلك ليس سوى عبارات مواساة جافة، وكلام فارغ.

فهكذا يقول بنفسه:

"ـ كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن الكلام الذي سمعته من (هيندنبرج) ما هو إلا ختاماً موقراً، وإكراماً للضيف، وإنهاءً للقاء بطريقة مهذبة. وحتى لاأشعر باليأس من مدلول كلامه، رأيت أنه من غير المناسب الاشتراك في الحديث، بل بالعكس كنت أنتظر أن ينتهي اللقاء سريعاً، وهذا بالفعل ما حدث."

وبعد لقاء (هيندنبرج) يلتقون مع (لودندورف) رئيس الأركان العامة الألماني:

"استقبل(لودندورف) وحيد الدين بكل احترام. ويمكن أن يقال إنه هو أيضا حاول أن يقدم مواساته بخصوص الموضوعات المتعلقة بالمارشال، وخاصة أنه في هذه الأيام كان يبحث أمر شن هجوم كبير ضد جيوش الحلفاء في الجبهة الشمالية الغربية، ونحن كنا نعلم بأمر هذا هذا الهجوم. لكني كنت لا أستطيع أن أصبر، وأردت أن أسمع من لسان (لودندورف) النتيجة التي سيسفر عنها هذا الهجوم. ورأيت أن هدف الحديث ليس هذا... إنما الهدف كان عبارة عن الكلام عن هجوم للجيش الألماني يعمل على بعث الثقة، ورفع الروح المعنوية للشعب والجيش الألماني وحلفائه، وحتى أزيح شكي وجهت سؤالاً قصيراً للجنرال:

مامدى تقدم القوات بعد هذا الهجوم؟ وهنا توقف (لودندورف) عن مواصلة كلامه، واستعد بكل احترام للإجابة على السؤال الذي سألته، بوصفي أحد الضباط الموجودين برفقة ولي العهد، والذي سقط عليه كالصاعقة، وفكر قليلاً ثم نظر في وجهي قليلاً وقال:

ـ إننا نقوم بالهجوم، أما النتيجة فستحددها الوقائع.

قلت:

ـ أظن أنه لا لزوم لانتظار تجلي الحظ، والوقائع لفهم النتيجة التي سيسفر عنها الهجوم الذي سيُشن، لأن هذا الهجوم في النهاية هو هجوماً جزئياً.

فكرر (لودندورف) النظر في وجهي، وفهم جيداً ما أعنيه، فصمت ولم يجب، لا بالنفي ولا بالإثبات.

وتوقف الحديث هنا، واُختتمت الزيارة.

لقد قرأت ما يدور في رأس (لودندورف)، فقد فكر فيما قلته جيداً. فمن الطبيعي ألا يكون من حقي - لكوني زائراً مجهولاً بالنسبة له- في لقاء قصير، أن أطلب منه الإجابة على سؤال مهم جداً، فكانت إجابته على ذلك هو التوقف عن الكلام. لكنني لم أرد خلال حديثنا في هذه الزيارة مع شخص، هو ضابط كبير وأركان حرب معروف، أن أكتم فكرة طرأت على ذهني خلال تبادلنا الأفكار، ويمكن أن تُطرح."

وهكذا بعد لقاء اثنين من كبار الجيش الألماني، ونقد اللواء مصطفى كمال باشا لكلاهما، والاطلاع على الوضع المحرج للجيش الألماني الذي يستقبلهم، يقومون بزيارة الإمبراطور الألماني شخصياً في مقره:

"في داخل فندق اُتخذ كمقر قيادة للإمبراطورية، وفي الصالون الذي كنا ننتظر فيه قدوم الإمبراطور، تحدثت أنا وناجي باشا مع ولي العهد بشأن المسائل العامة والحيوية التي سوف نطرحها. كنت أحاول إثبات عدم منطقية فكرة الاعتماد على الجيش الألماني، واعتباره نائباً عن القيادة في الدولة، والاعتماد عليه في تحقيق النصر في نهاية الأمر. إن (لودندورف) ذكّرني خلال حديثه، وبعد السؤال القصير الذي وجهته له، بالمتوكلين الذين يدَعون كل شئ إلى الله. كنت أرغب كثيراً، وأسعى بشدة إلى أن يفهم سلطان الغد ماأقوله. لا أعرف لماذا، كنت أريد أن يكون هناك أمل في المحاولة. الواقع أن الإيضاحات التي قدمتها، كانت تقابلها إشارات من جانب ولي العهد تدل على تيقظه وتيقنه."

وهكذا يثبت بهذا الكلام الذي يخرج من فم مصطفى كمال باشا نفسه، أنه وولي عهد ذلك الزمان محمد وحيد الدين أفندي، كانا معاً ضد الاتحاديين، وأن أمله كله في هذا الموضوع يرتبط بوحيد الدين. وأن مصطفى كمال باشا قبل أي شيء، كان ميالاً لأقصى درجة، للتفاهم مع وحيد الدين.

ثم حان موعد لقاء جناب الإمبراطور "ويليام" ذلك العقرب الملتحي، بطل المدينة الفاضلة التي تحكم العالم كله...

"في تلك الأثناء علت الأصوات التي ملأت المكان الذي كنا نجلس فيه، وسمعنا ونحن في الصالون صوت يقول:

ـ جناب الإمبراطور، جناب الإمبراطور!

وفُتح الباب، وأعُلن عن قدوم الإمبراطور لزيارة ولي العهد. فأسرعنا لاستقبال الإمبراطور. دخل الإمبراطور إلى الصالون وجلسنا جميعاً. كان الإمبراطور يتحدث في الحقيقة بكل لطف عن أن الدولة العثمانية الصديقة الوفية أصبحت حليفاً مهماً لألمانيا، وعن أنور باشا، وكيل القائد العام الذي يفهم أهمية هذه الصداقة، ويسعى دائماً لتدعيمها، وعن أن القيادة الألمانية، وأركان حربيتها، تعتمد على هذا الشخص وتثق فيه ثقة كبيرة جداً. كنت أجلس على يمين وحيد الدين، وناجي باشا كان يجلس في مواجهتنا تماماً. وتم توجيه هذا السؤال على لسان ناجي باشا:

ـ إن صداقة تركيا لألمانيا، والكلام الرائع حول كوننا من أهم حلفاء ألمانيا، أثلج صدور الذين يفكرون في مستقبل الدولة العثمانية، لكن بصرف النظر عن مطالعة

الوضع العام، والخوض في ذلك، هناك نقطة أحتاج أن أفهمها بوضوح أكثر، إن الضربات التي تُوجه إلى تركيا مستمرة دون توقف. وإذا حالف هذه الضربات التوفيق، فسوف تُمحى تركيا من الوجود. وأنا لم أسمع في كلامكم، ما يفيد أن هذه الضربات سوف تتوقف. فأرجوا أن تتفضلوا بتنويرنا، وطمأنتنا في هذا الخصوص؟

وبسبب هذا السؤال نهض الإمبراطور في الحال من الكرسي الذي كان يجلس عليه، ثم قال الآتي:

ـ ولي عهد تركيا المحترم! إننى أرى أنه يوجد معكم من يشوش على ذهنكم. إنني أسألك بوصفي إمبراطور ألمانيا، هل بعد حديثنا عما سنفعله، لايزال لديكم شك أم لا ؟

وكان رد ولي العهد، الذي كنت أجلس بجانبه، بالإثبات، سبباً في توتره أكثر.

لم يجلس الإمبراطور على الكرسي الذي نهض من عليه، وأومأ بأدب بإنه سيتركنا. وسار نحو باب الصالون، وخرج وحيد الدين، ونحن من ورائه، من باب صالون الإمبراطور إلى الخارج. كان الإمبراطور سيمشي من الممر الذي يتجه نحو اليسار، فسلكت أنا الممر المعاكس، لأنني فهمت أنه غير راضياً عني، ووقفت بعيداً قليلاً. سلم الإمبراطور على ولي العهد، وعلى ناجي باشا الذي كان دائماً بالقرب منه، ونظر إلي وانا أقف بعيداً، وبدأ يسير في الممر الذى كان يتجه إلي، ولم يسلم علي. قلت لنفسي إن الإمبراطور لديه حق. فهل يصح أن يقف الإمبراطور على قدميه فترة طويلة حتى يسلم على جنرال من الموجودين في رفقة ولي العهد؟ ألم يكن من الضروري أن يسارع هذا الجنرال قليلاً حتى ينال شرف السلام على الإمبراطور؟ إننى أعترف بخطأي. لا أعرف لماذا تجمدت في مكاني شارد الذهن. لكن الإمبراطور بعد أن سار عدة خطوات، عاد مرة أخرى، واقترب مني وقال:

ـ أرجوا المعذرة، إنني لم أسلم عليك.

مددت يدي بكل أدب مظهراً اهتمامي بعلو منزلته."

والآن نستطيع أن نثبت الحقيقة الكبيرة من الكلام الذي سمعناه في عهد رئاسة الجمهورية، ومن مصطفى كمال باشا مباشراً. وبعد إثبات هذه الحقيقة من كلام مصطفى كمال باشا شخصياً في تلك الفترة، لا يصبح هناك مجال للادعاء بعكس ما قاله، وتصديق زعم أن وحيد الدين كان خائناً وعدواً للوطن.

إن كلام مصطفى كمال باشا يدل على أن وحيد الدين كان واحداً من الذين يحترقون بآلام الوطن. كما أن احتداده على الإمبراطور، وتفكيره في مستقبل الدولة العثمانية، وطلبه ضمانات من الإمبراطور في هذا الخصوص- مما جعل الإمبراطور يخرج غاضباً من الصالون- يظهره بمظهر من لا تأخذه أبهة التشريفات وصخبها بعيداً عن غرضه الأساسي.

ودائماً ما نسمع من فم مصطفى كمال باشا، عن رحلة ألمانيا بإنها كانت تتفق وأصولنا:

"تمت دعوتنا إلى مأدبة عشاء على مائدة الإمبراطور. كان يجلس أمام الإمبراطور أحد الأمراء وعلى يمينه جلس وحيد الدين، وعلى اليسار جلس المرحوم حقي باشا

سفيرنا في برلين في ذلك الوقت، وجلست أنا على يسار الأمير، وعلى يساري جلس (لودندورف). كان (لودندورف) يحاورني باللغة الفرنسية. قال الإمبراطور للودندورف باللغة الألمانية:

ـ تحدث مع الرجل الذى على يمينك.

فرد عليه لودندورف قائلاً:

إننى أفعل ذلك.

وطبيعي أنني استطعت فهم كلام الإمبراطور، ورد لودندورف عليه، لأنني أفهم قليلاً اللغة الألمانية. ثم كف لودندورف عن الكلام معي، بعد أن تعب من كثرة تحريك رأسه للالتفات إلي أثناء حواره معي، ولم يجد موضوعاً مهماً للحوار يستحق إشغالي به عن تناول الطعام.

انتهى الطعام. وكان هناك صالون آخر ملاصقاً لهذا الصالون، فذهب قسم منا من الذين حضروا المأدبة إلى هناك، كان هذا القسم يضم الإمبراطور وهيندنبرج ولودندورف وشخص أظن أنه كان رئيس وزراء ألمانيا، ومن جانبنا كان ولي العهد والمرحوم حقي باشا وأنا...

كان الإمبراطور يقف مع وحيد الدين في أحد أركان الصالون، ويتحدث إليه حديثاً ودياً خالصاً. وكنت أنا أقف خلفه مستنداً على الجدار المقوس الذي يفصل بين الصالونين في مواجهة شخصية رفيعة تبدو فاهمة كل الحقائق، ولكنه يتجنب الحديث عن كل ما يعرفه، إنه هيندنبرج! كنت أريد أن أتحدث معه:

في أثناء زيارتنا له كان المارشال يقول إنه لابد من إصلاح وضع سوريا، ولابد من إدخال فرقة سواري جديدة في الأيام الأخيرة إلى ميدان القتال. وماقاله هذا الرجل الكبير كان من ضمن محتوى التقرير الذي قدمه القادة الموجودين هناك بالطبع. في الحقيقة إن موضوع فرقة السواري هذا الذي يتحدث عنه، كنت قد طالبت به عندما كنت لاأزال قائداً للجيش الثاني، إذ طالبت بإرسال هذه الفرقة إلى مجموعة يلدريم (الصاعقة) من أجل تدعيمها. وقبل أن أصبح قائداً للجيش السابع، قمت بتشكيل فرقة السواري هذه، ولما لم يكن هناك مكان يكفي لهذه القوة السيارة التي يمكن جمعها، أصبح لابد من تربية الحيوانات (الخيول) الصغيرة في المراعي التي بجوار (رسولاين)، ثم بعد أن تصبح في حالة يمكن الاستفادة منها، نفحصها من جديد لإرسالها... وبعد عدة شهور من بقائي قائداً للجيش السابع، بحثت هل يمكن الاستفادة من هذه الفرقة أم لا، فجاءني تقريراً جاداً يفيد أن هذه الفرقة لا تصلح. وذلك الذي سمعته من فم هيندنبرج في مقر القيادة الألمانية هو، أن هذه الفرقة دخلت إلى ميدان الحرب، وأُصلح الوضع. فرويت للمارشال حكاية ما جرى بأمر هذه الفرقة وقلت له:

ـ أحب أن أقول لكم إنكم لم تأخذوا بمحتويات التقارير التي أُرسلت لكم... لكن أريد أن أقرر لك إنها الحقيقة فعلاً. إن الفرقة لم تُصلح من وضع سوريا. لا بد وأن تعرفوا ذلك. ثم أيها المارشال إنكم ستشنون هجوماً مهماً، ولا أظن أنه سيكون مرتبطاً كثيراً بهذه الفرقة، لكن هلا قلت لي ما الهدف الذي تهدفون إليه؟"

وهنا يؤكد مصطفى كمال باشا شخصياً، أن الوضع الذي يستفسر عنه بهذا السؤال كان صعباً:

"هل يستطيع رجل عسكري كبير، ودقيق مثله أن يجيب على سؤالي هذا؟ كان يجب ألا أنتظر منه ذلك. ربما كان سؤالي هذا عدم إكتراث مني، ولعله كان من تأثير الشمبانيا الجيدة التي قُدمت إلينا في مأدبة حضرة جناب الإمبراطور.

بدا المارشال أنه يستمع جيداً لما أقوله. لكنه أجاب إجابة بسيطة جداً ولطيفة جداً، إذ أشار إلى مائدة صغيرة في وسط الصالون يوجد عليها مختلف أنواع السجائر، وقال:

ـ ألا تتفضل سيجارة يا إكسلانس؟

ولم يجب هيندنبرج بأية إجابة أخرى. فذهبنا إلى المائدة التي في وسط الصالون وأعطاني بيده سيجارة.

أما الإمبراطور الذي كان يتحدث مع وحيد الدين، فقد لحق بنا، وكان مهتماً بمعرفة ما كان يدور بيننا من حوار، وسأل المارشال باللغة الألمانية:

ـ ماذا كان يقول؟

فأجاب المارشال قائلاً:

ـ ثمة أشياء!

بعد أن أشعلت سيجارتي تركت هيندنبرج. وذهبت إلى جانب وحيد الدين الذي كان يتحدث مع الإمبراطور وقلت:

ـ هل فهمت الحقيقة؟ إنكم كنتم تتحدثون مع إمبراطور ألمانيا. هل قال كلمة واحدة توضح ما يقلقنا بشأن ما تحدثت فيه معك؟

قال:

ـ لآ!

قلت:

ـ استمر في حديثك معه، وتحدث معه بجدية! ولا تتردد في الحديث مع الإمبراطور حول كل ما يقلقنا! وأنا متأكد إنه لن يرضى عن ذلك. لكن إن لم تفعل ذلك فسيعتقد أن ما من أحد في تركيا يفهم الحقيقة.

فقال ولي العهد بإسلوب برئ:

ـ سأفعل هذا!"

يبدو من تصرفات ولي العهد محمد وحيد الدين أفندي في رحلة ألمانيا، إنه كان يشعر أن تركيا ستخسر الحرب على يد الاتحاديين بسبب وقوفها في صف ألمانيا، كما يبدو أن مصطفى كمال مشترك معه في وجهة النظر تلك، وإنهما قد اتفقا على أداء هذه التصرفات ، وبهذا يتضح سبب الجرأة والجسارة التي بلا حدود عند مصطفى كمال باشا ولم نجدها لدى ولي العهد...

بعد هذه الزيارات يبقى عمل زيارة للجبهة الغربية. دُعى وحيد الدين أفندي، والوفد العسكري الكبير الذي برفقته، إلى خط النار في الجبهة الغربية بناءً على طلبهم. كان هناك أحد القادة الكبار في الجبهة، في أحد مقار القيادة، يقوم بشرح الوضع إلى ولي عهد

تركيا ومن معه، على خريطة وبصورة نظرية. هذا الشرح كان - بتعبير مصطفى كمال باشا- يسير في إطار كلمات "جميلة وبراقة". وفي ذلك الوقت يعود وحيد الدين أفندي إلى مصطفى كمال باشا ويسأل، ماذا ترون؟ فيقول له:

"ـ عليكم إبداء رغبتكم في رؤية المكان الذي يبدو على الخريطة!"

ويحدث هذا. ويذهبون مباشرة إلى خط النار. وهناك يلتقون بكبار القادة. وكان قد خُطط من قبل الأماكن التي ستعرض على الوفد التركي، وكيف سيصلون إلى هناك، ومن أين... يقول مصطفى كمال الذي رأى الخطة:

"أوضح لنا قائد كبير في الجبهة الوضع بصفة عامة وقال: إن هذه الساحة التي عليها الشرح، هى جبهة القتال التي نحن بداخلها. فقلت أستأذنكم بأن نترك هذه الخطة جانباً، ولنذهب لرؤية الأماكن التي سأشير إليها!"

ويحدث في تلك الأثناء هرج ومرج، ويأخذون ولي العهد إلى مكان آخر وفقاً للخطة الجاهزة، وليس إلى الساحة التي يريد مشاهدتها.

يقول مصطفى كمال باشا:

"إنني لدي عناد الجندي. فلم أتبعهم، لم أحب الاعتماد على دلالة خريطة أمامي بل سرت إلى مكان ما في خط النار، وجئت إلى شجرة خلف خط النار. كان هناك ضابط شاب يقف فوق الشجرة حيث كان يقوم بأعمال المراقبة. وكان معي الضباط الألمان الذين كانوا يرافقوننا، نزل الضابط الذي كان يقوم بأعمال المراقبة من الشجرة وروى لنا ما رآه.

ـ فقلت ألا أذنتم لي أن أصعد الشجرة.

قالوا:

ـ على الرحب والسعة!...

صعدت الشجرة ورأيت نفس ما رآه الضابط. لكن كان لابد من بحث الموضوع الأصلي، فأمام هذا الوضع كان هناك وضع آخر. ومن أجل هذا سألت:

ـ من فضلك هل تفضلتم بإيفادي بمدى استعداد تلك القوة التي تواجة العدو؟

فقال الضباط والقادة الذين يقفون عند خط النار الحقيقة لقائد تركي حليف لهم. وهاهى الحقيقة: إن قوات المشاة أصبحت غير كافية... ولذلك بحثوا عن قوة يمكن استخدامها كقوة مشاة، ففكروا في قوة الخيالة. وبعد تدعيم الخط الأول بهذه القوة، أصبحت الذخيرة غير مناسبة، سواء من ناحية الكم أو الكيف. بعد حصولي على هذه المعلومات شعرت بالحيرة ، وقلت لهم بدون خوف، وبكل جرأة:

ـ إنكم هكذا معرضون للخطر!

ـ هكذا الأمر، مالعمل! ..."

وهنا نجد مصطفى كمال باشا الذي أوضح لنا الموقف بلسانه، يتحقق بعد مشاهدة قصيرة من ضعف الجيش الألماني، ووجد في نفسه الثقة ليوضح لقادته حقيقة وضعهم.

ويستمر في كلامه على هذا النحو:

" تبعني أحد قادة الفرق الذى أمره الإمبراطور برفقة وحيد الدين عند مغادرتنا مقر قيادة خط النار. أبدى هذا الشخص منذ تلاقينا منذ أيام إهتماماً بي. ذهبنا بالخيل حتى المكان الذى سنركب منه العربات. اقترب مني قائد الفرقة الألمانية، وسألني:

ـ هل أنت ياور ولي العهد؟

ـ لا!

ـ إذاً بأي صفة ترافقه؟

ـ أُمرت أن أقوم بهذه المهمة...

ـ إنكم تعرفون كثيراً عن الوضع العسكري!

ـ هل توليت قيادة أي قوة فى تركيا؟

أجبت بالإثبات .

ـ تبدو كأنك قائد فرقة!"

بعد ذلك، وأمام نظرة الحيرة لقائد الفرقة الـ 60، يخبره مصطفى كمال باشا الذي عمره 38 عاماً أنه قائد الجيش، متخطياً بذلك اللواء والفرقة والفيلق، وعند ذلك يكون رد فعل الجنرال الألماني كالآتي، ونقلاً عن مصطفى كمال:

"ـ أرجو المعذرة، إننا حتى الآن نخاطبكم على نحو غير صحيح. يعني كان لابد وأن نخاطبكم بـ إكسلانس!"

إن صورة رحلة وحيد الدين لألمانيا التي نقلناها دائماً بأسلوب ولسان مصطفى كمال باشا، وخاصة إذا تصورنا المكان والزمان الذي يحكي فيه وهو (عهد الجمهورية الذي نُظر فيه إلى وحيد الدين بإنه خائن الوطن) نجد أنه لم يقل أي كلمة تسيء إلى ولي العهد، بل رأيناه كيف يمثل وطنه في ألمانيا بكل وقار وهيبة.

وهاهو مثال يوضح هذا:

ذات ليلة تمت دعوتهم إلى منزل حاكم (الألزاس). جلس الحاكم مع وحيد الدين في صالون جميل، واسع على مائدة، وجهاً لوجه... وبينما كان مصطفى كمال - بتعبيره- يقول: "كنت أتجول بالصالون وأتفحص ما به من أشياء"... يدعوه وحيد الدين للجلوس على المائدة، ويقول له:

ـ سألني الحاكم بعض الأسئلة، وأنا أجبته. لكنني أريد منك أن تؤكد له إجاباتي... فقد قلت له بصحبتي قائداً يعرف وطنه جيداً. وأردت أن تسمع أنت هذا أيضا.

لنعطي الكلمة مرة أخرى إلى مصطفى كمال باشا:

"سألت ولي العهد عن الموضوع الذي كانوا يتحدثون فيه:

قال:

ـ الأرمن!...

قال ناجي باشا، إن الحاكم الألماني كان يتحدث بحسن نية مع ولي العهد عن التجاوزات التركية ضد الأرمن، ويقول إنهم لايستحقون هذا... إن هذا الحاكم عالي المقام ألماني، وألمانيا دولة صديقة وحليفة، وهو يتحدث مع سلطان تركيا القادم، ونحن ضيوف عنده. وعندما فهمت أنه يتحدث في هذا الموضوع احترت. فقلت له:

ـ إن هذا القائد يعرف الموضوع الذي تتحدث عنه سيادتك جيداً.
فقلت للحاكم:
ـ يحيرني الموضوع الذي تتحدثون عنه، وهو لاشك موضوع يهم ألمانيا وولي عهد تركيا، لكني أتساءل كيف تسنى لكم الحديث لمصلحة الأرمن -الذين يغافلون العالم من أجل إحياء وجودهم الذي يزعمون، إنني لا أعرف في أي عصر كان لهؤلاء وجود- وضد تركيا التي تتحالف معكم، وتتخلى عما تبقى لها من وجود مادي ومعنوي في سبيل هذا التحالف؟
أدركت أن معلومات هذا الحاكم عنا ناقصة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الاستهزاء به، لأنه يطالبنا في مقابل كل ما ضحينا به، بحق الأرمن في أرض تركيا. وفي الحال هدُأ الحاكم من موقفه بعد ما سمعه مني، ورأى أنه مخطيء وليس صاحب دعوى. فقلت له من أجل أن أنهي الحديث في هذا الموضوع:
ـ حضرة الحاكم إننا وفد نقوم بالتجول في الجبهة، وقد جئنا لفهم الوضع الحقيقي للجيش الألماني الذي أصبح حليفنا، وأصبحت دولتنا تعتمد عليه، ولم نأتِ هنا لمناقشة مسألة الأرمن. وبعد أن فهمنا حقيقة وضع الجيش، آن لنا أن نعود لبلدنا.
دعا الحاكم وحيد الدين إلى مائدة الطعام. وبعد ذلك دعانا صاحب مصنع(كروب) الشهير إلى قصره الفخم الذي بجوار المصنع. وهناك تناولنا العشاء، وفي الليل تحركنا بالقطار إلى برلين. وفي برلين كنا ضيوف على الإمبراطور في فندق (أدلون). أقمنا إقامة جميلة في الفندق، وكان كل واحد يقيم في غرفة بمفرده، وشعر وحيد الدين بالفخر لهذا الاستقبال الجيد، وأجرى لقاءات صحفية مع صحفيين عالميين، وكان يشعر بسعادة غامرة، وكان يُجري مقابلات مختلفة. وذات يوم في الفندق قال لي ناجي باشا:
ـ وحيد الدين يريد أن يتخذك ياوراً له . ولكن لابد أن تعرف مدى صعوبة مسؤلية العمل بالقصر.
فأجبت قائلاً:
ـ إذا كان هذا تكليف وحيد الدين، فلابد من الموافقة. هذا الرجل سيصبح السلطان، ولابد أن يكون بجانبه واحد يطلعه على كل الحقائق بلا خوف ...في الواقع إن العمل في خدمة القصر صعب كما تقول، ولكن من أجل مصلحة الدولة نعمل كل شئ.
واجبت ناجي باشا بالموافقة. وأصبحت ياوراً له بعد أن عدنا إلى استانبول. كان هناك بعض المسائل التي جرت قبل ذلك ونحن في فندق (أدلون). ففي ذات يوم أراد بعض مراسلي الصحف مقابلة ولي العهد مرة أخرى. وكنت حاضراً اللقاء. رأيت في هذا اللقاء أن وحيد الدين كان حتى أخر يوم متأثراً بالأفكار التي أطُلعته عليها في استانبول، فقد كان يتحدث بوحي هذه الأفكار دائماً إذا تحدث مع أي شخص. وفي ذلك اليوم سعدت بمصاحبة بعض الصحفيين الأجانب.
بعد خروج الصحفيين بقينا نحن الاثنين بمفردنا في الصالون. فسألني قائلاً:
ـ ماذا علينا أن نفعل؟
أتذكر أنني تكلمت على النحو الآتي:

ـ نحن نعرف التاريخ العثماني، إذ يوجد في هذا التاريخ صفحات عديدة تُخيفك، وتثير قلقك، وأنت على حق في هذا، ولذلك سأقول لك شيئاً، وسأشاركك حياتي في هذا الخصوص، فهل يسعدكم ذلك.

قال وحيد الدين:

ـ تفضل بالكلام!..."

واضح هنا أن مصطفى كمال باشا، بتعبيره الخاص، لا يفكر في شئ سوى التقرب من وحيد الدين، والارتباط بالدنيا التي سيخططان لها معاً. وهذا التحليل العلمي والمنطقي القاطع ستثبته إفادات مصطفى كمال باشا المستمرة.

ويستمر مصطفى كمال باشا في حديثه قائلاً:

"ـ إنك لم تصبح سلطاناً بعد، لكنك رأيت في ألمانيا أن الإمبراطور وولي العهد والأمراء كلهم ينشغلون بشئون الدولة، إذاً لماذا تبقى أنت بعيداً عن كل شئ؟

ـ وماذا عساي أن أفعل؟

ـ عندما تعود إلى استانبول اطلب أن تكون قائد أحد الجيوش. وأنا أصبح رئيس أركان حربيتك.

ـ قيادة أي جيش؟

ـ قيادة الجيش الخامس...

فهذا هو الجيش الذي تحت قيادة (ليمان فون ساندرز)، وهو الجيش الموجود للدفاع عن البسفور.

فقال وحيد الدين:

ـ لن يعطوا لي قيادة هذا الجيش!...

ـ أنت تطلب هذا!...

ـ عندما نذهب إلى إستانبول نفكر في هذا الموضوع.

كان هذا الرد الهدف منه أن أتجاهل هذا الموضوع.

عدنا إلى استانبول. لكنني كنت أشعر باضطراب فظيع بداخلي طيلة فترة السفر. قال الأطباء إن كليتي عليلة. لم أغادر فراشي لمدة شهر. فشل الأطباء في علاجي فعاودت الرقاد مرة أخرى، وفي النهاية قرر الأطباء ضرورة سفري إلى فيينا للعلاج.

في فيينا رأى الأستاذ الطبيب الذي كشف علي هناك ضرورة دخولي المستشفى للعلاج. مكثت في مستشفى (كوتاج) بالقرب من فيينا لمدة شهر، وقام هذا الأستاذ بعلاجي. ثم ذهبت بعد ذلك إلى كارلسباد بناءً على توصية نفس الأستاذ. وفي يوم الجمعة، في الخامس من شهر يولية عام 1918، جاءني في مقر إقامتي في (كارلسباد) - حيث كنت لا أزال مريضاً ولم يتم علاجي تماماً- بعض الأصدقاء."

هؤلاء الذين أتوا لزيارة مصطفى كمال باشا، أخبروه أن السلطان محمد رشاد قد مات وتولى بعده وحيد الدين. مكث مصطفى كمال باشا متجمداً من المفاجأة، كما سنرى من كلامه الآتي:

"ـ هل أحزن أم أفرح؟ لم أعرف ماذا أفعل. الحقيقة أنني لم أتألم لموت السلطان، ولاهمني أن يكون عمر السلطان الجديد طويلاً أو قصيراً. تُرى هل كان سبب حزني أن يحدث هذا الأمر، وأنا غير موجود في استانبول؟ لا أستطيع أن اقول كلاماً قاطعاً بخصوص هذا الأمر. لكن كل ما أتذكره أنني تجمدت ولم أنطق. وفي غضون عدة أيام جاءتني معلومات كاملة. فقد أرسلت برقية لوحيد الدين أهنئه على تولي المنصب. وجاءني رده. ووفقاً لما فهمته من المعلومات الأخيرة، أن عزت باشا أصبح ياور السلطان الجديد فأقلقني هذا الأمر. لأنني ظننت أن عزت باشا، علاوة على أنه أصبح ياوراً، ربما يصبح مستشاراً عسكرياً أو رئيس أركان الحربية. بعد عدة أيام تلقيت برقية من جواد عباس بك مساعدي الموجود في استانبول، يخبرني بضرورة عودتي فوراً إلى استانبول. ولما كنت لا أود العودة لأنني كنت لا أزال مريضاً ولم أُشف بعد، كتبت خطاباً إلى جواد عباس بهذا المعنى. تضمنت البرقية الثانية التي تلقيتها منه هذا الكلام: "هناك رغبة بأن تتفضلوا بالعودة سريعاً إلى استانبول". سافرت من كارلسباد يوم السبت 27 يولية عام 1918، دون أن أرى لزوماً للتساؤل عمن يكون صاحب الرغبة في عودتي.

يستقبل جواد عباس بك، مصطفى كمال باشا في محطة (ساركيجي)، وعندما ينزل مصطفى كمال من القطار يسأله قائلاً:

ـ من استدعاني ولماذا اُستدعيت؟

فيجيب عليه قائلاً:

ـ عزت باشا هو الذي طلب مني أن أكتب لكم لتعودوا إلى استانبول.

وفي الحال ذهب مصطفى كمال باشا إلى عزت باشا، وقال له: "أريد أن أفهم، لماذا استدعيتني؟" كأنه يريد أن يطمئن على صحة إحساسه.

كان رد عزت باشا جافاً للغاية.

ـ لا سبب على الإطلاق!... إنني رغبت في عودتك حيث فكرت إنه سيكون من المفيد أن يستمر اقترابك من السلطان الجديد، لأنني أعلم أنك اقتربت منه كثيراً أثناء سفرك معه عندما كان ولياً للعهد.

شكر مصطفى كمال باشا، عزت باشا لأنه تذكره، ثم أطلعه عما بداخله:

لابد أن أقابل السلطان الجديد من أجل إصلاح الوضع بصفة عامة. فمن المناسب التشاور معه في هذا الخصوص.

كان عزت باشا يرى ذلك أيضا، وفي الحال يقول للسلطان الجديد، عن طريق ناجي باشا: إن رفيقكم في الرحلة التي قمتم بها في فترة ولاية العهد يريد مقابلتكم.

جاء رد السلطان:

ـ تفضلوا!

وبعد أن أقوم بإبراز خصائص السلطان سيء الحظ في عهد الانهيار، سوف أتناول موقف مصطفى كمال باشا من السلطان وحيد الدين. ولنعود الآن إلى وحيد الدين مباشرة في عهد الانهيار...

الانـــهيـــار

وحيد الدين على العرش العثماني

في شهر يولية عام 1918، عام الكارثة التي تحققت بهزيمة الأتراك وجيش دول الوفاق في الحرب الكبيرة التي أسرعت بالدولة العثمانية نحو الانهيار، نظر السلطان محمد رشاد بعينيه الزرقاوان إلى السماء الزرقاء وأغمضهما، وودع الدنيا.

قبل عدة أيام من موته، عثر الباشكاتب (علي فؤاد توركجالدي)على السلطان مغمى علية بجانب صندوق البردة المقدسة التي في حجرة "بردة السعادة : بردة النبي"[470] في أثناء زيارته لقصر طوب قابي. ويُخرجون السلطان المتدين بالدين العلوي، صاغراً من الحجرة التي أغلقها على نفسه، ليرقد في الفراش الذي لم يستطيعوا إخراجه منه أبداً.

عالي المقام حتى في حزنه!...

سيكون مصدرنا الكبير والأمين لمعرفة الوقائع التي حدثت بعد ذلك، سواء في السنوات الأخيرة للسلطان محمد رشاد، أو في الأعوام الأولى لعصر وحيد الدين، هو

470- الفاتح بإنشاء جناح الأمانات المقدسة بين عامي 1474-1478م في قصر طوب قابي. وكان أمر السلطان محمد الذي يحتوي على بردة النبي فوق كرسي السلطان أحمد الأول 1603-1617، هو أول من فكر ووضع الصندوق الثاني 1808-1839 قصر طوب قابي نهائياً، أمر بتخصيص العرش متبركاً بها. وعندما غادر السلطان محمود سابقاً في الزاوية اليسرى من الغرفة الخاصة - غرفة العرش.لحفظ الأمانات المقدسة القصر بالكامل ليكون متحفاً والتي كانت تسمى غرفة السعادة- توجد شبكة الأمانات المقدسة التي صنعت بأمر من السلطان. في هذه الشبكة يوجد أمر بصنعه السلطان عبدالعزيز 1861- 1876 كوعاء يحفظ صندوق من الذهب منقوش بالآيات القرآنية والزخارف، في لفة الذهب أيضا هو الذي يضم بداخلة البردة النبوية الشريفة، أما البردة نفسها فقد وضعت فيه صندوق أصغر من للشاعر كعب بن زهير بعد أن ألقى في حضرة الرسول قصيدته من الحرير. هذه البردة هي التي أهداها النبي مطرزة انتقلت إلى مصر مع آخر بقصيدة البردة. وانتقلت البردة من الأمويين بعد زوال ملكهم إلى العباسيين ثم المسماه البردة النبوية في العاشر من فبراير 1517م مع باقي تسلّم الخلفاء العباسيين. وعندما فتح السلطان سليم الأول مصر داخل جميعاً إلى قصر طوب قابي. ومن الأمانات أيضاً العلم النبوي الشريف المحفوظ الأمانات المقدسة، وحملها معه م. وتتضمن الأمانات المقدسة 21 627 ورسالة النبي التي بعث بها إلى المقوقس ملك القبط سنة.صندوق من الذهب أيضا خاتم النبي المصنوع من العقيق، وهو الخلفاء والصحابة في مقدمها سيفان للنبي. وهناك سيفاً من سيوف بين ومن وعلبة يحتفظ فيها بـ شعرة من اللحية النبوية الشريفة. محمد رسول الله. عليه عبارة بيضاوي الشكل منقوش فيه عندما الأمانات المقدسة، المصحف الشريف المخطوط على جلد غزال الذي كان الخليفة عثمان بن عفان يتلو جانب أمانات الرسول توجد بعض الأمانات الخاصة بالكعبة المشرفة، أستشهد في بيته، وهو ملطخ بالدماء. وإلى الغرفة والقفل وكلها من الفضة، وكذلك توجد ستارتان مأخوذتان من غطاء الكعبة تزينان جدران فيوجد مفتاحا الكعبة بالمتحف حجر عليه أثر القدم الشريفة. انظر الصفصافي أحمد المرسي، الخاصة، وعليهما نجد آيات قرآنية. وهناك استانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة،دار الأفاق العربية 1999، ص 61 . انظر أيضا المواقع الإليكترونية التالية:

http://www.alturkiyya.com/ar/detay_liste.asp?yazi=88

http://www.360tr.com/kutsalemanet/english/

كتاب (مارأيت وماسمعت) لــ (علي فؤاد توركجالدي) باشكاتب القصر. وسوف أُبرز أكثر من خلال هذا الأثر، اللحظات الأخيرة للسلطان محمد رشاد:

في الوقت الذي يترقى فيه الطبيب اللواء أحمد بك، طبيب السلطان رشاد الخاص إلى باشطبيب، يرى سيده ممدداً في فراش الموت، وفي قمة الإعياء. وبينما ينظر إليه بحزن شديد لأنه يشعر أن رتبته التي حصل عليها ستموت بموت السلطان، قال له علي باشا وهو أحد أطباء القصر، وكان يقف بجانبه:

"ــ مسكين يا أحمد! أصبحت أحمد سيء الحظ، بعد موت محمد سيء الحظ!"

الباشا الذى قال هذه الكلمة لم يعرف، ولم يقدر حينئذ أن سيء الحظ الحقيقي ليس هو السلطان محمد رشاد الذي كان يبتسم ويقول: "أنا ممنون، أنا محظوظ!" لهؤلاء الذين ساقوا الدولة العظيمة التي أخذوها من السلطان عبد الحميد، نحو الانهيار بحروب طرابلس والبلقان ثم الحرب العالمية بعد ذلك، وفي لحظة السقوط يغمض عينيه ويرحل إلى العالم الآخر دون أن يرى أو يشعر بالهزة الكبيرة ثم الانهيار، بل سيء الحظ هو وحيد الدين الذي اضطر لاعتلاء العرش في هذه الفترة. أما هذه النقطة بالنسبة للسلطان محمد وحيد الدين السادس فهى تمثل تجسيداً لنقطة فارقة بين لحظتين، لحظة توليه العرش، ولحظة خلعه عن العرش.

قبل سبع سنوات من موت السلطان رشاد - من بعد عام أو اثنين من توليه الحكم- يستدعي حضرة حاجي ذهني أفندي، مدير عموم الخزينة الخاصة، ويقول له:

ــ إنني أعطيك بصورة أمانة، وأدفع من نقودى الخاصة مقدماً، مصاريف جنازتي، فخذها! وعندما أموت لا أريد أن تُشيع جنازتي بالإرادة السنية!

ويتوفى السلطان يوم الأربعاء (3 يولية 1918) ــ (24 من رمضان 1336)، وفي الصباح التالي تُشيع جنازته من قصر يلديز إلى قصر طوب قابي، في داخل زورق بخاري عن طريق ميناء (چيراغان)، و يُغَسل في حجرة (بردة السعادة) ومنها إلى أيوب حيث يُدفن في القبر الذي جُهز له، ثم ينتظرون مراسم البيعة للسلطان الجديد.

وقبل يوم ذهب الصدر الأعظم طلعت باشا، وأنور باشا وزير الحربية ونائب القائد الأعلى، وشيخ الإسلام موسى كاظم أفندي، إلى قصر الطفولة الذي تربى فيه وحيد الدين- وهو قصر "چنگل كوي" الذي وصفته في بداية كتابي هذا- وأخبروه أنه بوفاة أخوه السلطان رشاد يحق له الجلوس على العرش العثماني. وظل الوكلاء في قصر يلديز، وتناولوا الإفطار في القصر الذي يرقد فيه السلطان داخل نعشه.

في 25 رمضان 1336 (4 يولية 1918) يوم الخميس، في وقت الصباح في الساعة العاشرة، يطأ وحيد الدين رصيف قصر (طوب قابي) للجلوس على العرش باسم محمد السادس. وبينما يقترب الزورق الذي جاء به من الرصيف، يهرول الوكلاء المجتمعين في جناح مصطفى باشا في (قصر طوب قابي)، وكبار رجال القصر، وخَدَمة

الأندرون[471] أي موظفي القصر، ويصطفون أمام الباب الثالث المسمى بـ (يالديزلي قابي) أي الباب الذهبي، استعداداً لأداء مراسم استقبال وحيد الدين.

في تلك الأثناء جاء أيضا الصدر الأعظم طلعت باشا، ولكنه أخذ يصيح عالياً قائلآ: "قُضى علي!".

يدخل محمد وحيد الدين السادس من الباب "بمنتهى الوقار"- بتعبير باشكاتب القصر- وخلفه يدخل أنور باشا، ويسير مباشراً نحو جناح بغداد في القصر.

وحدث أن أول كلمة ينطقها وحيد الدين في تلك الأثناء بصفته السلطان، أمام أركان حكومته وقصره، كانت:

"ــ هذه كارثة!"

نعم، كانت هذه أول كلمة قالها وحيد الدين، أمام أركان حكومته وقصره.

"هذه كارثة!"

قيلت هذه الكلمة للآتي:

كان السلطان يعاني من الروماتيزم، ويجد صعوبة في السير، ويستعمل دائماً عكازاً... وبينما يسير تجاه جناح بغداد، يشعر بوجع في قدميه، ويطلب السلطان الجديد عكازه من أحد القريبين منه: فيقولون له: نسيناه في قصر (چنگل كوي).

عندما تلقى وحيد الدين هذا الجواب، صاح - وسمعه كل شخص- قائلاً:

"هذه كارثة!"

يقول علي فؤاد توركجالدي:

"ــ وهكذا كانت أول كلمة يتفوه بها عندما دخل من باب القصر، هى كلمة الكارثة. ومر زمن سلطنته كله بالكوارث. ووقعت في تلك الليلة أيضا كارثة أخرى، استمرت حتى الصباح. فقد شب حريق، سرى من الحمام الملاصق لسور طوب قابي حتى حجرات الحريم، وأحدث قلقاً وغماً شديداً."

في رأيي أن حكاية عكاز السلطان المريض بالروماتيزم الذي نسيه في قصره الذي كان يقيم فيه في فترة ولاية العهد في (چنگل كوي)، هى من وحي خيال فطري غاية في الدقة، وهى شيء رمزي، لا توجد أي وثيقة تدل عليها، ولا أستطيع إثباتها من خلال الوثائق التي حصلت عليها وفرزتها بنفسي.

يصل وحيد الدين إلى جناح بغداد، وهو يشد قدميه بصعوبة بسبب الآم الروماتيزم، وهناك يستريح فترة، ويستقبل بصفة شخصية الصدران الأعظم القدامى، توفيق باشا، وداماد فريد باشا. ومن هناك يمر على حجرة (بردة السعادة) ويزورها. وفي الساعة الحادية عشرة يأتى أمام (باب السعد) وبجانبه ولي العهد الجديد عبد المجيد أفندي، ويصعد إلى العرش المقام هناك.

---

[471] - أندرون في اللغة الفارسية تعني داخل الشيء، وقد أطلقها الترك على القصر السلطاني. انظر حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، مرجع سبق ذكره، ص 167

- خَدَمة الأندرون أي خَدَمة الدائرة السنية السلطانية. انظر قاموس اللغة العثمانية، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، جمعه ورتبه محمد علي الأنسي، بدون تاريخ، ص 50

التف حول العرش ممثلين الدولة جميعهم وهم يرتدون الملابس المتنوعة...! أمراء يرتدون الطرابيش والردينجوت، وعلماء يرتدون الجبة والعمامة، وأركان الجيش في زيهم العسكري والقلنسوة، ورجال يرتدون ملابس مدنية مزركشة، وألبسة الرؤساء الروحانيين التي بلون القطران... وعن بعد تُسمع طلقات المدافع احتفالاً بالجلوس على العرش، لكنها كانت وكأنها تعلن عن إفلاس الدولة التي أوشكت على الانهيار... فقد حضر كل واحد من أجل مراسم البيعة. وكان صاحب مصدرنا، باشكاتب القصر علي فؤاد توركجالدى، أيضا خلف العرش طبقاً للأصول... أوشكت مراسم البيعة أن تبدأ، وهى تبدأ منذ القدم بسلام السلطان بيده على أفراد الحاشية ثم تقبيلهم... يستدعي الصدر الأعظم طلعت باشا، توفيق بك، المشرف على موظفي القصر، من أجل تنظيم الحاشية. وفي اللحظة التي يستعد فيها توفيق بك لمباشرة عمله، نسمع صوت السلطان وحيد الدين من فوق العرش يقول:

"ـ أظن أن توفيق بك قد ظل ينظم حاشية أخي لفترة طويلة، ولذلك سيكون متأثراً لذلك وحزيناً. فليتولى تلك المهمة نزهت بك، الموظف الثاني في القصر!"

تجمد الجميع في أماكنهم. لأن توفيق بك الذي كان من المعتقد أن يستمر في عمله،كان عميلاً وممثلاً لجمعية الاتحاد والترقي، وهو قد وُضع بجانب السلطان الراحل بهذه الصفة، وإبعاده عن وظيفته اعتباراً من لحظة الجلوس على العرش، يكون بمثابة محاولة من وحيد الدين، لإظهار أنه يبدأ حكمه بإرادة سلطانية جديدة.

كانت عيون طلعت باشا الذي لم يعجبه ما فعله وحيد الدين، تبحث عن أنور باشا، وكأنه يسأل:

ـ كيف سنعمل مع هذا الرجل؟

وكما أشرنا في البداية، فإن السلطان محمد وحيد الدين السادس، هو الابن رقم 23 للسلطان عبد المجيد الأول، وهو أخر وأصغر أولاد عبد المجيد الأربعة الذين استمروا في السلطنة بالترتيب. وهو السلطان رقم 36 من بين السلاطين العثمانيين، والأخير. وهو أيضا الخليفة رقم 23 (والخليفة رقم 24 الذي جاء بعده، لم يصبح سلطاناً، لأن السلطنة كانت قد أُلغيت). اعتلى السلطان وحيد الدين العرش في سن 58 عاماً، في العام الرابع والأخير للحرب الكبيرة، قبل ثلاثة أو أربعة شهور من انهيار الدولة التي سقطت في فجر يوم أسود، صبغ أفق تركيا كلها بالسواد، وهو ينظر حوله بدهشة وحيرة.

وإذا كان وحيد الدين قد اعتلى العرش في زمان كهذا، فماذا عساه أن يفعل في عهد وجد نفسه فيه منذ اللحظة الأولى مسؤلاً عن حساب العصور الماضية. هل كان يجب عليه أن يتولى العرش، أم ينسحب إلى قصره في (چنگل كوي)، ويسد أذنيه حتى لا يسمع صرخات الوطن الذي سيذبحونه في السلخانة؟

هذا السؤال يمثل مفتاحاً رئيسياً لمسألة محمد وحيد الدين السادس، وإن كان لا ينصفه حتى هذه اللحظة.

إن محمد وحيد الدين كان سيصبح بالفعل خائناً للوطن، وفاراً منه، لو إنه لم يقبل العرش. فإن توليه العرش والوضع هكذا، إنما هو ذكاءً من وحيد الدين الذي يصفه

باشكاتبه بإنه: "ذو فكر يشبه فكر الجان"، كما تنم هذه الخطوة الأولى التي اتخذها عن شجاعة كبيرة. وعندما نأتي إلى الأعمال التي قام بها بعد ذلك، نجد أنه ظل محافظاً على هذه الشجاعة، ولم يتخل عنها أبداً، وسنرى ذلك فى المواضيع التى سنتطرق إليها، وهذا من حيث المبدأ يجعلنا نقول: إنه لم يتخل عن شجاعته الأولى في أي وقت.

كانت هناك بعض البطولات، فقد كان مقاوماً للفساد، ولا يحب أن يكون هو نفسه فاسداً، أو يحمل مغبة الفساد. كان يحب الكمال والخير. كان عالي المقام، يسعى دائماً لعمل كل ما هو جيد.

برغم الحكم المقدم سلفاً في عنواني الذي في أول كتابي وهو: **"السلطان وحيد الدين ليس خائناً للوطن بل صديق كبير للوطن"**، سوف ترون أننى منحاز تماماً للحقيقة في هذا الموضوع.

والآن لنواصل حديثنا من لحظة جلوسه على العرش:

إن السلطان الذي لطم الاتحاديين في أول حركة له، عندما أبعد أحد رجالهم الذين في القصر عن محيطه، قال بعد ذلك ما يلي لعلي فؤاد توركجالدي بناءً على زعمه:

"في ذلك اليوم كنت سأكلف توفيق بك بأمر الحاشية، لكن بسبب إصرار ولي العهد على رفض ذلك، لم أجعله يواصل وظيفته حتى لا يكون هناك خلاف بيني وبينه من أول يوم!"

لابد أن نكون أغبياء لأعلى درجة حتى نقبل تفسير الحركة - الموجهة ضد الحزب الأسود حاكم الدولة، والتي كانت عبارة عن أداء سياسي، ورسالة موجهة للاتحاديين والذين حولهم- على هذا النحو السابق.

يقول الباشكاتب أنه كان يجب ألا تُعزف الموسيقى أمام حجرة (بردة السعادة) في وجود نعش السلطان الراحل بداخلها، ويُكتفى بالتصفيق للسلطان الجديد عند دخوله (باب السعادة)، ولكن حدث العكس وعُزفت الموسيقى طيلة مراسم البيعة. والباشكاتب الذي يفسر هذا بإنه: "بسبب عدم معرفة السلطان للتقاليد القديمة"، يؤكد أن السلطان اندفع يُقبل الحاشية مثلما كان يحدث في العادة، وهذا لا ينطبق على بيعة تمت بموضة حديثة، أو بأسلوب جديد.

وهاهى عادة قديمة أخرى، إذ يتعقب السلطان وحيد الدين الجنازة حتى أيوب، ويحضر الدعاء، ثم يؤدي صلاة الجنازة على روح أسلافه السلاطين، ثم يعود أدراجه إلى القصر.

وعند عودة وحيد الدين من أيوب، يذهب مرة أخرى إلى قصر طوب قابي، ومن هناك يركب يخت (سوغوتلو)، ويصعد إلى رصيف قصر دولماباغچة. وعند الرصيف كانت هناك مجموعة من (الغلمان والخدم) - الذين ذهبوا مباشراً إلى دولماباغچة بالقارب من أيوب- ينتظرون في صفين، قدوم السلطان الجديد.

وبعد ذلك يذهب طلعت باشا - وهو من زعماء الحزب المشئوم، حاكم الدولة والذي أصبح في نظر الشعب بسبب الأوضاع الأخيرة، خائر القوى والعزيمة- إلى القصر لتقديم استقالته وفقاً للتقاليد! نظراً لتغير رئاسة الدولة.

وكان أول قرار للسلطان الجديد، أن يستمر الصدر الأعظم، وأعضاء مجلس الوزراء في أماكنهم. وأن يتولى طلعت باشا تنظيم مسودة خط الجلوس، وهو مدعو بعد يومين (يوم السبت) إلى القصر من أجل إجراء نقاش موسع معه. وقام رشاد بك، الطبيب الخاص للسلطان، بإعلام باشكاتب القصر علي فؤاد توركجالدي، بإنه مستمر في منصبه.

ويأتى طلعت باشا إلى القصر يوم السبت، ويستقبله السلطان، ثم يخرج من اجتماعه معه بعد فترة طويلة. وفي حجرة الوكلاء، يدخل الباشكاتب علي فؤاد توركجالدي بينما يتناقش طلعت بك مع توفيق بك عميل الحكومة الذي أبعده السلطان عنه بإعفائه من منصبه كرئيساً للحاشية، ويقول له طلعت باشا الآتي:

"إن السلطان طلب استدعاء مصطفى رشيد باشا - من الوزراء السابقين- ليتولى منصب رئيس موظفي القصر، وأنا رجوته أن يُعين لطفى بك الرئيس السابق في هذا المنصب فوافق. وأنت سوف تستمر في وظيفتك، أما توفيق بك فسيتم تعيينه في مجلس الأعيان."

وهكذا فإن السلطان الذي كان أول عمل له إبعاد رجل من رجال الاتحاد والترقي عن القصر، يقبل الرجاء في نفس الموضوع، ليخفف قليلاً من قسوة الحركة التي فعلها ويصير تعويضاُ صغيراً للاتحاديين. هذا الموقف كما يعتقد وحيد الدين ليس سوى مجرد سياسة، فهو يريد أن يجعل الإحساس بحزمه وهيبته تدريجي وبسيط. لكن ما الحيلة! فالوقت متأخر جداً على السيطرة، وكبح جماح هؤلاء الاتحاديين الذين سيتركون الوطن ليحتله الأعداء بعد بضعة شهور، ويهربوا بعد انهيار كل شيء.

وبعد طلعت باشا، يستقبل السلطان الجديد باشكاتبه، ويدردش معه بخصوص لطفي سيماوي بك الذي سيتولى وظيفة رئيس موظفي القصر قائلاً:

"ـ الصدر الأعظم رجح لطفي بك. ولطفي بك متفرنج قليلاً، لكننا معكم يمكن أن نعدل من تفرنجه."

وهذه الكلمة توضح موقف وحيد الدين الشخصي، تجاه من يتظاهرون بالتفرنج.

في الأيام الأولى للجلوس على العرش، كان الباشكاتب يطالع أوراقه على مائدة الكتابة مع السلطان الذي كان يجلس أمامه، وسقط في تلك الأثناء شيئاً في الخارج محدثاً صوت فرقعة، ففوجيء الباشكاتب بوحيد الدين يميل ليأخذ مسدسه من مكانه، وينفخ فوهته، ويضعه في جيبه. هنا الباشكاتب الذي أصابه الهلع الشديد، لم يدرك سبب هذا الحدث الكبير الذي رواه. فالسلطان الجديد كان يرى أنه لا يملك في الدولة العثمانية أي شيء حتى نفسه، وأنه ليس هناك من يدافع عنه. ولهذا الإحساس كان يحمل سلاحه دائماً.

وبعد الاطلاع على الأوراق وهو ما ينم عن شخصيته ونشاطه الأول، يوجه محمد وحيد الدين السادس إلى الحكومة أول أمر له من داخل مقام السلطنة. إذ بينما جرت العادة حتى ذلك الوقت أن يوقع الصدر الأعظم، والوزير المسئول، أسفل الفرمان ويصدق السلطان أسفل توقيعيهما، رأى وحيد الدين أنه بموجب موقعه كسلطان يمكنه أن

يغير من هذا الشكل. فأخبر الصدر الأعظم أنه من الآن فصاعداً سيكون توقيعه أعلى الفرمان وليس أسفله، و هذا نص ما قاله:

"ـ لابد أن يُوضع توقيعي بأعلى الفرمانات. وقولوا للصدر الأعظم، إن توقيعي سيكون بعد توقيعه!".

وبينما يوافق الصدر الأعظم على ذلك، يرى رئيس مجلس المبعوثان (النواب) أن هذا الشكل مخالف للقانون. وطلعت باشا الذي كان سيذهب للتو إلى أوروبا، يُعلم الباشكاتب بالوضع بقوله:

"ـ إن الأصدقاء يعترضون على وضع التوقيع الهمايوني بهذا الشكل، قم بعرض الأمر على الذات الشاهانية في الوقت المناسب، بعد أن أذهب إلى أوروبا!".

يُعرض الأمر على السلطان الذي لا يستطيع أن يتراجع عما صرح به، فالمسألة دقيقة وترتبط بحيثية مقامه وشخصيته، فيقول:

"ـ أبداً!"

هذا كان رد السلطان، ويستدعي نائب الصدر الأعظم، أنور باشا ويجبره على قبول الأمر. ويتم وضع التوقيع الهمايوني أعلى الفرمانات.

وتُرسل إلى مكتب الباشكاتب مسودة خط الجلوس المودعة لدى الباب العالي، وتعُرض على السلطان. وبعد أن يدقق السلطان في عرض الخط واتساعه وطوله، يستدعي الباشكاتب ويقول له، إننى معجب بصفة عامة بالمسودة وبخطها، ولكنني أرى أن هناك بعض القصور، وقد أشرت فوقها في المسودة بالقلم الرصاص. ويطلب منه ضرورة كتابة الخط وفقاً لهذه التعديلات، ويأمر بالآتي:

"ـ اذهبوا إلى الباب العالي لإطلاع الصدر الأعظم عليها!".

تلك هى النقاط المطلوب إلحاقها بالخط الهمايوني، بعبارات السلطان شخصياً.

1ـ لابد من الاهتمام بالمحافظة على المعايير الإسلامية الحقيقية، والحيثية العثمانية...

2ـ لابد من العمل على إقرار العدل والأمن والانضباط...

3ـ ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للتخفيف عن الأهالى الذين تضرروا من غلاء الأسعار، والذين هم في حاجة إلى الإعانة...

4ـ استكمال وسائل زيادة موارد الدولة...

5ـ العفو عن المجرمين السياسيين المحبوسين، أو المنفيين بصفة مؤقتة...

6ـ إطلاق سراح المجرمين العاديين الذين قضوا ثلثي المدة في السجن...

7ـ رفع الإجراءات العرفية في التعامل في جميع المناطق، ما عدا المناطق الحربية. وتُنظر القضايا الجنائية في المحاكم المدنية...

8ـ إعلام الهيئة التشريعية في أول اجتماعاتها، بالقرارات الخاصة بالأمور المالية، والفرمانات التي تحتاج إلى التصديق عليها من قبل المجلس، والخاصة بالحقوق العامة...

9ـ إبداء الاهتمام عند اختيار موظفي الدولة، فلابد أن يكون اختيارهم طبقاً للقانون، وأن يتصفوا بالشرف والاستقامة...

10ـ لا يتم طرد الموظف من وظيفته، مالم تكن هناك أسباب قانونية تستلزم ذلك...

ثم يجتمع الصدر الأعظم بأعضاء مجلس الوزراء، ويعرض عليهم المواد التي تمت إضافتها، فيقبلون المادة الأولى والثالثة، أما مسألة العفو العام عن المجرمين السياسيين التي في المادة الخامسة، فيلزم حتى تمر من المجلس أن يتم تغييرها إلى عفو خاص. ويتم إدخال تعديل صغير أيضا في نفس المعنى في المادة السابعة. أما المادة الثامنة والتاسعة فهى سارية بالطبيعى، وليس من المناسب إبراز أنه يتم عكس ذلك.

ويتخذون موقفاً ضد السلطان الجديد، ويطلبون من طلعت باشا السماح لهم بالذهاب إلى القصر بأنفسهم لإبراز اعتراضهم للسلطان، فينظر إليهم طلعت باشا غاضباً ويقول لهم: "إذا أردتم مقابلته، فاذهبوا الآن، وأنا سأقدم استقالتي!". فيتراجعون ويقررون عرض الأمر على الباشكاتب.

ويقبل وحيد الدين التعديلات بشرط تعهُد الصدر الأعظم شخصياً بعدم نشر الأحكام خارج "القانون الأساسي"، وبعدم طلب مخصصات إضافية في حالة عدم انعقاد المجلس. وهكذا يصير الخط الهمايوني للسلطان الجديد - الذي يوضح مدى ذكائه وشخصيته وإدراكه، والتزامه الديني والأخلاقي والسياسي، ومدى عدالته وإرادته- بمثابة سد أمام رغبات الاتحاديين، وومضة جاءت متأخرة في عام الكارثة، لمعت فجأة ثم خبت سريعاً وانطفأت.

في حضرة السلطان الجديد

كنت قد كتبت أن مصطفى كمال باشا الذي رافق ولي العهد وحيد الدين أفندي في رحلته إلى ألمانيا، كان يُعالج في "كارلسباد"، وعندما تلقى برقية من ياوره جواد عباس يدعوه بالعودة إلى استانبول، عاد وطلب مقابلة السلطان وحيد الدين في القصر. وعند هذه النقطة، تركت هذا الموضوع، وتناولت مراسم الجلوس على العرش.

سأعود مرة أخرى لأقص ما حدث في تلك الأثناء:

عندما تلقى مصطفى كمال خبر وفاة السلطان رشاد، وجلوس وحيد الدين على العرش، لم يعد إلى إستانبول، لكنه أرسل إلى القصر برقية تهنئة توضح وجهة نظره الكاملة تجاه وحيد الدين، وحكمه القيم عليه. وهذا ما قاله بنفسه:

"إن جلوس أفندينا على العرش قد بعث الأمل الكبير في عبدكم، وفي إمكانية تحقيق سلامة وطننا وسعادته. وبرغم الحزن على وفاة السلطان المرحوم، فإنني مقتنع وواثق تماماً من أنكم ستنقذون وطنكم وأمتكم وجيشكم، حتى لا يصير ألعوبة، وأنكم ستعدلون من الوضع الأليم. وأرجو أن تقبل الذات السلطانية جزيل شكر،وعظيم احترام عبدكم.

مصطفى كمال،

قائد الجيش،

19 يولية 1918."

ولنستمع لمصطفى كمال باشا، ومن فمه شخصياً مرة أخرى، وهو يحكي عن موقفه في حضرة السلطان الجديد:

"أدخلني ناجي باشا إلى صالون السلطان الجديد وحيد الدين، بعد فراق بضعة أشهرعن رفيق رحلتي عندما كان ولياً للعهد. وكنت أقول لنفسي في تلك اللحظة، إن هذا الشخص قبل أن يجلس على العرش تحاورت معه حوارات صريحة، وفي أشياء كثيرة، وكان خلال اللقاءات يوافق على كل آرائي ووجهات نظري. تُرى بعد أن أصبح سلطاناً، هل سيأذن لي بالتحاور، والتشاور معه على هذا النحو السابق؟ وهل ستكون هناك لقاءات شبيهة؟ كنت أشك في هذا. وهكذا التقيت مع وحيد الدين، وفي داخلي كل هذه الحيرة.

يجب أن أقول أنه استقبلني بمنتهى اللطف والأدب. واهتم بي اهتماماً أكبر مما حظيت به في فترة ولاية عهده. جلس وأشار علي بالجلوس على المقعد الذي أمامه. وأخذ سيجارة من علبة السجائر التي على المسند الذي بيننا وقدمها لي، وأخذ هو أيضا سيجارة له، ومد إلي يده بالكبريت ليشعل سيجارتي. من هذا الموقف شعرت بأمل كبير. أولاً هنأته بقول مناسب، وبعد ذلك قلت له - موضحاً أنه شغل العرش العثماني في وقت عصيب- ما يلى :

ـ إنني أفصحت لكم خلال رحلتنا عن كل ما أفكر فيه. فهل تأذن لي هذه المرة أيضا أن أتشاور معك في نفس الموضوع الذي تحدثت فيه معك من قبل؟

قال:

ـ على الرحب، تفضل!...

إنني انتظرت أن يحين الوقت لأوضح لكم هذه النقطة الأساسية، من واقع خبرتي الطويلة:

ـ يجب أن تتولى بنفسك قيادة "دارعقاب" ولا تعين وكيلاً عنك. وأيضا قوموا بتعيين أنفسكم رئيساً لأركان الجيش! فقبل كل شئ لابد أن تكون أنت صاحب الجيش. ثم تفكر بعد ذلك في القرارات المناسبة التي يمكن تطبيقها.

وبعد عرض اقتراحي هذا على وحيد الدين، أغلق عينيه مثلما فعل عندما رأيته لأول مرة في فترة ولاية العهد. ثم أجاب قائلاً بعد قليل:

ـ هل هناك قادة آخرون يفكرون مثلك؟

قلت:

ـ يوجد!

قال:

ـ سأفكر في الأمر.

وتوقف حديثنا، واستأذنت في الانصراف.

مرت عدة أيام. وأبلغني بعدها ناجي باشا أن السلطان يريد مقابلتي أنا، وعزت باشا.

حضر كلانا عند وحيد الدين. فسرت هذه الدعوة بأن السلطان يرغب في أن يطلعنا نحن الاثنين على مايفكر فيه. وحاولت خلال حديثنا مع السلطان أن أعقب على وجهة

نظري، ولم أفلح في إخراج الحديث عن نطاق الموضوعات العامة. كان وحيد الدين حذراً جداً، وفي النهاية خرجنا من لقائنا معه بلا نتيجة.

مرت الأيام، ورغبت أن أتشاور مع السلطان مرة أخرى بمفردي. واستقبلني هذه المرة أيضا استقبالاً جيداً. بدأت في الحديث في نفس الموضوع السابق، وأنا أبدو مصراً على وجهة نظري. أجابني وحيد الدين بسرعة قائلاً:

ـ أيها الباشا، أنا قبل كل شيء أهتم بإشباع شعب استانبول. شعب استانبول جائع، وعندما أضمن إشباعهم، أتخذ بعد ذلك التدابير التي تقول عنها.

في نهاية هذه الجملة، أغلق الذات الشاهانية عينيه. شعرت بالأسى الشديد، واقتنعت أنني أمام ثعلب مكار، مثل غيره من النماذج العديدة التي أشاهدها كل يوم . فقد أدركت أن السلطان يريد أولاً أن يكسب شعب استانبول، وهو يبحث عن نقطة ارتكاز قوية من أجل عمل محاولة شخصية. لكنني مرة أخرى كنت أفكر فيما يلي: هل يمكن تحقيق هذه الرغبة - حتى إن كانت سليمة من وجهة النظر السياسية- بدون إصلاح الوضع بصفة عامة؟".

كان جلياً أن مصطفى كمال باشا لم يكن منشغلاً لا بالحرب العالمية، ولا بالجيش العثماني، في فترة تردي الدولة العثمانية، بل كان هدفه الوحيد هو أن يرأس وحيد الدين الجيش، ليصبح هو رئيس الأركان العامة.

وبرغم فهم السلطان وحيد الدين لما يطمح إليه مصطفى كمال، ومحاولته الاضطلاع بعمل شخصي يحظى بشعبية، استمر في مخاطبته بكل أدب. ولكن الباشا أبدى اعتراضه على السلطان.

وهاهو يحكي بلسانه عن رده على وحيد الدين:

"لكن التدابير والمحاولات التي يجب اتخاذها من أجل إشباع شعب إستانبول لا تمنع الذات الشاهانية من اتخاذ التدابير السريعة، والقرارات الصعبة التي يجب اتخاذها من أجل إنقاذ الدولة كلها. فالجهود التي تستهدف سلامة الوطن، تنجح إذا قمنا أولاً بتفعيل هذه الجهود".

وبعد ذلك يقول مصطفى كمال باشا إنه أراد أن يقنع السلطان بوجهة نظره، ولذلك اضطر إلى أن يقول ما يلي:

"ـ لابد أن يصاحب أول عمل يقوم به سلطان جديد، القوة التي تمكنه من الدفاع عن الدولة والشعب والمصالح جميعها، وعندما لايملك السلطان هذه القوة، لن تكون سلطته سوى سلطة لفظية فقط."

وكان رد السلطان على هذا الكلام الذي يدعوه إلى الاستحواز على كل السلطات، والسيطرة على كل شئ، والعمل جنباً إلى جنب مع مصطفى كمال، رداً غامضاً، ولكنه ذو مغزى كبير.

نخبركم بالرد نقلاً عن مصطفى كمال باشا:

كان رد السلطان هو الجملة التالية:

"ـ إنني تشاورت مع حضرة طلعت باشا وأنور باشا في الأمور التي يجب عملها!"

الشخص الذي قال هذا الكلام كان وحيد الدين الذي قال منذ بضعة شهور، عندما كان ولياً للعهد، إنه ينفر من طلعت باشا وأنور باشا، والذي وصف أعمال هذين الرجلين بإنها لن تؤدي سوى إلى القضاء على الدولة. والآن يتشاور وحيد الدين، السلطان والخليفة مع هذين الشخصين، ويتخذ معهما التدابير اللازمة لتأمين سلامة الدولة... كان وحيد الدين يريد أن يقول: هل تريد مني ألا أُقيم وزناً لمن يعلوك في المسئولية؟

"بعد أن فهمت هذه النية، انتهت مهمتي تجاه وحيد الدين عند هذا الحد. نهضت واستأذنت في الذهاب. فأغلق عينيه ومد يده بالسلام، دون أن ينطق بكلمة واحدة."

وبعد هذا التصوير الذي نقلناه على لسان مصطفى كمال باشا نفسه، دون أن نضع أي تعليق عليه، لنعطي الكلمة مرة أخرى إليه:

"عندما خرجت من الصالون، بدا ناجي باشا كأنما قرأ ما يبدو في عيني من حزن. وابتعدت عنه دون تبادل الحديث معه. وذهبت إلى حجرتي في فندق "بيرا بالاس"، وبدأت أفكر. حسبته حاج فظهر الصليب من تحت عبائته، (كنت أظنه موسى فبدا فرعون). لابد أن أبحث عن حل آخر. مرت عدة أيام . ليس هناك وقت أضيعه في تجنب أحد. يجب أن أثبت وجودي كقائداً للجيش،لذلك كنت أذهب إلى جامع السلطان "حميد" في يلديز لأداء شعائر صلاة الجمعة. وكنت أجلس قبل الصلاة في أحد الصالونات مع أنور باشا نائب القائد الأعلى، وعزت باشا ووهيب باشا، وهم من القادة الكبار الذين اشتركوا في حرب البلقان. وذات يوم حضر ناجي باشا إلى هذا الصالون وقال لي إن السلطان يريد أن يراني في الصالون الخاص به. سألت:

ـ هل سأكون معه بمفردي؟

ـ لا! سيكون معك اثنين من الجنرالات الألمان!...

ـ إنني من فضلك أريد أن أتناقش مع السطان بمفردي بعد أن يخرج هؤلاء الألمان.

ـ إنني أفهم ذلك، وطلبت منه ذلك عدة مرات. لكنه يرغب في لقائك في وجود هذين الجنرالين.

ـ إذا أمكن حاول مرة أخرى.

عمل ناجي باشا ما بوسعه حتى إنه قال للسلطان في أذنه: (من المناسب أن تقابله بعد ذهاب الجنرالات). وعندما قال السلطان، بالعكس إنني أريد مقابلته في وجودهم، فهمت أن السلطان يقصد ذلك.

دخلت على وحيد الدين. ياله من سلطان مهذب ومحترم! كان عند دخولي لايزال واقفاً يلقي خطاباً قصيراً أمام الجنرالات الألمان. هذه المرة كانت عيناه مفتوحتين، وقدمني إليهم بهذه الكلمات: (القائد الذي أقدره، وأثق فيه كثيراً!).

جلسنا وقال: (إنني عينتك قائداً على سوريا. إن الأوضاع هناك خطيرة جداً، ولابد من ذهابكم إلى هناك. وما أطلبه منك هو الحفاظ على هذه الأطراف من الوقوع في يد العدو!... وأتمنى أن تقوم بهذه المهمة التي أكلفك بها بنجاح. ويجب أن تتوجه في الحال إلى هذه المنطقة!)".

ويذهب مصطفى كمال باشا إلى سوريا متصوراً إنه أُبعد عن المركز، وأُرسل إلى منطقة بعيدة، بعد أن اقترب كثيراً من وحيد الدين، ومن السلطنة ونفوذها.

موكب تقليد السيف للسلطان الجديد

بعد مدة قصيرة من صعود السلطان وحيد الدين على العرش، يتقلد السيف في جامع السلطان أيوب، كما جرت العادة، في 31 أغسطس 1918.

لكن مرسم تقليد وحيد الدين السيف أثار الكثير من الجدل... ولأن شيوخ الإسلام كانو هم من يقوم بتقليد بعض السلاطين السيف في الفترة الأخيرة، رفض السلطان وحيد الدين أن يقلده موسى كاظم أفندي السيف. تُرى هل لأنه من الماسونيين أم من الاتحاديين، الواقع السبب مجهول... هذه المهمة التي يؤديها أحفاد مولانا منذ سالف الزمان، هل من المناسب أن يؤديها الأسياد أو الموالي؟ إن چلبى[472] عبد الحليم أفندي قد بلغت به الوقاحة والجهل وعدم التربية، وخدمة أهداف اليهود، حداً جعلته يرسل برقية إلى السلطان العظيم عبد الحميد في زمانه، يقول فيها: "إنك لا تليق بحمل السيف الذي قلدوه إياك أجدادي!". فهذا يعطي الحق لوحيد الدين ألا يأمن جانب هؤلاء الچلبية. وألا يرجح واحداً من الذين يقال لهم "نقيب الأشراف"، مالم تكن صفة "سيد" أو"شريف" لها علاقة بنسل الرسول. وهكذا تصبح مسألة من يقوم بتقليد السيف قضية. وليبارك الله للشيخ السنوسي الذي أسرع من بنغازي إلى استانبول وكأنما جاء بغواصة، فيقولون: هذا هو أنسب من يقوم بهذه المهمة، ويمنحونه شرف تقليد السيف.

وفي ذلك اليوم يجتمع الأصهار والأمراء في القصر مبكراً، ويركبون يخت (سوغوتلو)، ويذهبون إلى أيوب. ويذهب السلطان أيضا إلى أيوب بالزورق السلطاني الذي يسع عشرين شخصاً، وبجانبه الياور الأكرم عزت باشا، والباش ياور ناجي بك. وتنطلق صفارات السفن بأصوات رقيقة وغليظة تحية للسلطان الجديد الذي يخرج إلى موكب السيف... ويستقبلون السلطان عند رصيف ميناء أيوب، ومن هناك يسير على قدميه إلى قبر حضرة خالد، ويصل إلى مكان بدء المراسم أمام القبر تماماً. وكان موجوداً هناك جميع الذين سبقوهم من القصر ورجال الدولة والحكومة... وفي الخارج ينتظر فرسان (المعية السَنية) في صف، وتصهل الخيول. وأمام القبر يأخذ الشيخ السنوسي السيف الذي يناوله إياه أمين(الخزينة الخاصة)، ويقلده السلطان، أي يضعه في وسط السلطان.

وتنطلق الأدعية والمباركات... ويصدر أمراً في الخارج يقول: "اركبوا الخيول!" وينطلق السلطان في عربة تجرها أربعة خيول ناحية (أدرنة قابيسي)، ناحية الأسوار...

---

[472] - چلبى تعني مولى أو سيد. انظر قاموس اللغة العثمانية، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، مرجع سبق ذكره، ص 213

وفي (أدرنه قابيسي) يقدم (رئيس البلدية) ـ وفق العادة مرة أخرى ـ مفتاح مدينة استانبول... مدينتنا، إلى السلطان.

من ينظر إلى المشهد، لا يعتقد أن تركيا تمر بأزمة، بل يعتقد إنها سعيدة وآمنة. ويركب الصدر الأعظم طلعت باشا أيضا من أيوب العربة، ويأتي إلى جانب السلطان ويخبره بما يلى:

ـ طائرات الأعداء مرت من (چناق قلعة) وهى في طريقها نحو استانبول... هذا شيء خطير.

يبتسم السلطان وحيد الدين، ويرد عليه قائلاً:

"ـ إنهم أناس متحضرون. لن يهاجموننا أثناء مراسم دينية كهذه!"

ولا يبدي أحد أي مظهر للقلق.

وينزل السلطان من أيوب أمام قبر الفاتح، ويزور قبر جده السلطان محمود في (چامبرلي طاش) ويتجه نحو (ديوان يولي) ذاهباً إلى قصر (طوب قابي).

وفي اليوم التالي لموكب السيف، يقول السلطان ما يلي لباشكاتبه:

"ـ في أثناء الموكب رأيت استانبول وقد خربت تماماً، وحزنت لذلك كثيراً."

فيرد باشكاتب القصر جواب يليق بنفسية موظفي القصر:

"ـ إن شاء الله ترون ملككم الذي تخرب معموراً!"

ويضيف الباشكاتب في مذكراته ما يلي، بعد الحديث الذي سجله:

"ـ لم يقبل الله هذا الدعاء."

يبدو أن السلطان وحيد الدين المسكين كان يشعر أن الدولة التي آلت إليه خربة من الداخل والخارج، ستسقط في غضون عدة أسابيع، ولذلك كان يشعر بالكدر والحزن الشديد...

عهد الاحتضار

جلس وحيد الدين على العرش في منتصف صيف عام 1918، وفي نهاية ذلك الصيف كانت جيوش دول الوفاق تحتضر.

بعد أن تقلد السلطان الجديد السيف، بدأت الأخبار التي تأتي من الجبهة، لا تخفي حالة الرعب التي سادت ساحات الحرب في ألمانيا والنمسا وتركيا. وبينما كانت الدولة تئن، وكان الشعب يرتعد من جراء هذا الوضع، كان أعضاء الدولة في مجلس الأعيان ثائرين ورافعين راية العصيان ضد نظام الاتحاد والترقي. ويبدأ الدماد فريد باشا، ومحمود باشا الشركسي، وأحمد رضا المشهور- الذي كان اتحادياً ثم صار ضدهم، وهوفي كل لحظة له سياسة مختلفة- في الثورة اللفظية ضد الحكومة. وبينما الوضع هكذا قامت الحكومة بوضع مجموعة من رجالها داخل مجلس الأعيان، وأثناء محاولاتها الاستحواز على الأغلبية لا تستطيع أن تنجو من الضعف. وبلغ بها العبث درجة أنها تقترح أن يصبح أغلبية المرشحين الذين رشحتهم، أعضاءً في مجلس الوزراء. وساءت الأمور أكثر، وصار كل واحد يتربص بالآخر. وعندما لايكون هناك مكان أو حاجة للاستعانة بأحد المفكرين، وعندما تُشل الإرادة لا يبقى هناك سوى حل واحد... وهو انتظار ما ستسفر عنه الأحداث.

أما حكومة الاتحاد والترقي التي لم تستطع عمل أي شئ سوى الصبر، وتنفيذ قرارات وحيد الدين عندما تولى العرش، فقد انفردت بطاقمها الخاص الذين أخذوا يكيلون الاتهامات لبعضهم البعض...

فمثلاً شيخ الإسلام الماسوني موسى كاظم أفندي، كان في كل مرة يجيء إلى القصر يقول لكل من يصادفه:

"ـ أنا لا أرى أية نتيجة! آه لو استطعنا النجاة بأقل الأضرار."

وفي النهاية يقول له لطفي بك، رئيس موظفي القصر الذي لا يعجبه كلام هذا المرائي:

" ـ قل هذا الكلام الذي تقوله لنا، في مجلس النواب!".

وفي ذلك الوقت يخرج أنور باشا الذي كان في حضرة السلطان، ويمر أمام حجرة رئيس موظفي القصر.

فيقول شيخ الإسلام، وهو يمد يديه بالسلام تجاه أنور باشا الذي رآه وهو يمر من الباب المفتوح:

"ـ عندما أتكلم يقول الأولاد إن شيخ الإسلام بدأ في إعطاء فتوى جديدة!. ألا نستطيع أن نقنع الشباب بكلامنا؟".

ولم يفقد السلطان وحيد الدين برغم علمه بالسقوط، وسوء الوضع بصفة عامة، أبداً أسلوبه المهذب، ولم يتخل عن طريقته في تدعيم المباديء التي تدل على الحزم وقوة

الشخصية، في كل المناسبات التي تجمع بين القصر والحكومة. بل كانت مبادئه تزداد كل يوم قوة. مثلا في عهد السلطان رشاد كان الوكلاء، مهما كانت رتبتهم ومهما كانت قضاياهم وشئونهم، كانوا يأتون إلى القصر بدون استئذان ويقابلوه. وعندما حاولوا تطبيق نفس هذا الأسلوب مع السلطان وحيد الدين، أذهلهم هذا القرار المفاجيء:

"ـ ماعدا الصدر الأعظم وأنور باشا، فإن من يريد مقابلتي عليه أن يستأذن أولاً، وإلا فلن أقابله."

حتى إنه ذات يوم جاء رفعت بك رئيس مجلس الأعيان إلى القصر، ورفض السلطان مقابلته نظراً لانشغاله، ولأنه لم يستأذن قبلها، بل وأمر بإعفائه من منصبه، لكنه عاد وأبقاه نتيجة ضغط طلعت باشا.

في تلك الأثناء تم إرسال الأمير عبد الرحيم أفندي إلى إمبراطور ألمانيا والنمسا وملك بلغاريا، لإخبارهم رسمياً بجلوس السلطان الجديد على العرش. واصطحبه توفيق باشا الصدر الأعظم السابق إلى المحطة... وبعد أن غادر الصدر الأعظم محطة (سيركاجي) عائداً، يأتي هذا الخبر المفاجيء:

سقطت جبهة بلغاريا. الجيوش البلغارية تنسحب وهى في حالة رعب!

وفجأة انتشرت شائعة عمت أرجاء استانبول، تقول:

ـ إن وزارات الخارجية والداخلية والخدمات والبريد والبرق استقالت! ... وصار الوضع صعباً داخل مجلس الوزراء.

وجاء خبر آخر بعد يوم واحد، يقول:

ـ إن ملك بلغاريا يستقبل الأمير في محطة قطار صوفيا، ويعتذر لعدم عمل مراسم استقبال نظراً للوضع الراهن.

وفي جبهة الوفاق ساد "هرج ومرج"، وانهزمت دول الجبهة دولة بعد دولة.

وتقهقرت الجيوش الألمانية التي كانت متواجدة في الأراضي الفرنسية مهزومة، أما في سوريا، فالجيوش التي تحت قيادة المشير (ليمان) باشا، اندحرت نتيجة هجوم إنجليزي مفاجيء...

وتتوسل ألمانيا والنمسا لأمريكا ويطلبون الصلح، وكان رد دول الحلفاء على هذا: "لا!"

ومسكين وحيد الدين الذي شهد هذا المشهد مبكراً، وقبل أن تتاح له الفرصة ليمتع عينيه بالعرش الذي جلس عليه تواً.

وكانت هذه العبارة هى الجواب الذي تلقته كل من ألمانيا والنمسا من أمريكا التي طلبوا منها التوسط للصلح:

"ـ لم توافق قوات الحلفاء على الصلح مع دول أعلنت الحرب عليها!".

وارتمت روسيا في أحضان الشيوعية...لكن ألمانيا ودول الوفاق لم تستطع الاستفادة من هذا الوضع... لأن الخراب كان في كل جبهة ماعدا أوروبا الشرقية. وعلاوة على ذلك فإن الإشتراكيين في ألمانيا وفي النمسا قد خرّبوا الجيش من الداخل وفككوا نسيجه.

وتجاه هذا الوضع، لابد وأن نتخيل تركيا التي رسمت تابلوه الاضمحلال الشامل، الروحي والأخلاقي، الإداري والسياسي، الإقتصادي والعسكري... فقد فقدت قبضتها الأصيلة على دولة كبيرة، وبينما يسري تيار المغامرة الحزينة لليوتوبيا الجرمانية في الدول خارج ألمانيا، وبينما ينتهي بهم الأمر إلى الهزيمة، وضياع كل شئ، سعت تركيا بكل جهدها حتى تحظى فقط بحق الحياة داخل وطنها. فقد طاروا بتركيا التي تبعتهم كالذيل، متعهدين بإنهم سيوصلونها إلى أعنان السماء. وعندما انفجرت طائرتهم في الجو، واشتعلت فيها النار، لم يبق أي شيء، حتى الذيل نفسه.

وهكذا فقد كان هذا كله نتيجة خيال الاتحاد والترقي المجنون الذي يفوق جنونه اليوتوبيا الجرمانية... وفي الوقت نفسه، كان نتيجة اضطراب وسوء حظ هذا السلطان الذي اعتلى العرش العثماني في تلك الفترة...

فهؤلاء الاتحاديون الذين لم يستطع وحيد الدين الإطاحة بهم منذ اللحظة الأولى، كانوا متشبعين ومختلطين بالأجواء والرياح الآتية من الخارج.

والآن ما العمل؟ هل يستقيل الجميع، أم يتوارون بعيداً، أم يُسحبوا بعيداً ويتم القضاء عليهم بسبب الذنوب التي لاتُغتفر، أم يهربون ويتركون الوطن الذي احترق، كما يهرب الجميع من المنزل الذي يشب فيه الحريق؟

قبل كل شئ فإن أول عمل يتم هو الاستقالة، آليس من الواجب ان يُطلب منهم تقديم استقالتهم؟

وهنا أجبر السلطان طلعت باشا على الاستقالة، كما طلب ولي العهد الجديد من أنور باشا تقديم استقالته.

وقُبلت الاستقالتين!...

لكن كان هناك طلب أن يضم مجلس الوزراء الذي سيشكل برئاسة توفيق باشا، اثنين من الاتحاديين وخاصة (جاويد بك) وزير المالية. ويعرضون هذا الطلب بهذه الطريقة، كما يقول طلعت باشا بلسانه:

"ـ إن جاويد بك مطلع وعليم بالمعاملات والتعهدات المالية، وهو يعرف من أين يأتي بالمال وبأي صورة. وإذا أتينا بوزير مالية آخر، فسيضع الدولة في أزمة مالية، نظراً لعدم علمه بتلك الأمور، وهنا ستسوء الأوضاع أكثر."

فقد كانوا يريدون أن يقولوا:

ـ نحن الذين أغرقنا الدولة، والآن نسحب طرفنا، وأيدينا من الحكومة! لكن إذا لم يبق لنا أي شئ، فليبق في الحكومة بجانبكم (جاويد بك من دونمة سلانيك)، وزير ماليتنا الذي يتمتع بكفاءة غير عادية، وشهرته بلغت أرجاء العالم. ليستمر في منصبه، فهو مثل مرهم لداء الدولة المالي، بدهائه المالي والإقتصادي، فهو يصنع الزُبد من الدخان (يصنع من الفسيخ شربات)...

وبفكر مسيطر كهذا، كان الاتحاديون - الذين كانوا واهمين للغاية وجاهلين للعواقب- يريدون أن يكون هناك شخص يساندهم، ليضعوه كرأس كوبري في الحكومة الجديدة...

وإذا بدا السلطان موافقاً على هذا، فإن توفيق باشا لم يوافق، وظل يدافع عن مبدأ التصفية الشاملة للاتحاديين.

استغرق توفيق باشا أسبوعاً من أجل تشكيل مجلس وزراء جديد، كان يروح ويجيء من القصر ليلاً ونهاراً، وكان من المحظور دخول أحد عليه في الأوقات التي يكون فيها مع السلطان، لدرجة أن ما من أحد في القصر، كان يعرف أي شئ مما يدور.

والباشكاتب علي فؤاد توركجالدي الذي اعتاد أن تكون أسرار القصر كلها تحت يديه، انتابته الحيرة لجهله بما يحدث في أجواء القصر، ولم يجد حيلة سوى الاجتهاد في تفسير الوضع، بتوضيح مزاج وحيد الدين حينئذ:

"ـ كان مزاج السلطان وحيد الدين غريباً، أحياناً كان يقول كل شيء فيما يتعلق بمجلس الوزراء، وما يحدث فيه من تعديل، وأحياناً كان لا يقول أي شيء. ومرات عديدة كان يقول نتيجة العمل قبل العمل نفسه. فعندما لاتتاح الفرصة لوجود ثالث بين اثنين، لا يمكن إدراك ماهية ما يحدث."

أول مجلس وزراء وهدنة موندروس

اندهش العاملون في القصر لقدرة السلطان على إخفاء السر، وخانهم ذكاؤهم، واحتاروا عندما رأوه فجأة يأمر بتشكيل الوزارة الجديدة، ويقوم بتعيين عزت باشا من نظار البحرية القدامى و"ياوره الأكرم" صدراً أعظم، ليشكل أول حكومة يؤسسها السلطان الجديد، دون فهم ماقاله من مقدمات.

ياللعجب، ماذا حدث لتوفيق باشا؟ لانعرف!...

دعا السلطان في تلك الأثناء إلى انعقاد "مجلس الأمة" بعد التعديلات التي أجرتها السلطنة، وبتعبير باشكاتبه: "كانت هذه أول وأخر مرة" يظهر فيها السلطان في المجلس.

جرت العادة أن يقرأ منشور السلطان في المجلس طلعت باشا، منذ أن كان صدراً أعظم. وهذه المرة أيضا قرأ هو "الخط" وبعد انتهاء القراءة، نزل السلطان وحيد الدين من مكانه، واتجه بكل وقار تجاه المنصة، وصعد إليها، وبشكل يختلف عن الروايات التي سجلناها من قبل عن حال هذا السلطان وشخصيته، فقد قال للنواب: "بصوت جهوري، قوي" دون أن يغمض عينيه، ودون أن يخفض من صوته:

"ـ مثلما أقسم أننى سأحترم أحكام الشرع الشريف، والقانون الأساسي، وسأصدق الوطن والأمة، فإننى أطلب منكم أن تقسموا أنتم أيضا!".

كان ما قاله كالقنبلة!... صار كل شخص كمن تجمد في مكانه للحظة!...هكذا بدا السلطان، وفي لحظة السقوط كمن يبدع موضة أخرى. فبينما تدعوه الأمة إلى القسم بتوخي الصدق، يطلب هو أيضا نفس القسم ممن وضعهم ممثلين للأمة، إنه على حق. فالحقيقة إنه عندما طلب القسم من هؤلاء الذين وضعهم ممثلين للأمة، فهو هنا يحذرهم من ظلم الأمة، أو هدم الحق.

وأُغلقت جلسة المجلس بهذا التابلوه الذي يصور الأيام الأخيرة للاتحاديين، بتصفيق المجلس الحاد. وعُين رئيسا لمجلس الأعيان، أحمد رضا حبيب الاتحاديين، وعدو الأسرة الحاكمة، الحريص على مصلحته والذي تباعد عن الاتحاديين في الأيام الأخيرة عندما رأى أنه لن يستفيد منهم، واقترب من وحيد الدين في فترة ولاية العهد. واستقال طلعت باشا أيضا، ولم يبدِ أي شخص اعتراضه على تعيين أحمد رضا في ذلك المنصب نظراً لانكسار جناح ساعد المجلس.

عندما كُلف عزت باشا بتشكيل الحكومة، استمر الاستعداد عدة أيام بسبب المناقشات التي استغرقت وقت طويل لبحث مسألة شيخ الإسلام، وفي النهاية تم تأسيس مجلس الوزراء.

وضم مجلس الوزراء الجديد الذى عُين فيه عمر خلوصي أفندي الداغستاني في منصب شيخ الإسلام هذه الأسماء الهامة فانتبه إليها، جاويد بك في وزارة المالية، وفتحي بك (عُرف في عهد الجمهورية بـ فتحي أوقيار)[473] في وزارة الداخلية، ورؤوف بك[474] (وهو رؤوف أورباي، بطل البارجة الحميدية) في وزارة البحرية.

هذه المجموعة المؤسسة للحكومة الانتقالية التي دعى السلطان وحيد الدين لتشكيلها بهدف وقف الحرب، وعقد الهدنة، امتثالاً لرغبة حلفائه، هى مجموعة ملطخة، مشوشة، تضم الإئتلافيين وبقايا الاتحاديين. وكانت هذه الحكومة عبارة عن تمهيد، وتجربة من جانب وحيد الدين، حتى يستطيع بعد الأزمة، لعب دور منقذ الوطن في الداخل والخارج بسهولة.

وأصبح أول عمل لعزت باشا، والمهمة الوحيدة التي اضطر للاضطلاع بها، هو طلب الهدنة من دول الحلفاء. ولهذا أُختير الجنرال (تاونزهند) - الذي كان أسيراً في تركيا- بصفته أنسب شخص يقوم بالوساطة لأنه عاش بين الأتراك، وأُعجب بهم. وأُحيل الأمر إلى قائد الأسطول الإنجليزي في البحر الابيض، وبدأت المفاوضات حول شروط الهدنة.

ورغب السلطان في تعيين الداماد فريد باشا في اللجنة الأولى التي تناقش شروط الهدنة، لكن الصدر الأعظم الجديد أبدى اعتراضه على هذه الرغبة وقال:

"ــ هذا رجل مجنون، كيف نعهد إليه بمثل هذه المهمة الهامة؟"

---

473 - فتحي أوقيار: هو صديق مصطفى كمال في المدرسة، وعينه بعد ذلك سفيراً لسنوات طويلة، ثم رئيساً للوزراء في عهد رئاسته للجمهورية، ثم زعيماً شكلياً للمعارضة. فقد كان رئيساً لحزب المعارضة في وقت أتاتورك. وكان أنور يبغضه لصداقته لمصطفى كمال. انظر الرجل الصنم، مرجع سبق ذكره، ص 58

474 - كان رؤوف بك ضابطاً في البحرية، وعضوا بارزاً في الاتحاد والترقي، ورئيساً للوفد الذي وقع هدنة موندوروس. وهو أحد الضباط المقربين من أتاتورك منذ بداية الحركة الكمالية، وأحد الشخصيات البارزة في هذه الحركة، وكان وزيراً للبحرية في ذلك الوقت لكنه كان ضد أتاتورك في موقفه من السلطنة العثمانية والخلافة. انظر ماجدة مخلوف، الخلافة في خطاب أتاتورك، مرجع سبق ذكره، ص 54

وكان رد السلطان إنه لا ينكر أن فريد باشا له بعض الأفكار المضحكة، وإنه إنسان بعيد عن الجدية والوقار والإدراك، لكنه إنسان قابل للتوجيه.

"ـ فلنوجهه نحن!"

ويتشاور عزت باشا مع فريد باشا. ويأخذ الأمر بإصدار تعليمات له. وهاهو ماقاله فريد باشا خلال لقائه مع عزت باشا في مجلس الأعيان - ربما بحسن نية- لكن الحقيقة كان شيئاً مضحكاً:

"ـ إذا لم تضمن الهدنة الحفاظ على سلامة أراضي دولتنا، سوف أطلب سفينة حربية على الفور، وأسافر إلى لندن، وأقابل ملك إنجلترا، وأجعلة ينفذ رغباتي عندما أقول له، أنا كنت صديق قديم لوالدك، وأنتظر منك تنفيذ رغباتي."

وأمام هذا الموقف (الدونكيشوتي)، طار عقل عزت باشا من رأسه. واجتمع النواب على الفور، ويرفض النواب الموجودين إرسال إنسان كهذا ممثلاً عن تركيا إلى قوات الحلفاء للمفاوضة بشأن شروط الهدنة.

وكانت النتيجة أن تم تشكيل وفد برئاسة رؤوف بك، ناظر البحرية، للذهاب إلى موندروس التي حُددت كمكان لإجراء المفاوضات بشأن شروط الهدنة.

وموندروس او (مودروس) هى ميناء صغير في جزيرة ليمني.

أملى السلطان وحيد الدين على ممثلي الوفد، إنه يوجد مادتين لابد وأن يكونا هما الأساس الذي لابد وأن نركز عليه دفاعنا وهما:

1 ـ ضمان المحافظة على حقوق الخلافة الجليلة والسلطنة السنية والأسرة العثمانية...

2 ـ بالنسبة لبعض الولايات، فأنا أرى أن يكون استقلالها إدارياً داخلياً، وليس سياسياً حتى لايكون استقلالاً هشاً، في قبوله إهانة للعالم الإسلامي.

وفي صباح يوم 31 اكتوبر عام 1918، استدعى السلطان باشكاتبه، وشرح له إنه يشعر بالقلق لأن البرقية الثانية التي أخطره الصدر الأعظم إنها جاءت من الوفد الذي في موندروس، لم تصل إلى القصر، ويقول مايلي:

"يجدر بحضرة الصدر الأعظم ألا يهملنا هكذا! فقد فهم طلعت باشا جيداً أهمية المقام والموقع والشخصية، ولكن متأخراً قليلاً."

من هذه الكلمات يظهر مدى قوة شخصية وحيد الدين، ومدى فهمه لمعايير الشخصية الجيدة، فهو هنا يريد إفهام الصدر الأعظم إنه سيء مثل طلعت باشا، وأنه اضطر لقبوله في الوفد. ثم يضيف السلطان ما يلي:

" سل وزير الخارجية بالتليفون، ما الأسباب التي وراء عدم إرسال البرقية حتى الآن، فإنني أنتظرها منذ 48 ساعة؟".

ثم تُفهم حقيقة الأمر: بسبب عدم حل شفرة البرقية المرسلة، تم التخابر من جديد، ولهذا لم تصل البرقية إلى القصر.

وتستمر مباحثات الهدنة أربعة أيام، ثم يعود أعضاء الوفد إلى استانبول.

في 10 نوفمبر1918، بعد صلاة الجمعة، رأى أعضاء الوفد إنهم إذا ذهبوا إلى القصر لعرض ماتم بشأن مباحثات الهدنة، فإن السلطان لن يستقبلهم، نظراً لوجوده في ذلك الوقت مع أسرته في الحرملك.

ولم يرغب السلطان في مقابلة أعضاء الوفد، بوصفهم الأطراف التي قبلت شروط هدنة تمثل أول وثيقة لسقوط الدولة، ولا هم أيضا استطاعوا أن يواجهوا السلطان...كان هم السلطان وحيد الدين واضطرابه كبيراً وعميقاً، فما حدث كان وبالاً، لم يكن له يداً فيه...

فى ذلك اليوم كان رؤوف بك يجلس في حجرة رئيس موظفي القصر، ويقول ذلك الخبر، كمن يقول بشرى.

ـ الألمان تركوا لنا المدرعة جوبن[475] (ياووز)!

انظر إلى حالة الروح التي بلغت مرحلة محيرة لدرجة أن شيئاً صغيراً وبلا معنى، يصبح وسيلة تعزية. فالحرب العالمية دخلناها بهذه المدرعة التي شهدت سقوط دولة كانت خالدة على مدى قرون عديدة، سقوطاً مدوياً، ثم بعد ذلك نرى أن وجود هذه المدرعة في أيدينا نعمة!

ومن أثقل شروط هدنة موندورس، تلك المادة التي تقول إنه يمكن لقوات الحلفاء احتلال ماتراه مناسباً من أراضي الوطن التركي لضمان أمنها، وهى مادة تفتح الطريق إلى استانبول والمواقع الهامة، وتجرد الجيش التركي من السلاح، وتضع اليد على وسائل الاتصال والنقل. وهكذا رقدت تركيا مقيدة بالسلاسل على مائدة الصلح أمام جلاديها.

عندما علم وحيد الدين بشروط الهدنة التي وقعت عليه كالصاعقة، وجعلت المسبحة تسقط من يده، استدار إلى الوراء حتى لا يظهر حاله، وظل هكذا لفترة لم ينطق خلالها بكلمة واحدة.

واجتمع طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا، وهم المسئولون الأصليون عن الكارثة، في مصيف أنور باشا. وفي الصباح ركبوا سفينة حربية ألمانية، وتوجهوا عبر البحر الأسود وكوستانجا إلى ألمانيا.

وفي وطن كالأسير المقيد من كل جانب، وطن مشوه تقطعت أوصاله قطعة قطعة، وكل قطعة صارت بلا رأس ولا روح، كان هناك رأس وحيد شعر بكل أبعاد الكارثة بين وزراء غافلين وحمقى، هو السلطان محمد وحيد الدين السادس الذي سيخرج بعد ذلك وأمام اسمه صفة "خائن الوطن"...

---

[475] - أطلق رجال الاتحاد والترقي اسم السلطان سليم (ياووز) على الطراد الألماني جوبن الذي استطاع أن يتخلص من مطاردة الأسطول البريطاني له في البحر المتوسط، في بداية الحرب العالمية الأولى 1914. انظر، عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 506

وأمام فرار رجال الاتحاد والترقي كالقتلة، تاركين الوطن الجريح ممدداً على الأرض، أبدى عزت باشا استعداده للقضاء على بقايا الاتحاديين الذين في مجلس وزرائه. فهذه الحكومة المؤقتة انتهت مهمتها بعد الكارثة، والاضطرار لتوقيع هدنة موندروس. فأطاح عزت باشا بوزير العدل في هذا المجلس، وبشيخ الإسلام خيري أفندي، ووزير المالية جاويد باشا، وحتى فتحي بك، فهو يدرك أن ما من حيلة لإنقاذ هوية هذا المجلس الباهت كله سوى بالاستغناء عن مجموعة من وزرائه وتحديثه. ويبقى الخوف من رؤية قبوله البقاء في منصبه، تضحية منه.

إن السلطان الذي طلب تغيير لقب أنور باشا "وكيل القائد الأعلى"، بعد صعوده العرش، ورأى أنه يكفيه - بعد أن أصبح القائد العام، وتوليه نظارة الحربية- لقب "رئيس الأركان العامة للجيش"، ظل محتفظاً بشخصيته القوية، وبسيطرته، برغم الشروط التي قيدت يديه وقدميه ولسانه، والتي جاءت في أعقاب أول حكومة انتقالية. عندما رأى هذا السلطان أن مذكرة استقالة حكومة عزت باشا مكتوبة بكيفية يبدو منها أن السلطان هوالذي اضطرها للاستقالة، وهو ما يُعتبر مخالفاً للقانون الأساسي، بلغ وزير الخارجية الذي أحضر ورقة الاستقالة بهذا القرار الحازم:

"إنني أسف، إن إخطاري بالاستقالة بدون الحضور، يُعد مخالفاً لأحكام القانون الأساسي. وبناءً عليه أنا مضطر لقبول استقالة الوزارة. ولأنه لابد من رفض جميع المستندات غير الصحيحة وإعادتها، فإنني أعيد هذا المستند."

وحكومة عزت باشا التي اضطرتها الظروف الداخلية والخارجية للتباعد عن السلطة، وعندما حاولت مقاومة هذا برغم كل شيء، وخاصة بوحي من جاويد بك، تجيئها الضربة من وحيد الدين، وهكذا، ولكونه أسوأ حظاً من أي سلطان عثماني، فعندما اتضح أنه أول سلطان ذو شخصية يلتزم بتجربة المشروطية، يضطره سوء حظه مرة أخرى إلى عدم المقدرة على إبراز هذا المعنى، مع دنو لحظة الانهيار التام للدولة.

بعد يوم من التخلص من حكومة عزت باشا، مكث السلطان متوتراً، مريضاً في جناح أسرته، ولنمعن النظر في الكلام الذي قاله لكاتبه:

"ـ إن لم يكن في إمكاني أن أخدم بلدي ومملكتي، كنت لا أقبل هذا الحمل الثقيل، وأظل مرتاحاً في چنگل كوي. إنني لم أتول السلطنة ليُكتب على قبري بعد انقضاء عمري كلمة سلطان!".

ثم يضيف بصوت كله إحساس وتأثر.

" ـ والله إنني أشفق على طلعت باشا!".

ويصبح الصدر الأعظم هذه المرة، توفيق باشا[476]...

---

476 - أحمد توفيق باشا: سياسي تركي. ولد في استانبول عام 1845م، وعمل بالسلك العسكري حتى وصل إلى رتبة ملازم ثان، ثم انتقل إلى وزارة الخارجية، وعمل في وظائف دبلوماسية في عدد من السفارات العثمانية بالخارج. وعمل سفيراً في لندن عام 1913. وعُين وزيراً للخارجية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ثم عين صدراً أعظم "رئيس الوزراء" أربع مرات، أولها في عام 1909م لمدة 21 يوماً، والثانية في عام 1918م لمدة شهرين، والثالثة في عام1919م لمدة شهرين، والرابعة مدتها سنتان بدأت من 1920م وانتهت في 1922م. وكان أخر صدر أعظم

في تلك الأثناء عاد مصطفى كمال باشا إلى إستانبول. وتردد أن عزت باشا هو الذي دعاه للحضور... وعندما نزل من القطار في حيدر باشا، رأى في مياه استانبول أكثر من 60 قطعة من السفن الحربية الخاصة بقوات الحلفاء. فركب زورقاً قديماً يعمل بالموتور. ومر على (سيركاجية)، ومن هناك صعد إلى الباب العالي. كان (فتحي بك) وزير الداخلية، عند (عزت باشا)... وتحدث الثلاثة منفردين.

يقولون لمصطفى كمال باشا:

ـ نحن على وشك الرحيل، فالسلطان كلف توفيق باشا بتأسيس حكومة جديدة.

يدرك مصطفى كمال باشا الوضع، ويرغب في أن يصبح وزيراً للحربية في الحكومة الجديدة. وهذه هى الحكمة من مجيئه إلى استانبول، تاركاً الجبهة التي سقطت.

ولنتعرف بوضوح، من المذكرات التي أملاها لأنور بهنان شابوليو، على أمله هذا.

مرة أخرى مصطفى كمال باشا و...

في كتاب (الانقلاب وتاريخ الصراع القومي) لأنور بهنان شابوليو الذي استمع لمذكرات مصطفى كمال باشا كما قالها، والتي أبدى فيها رغبته فى تولي نظارة الحربية، في رواية سمعها وعلم بها كل رجل في عصره، كتب في (صفحة 273، السطر 16) ما يلي:

"ـ كان مصطفى كمال يريد أن يصبح وزيراً للحربية، وتم التباحث بشأن هذه المسألة. وذهب مصطفى كمال باشا في نفس اليوم إلى مجلس المبعوثان. لكن في ذلك اليوم سقطت حكومة عزت باشا، وتم تشكيل حكومة توفيق باشا. ولم يستطع مصطفى كمال دخول مجلس الوزراء. اكتفى مصطفى كمال بهذا، ولم يعد يفكر في أمر هذه الحكومة، أو أن يكون مؤثراً فيها."

كان واضحاً أن مصطفى كمال يريد أن يحظى بمنصب في الحكومة التي تم تشكيلها في عهد وحيد الدين، وأنه كان يرى أن كل آماله تنحصر في هذا، ويكفي هذا التحليل لتوضيح كل شئ:

إن مصطفى كمال كما أخبرنا بفيه، كان يريد من وحيد الدين أن يكون على رأس الجيش، وأن يوليه هو منصب "القائد العام لأركان الحربية"، وبالقطع فإن الشخص الذي يطلب هذا يمكن أن يرغب في أن يكون في وزارة الحربية، أو في الصدارة العظمى في أحد الحكومات التي سيشكلها وحيد الدين.

شكل توفيق باشا حكومة ضمت مجموعة من الرجال غير المعروفين، عدا الفيلسوف رضا توفيق الذي عُين فى نظارة المعارف. فقد كانوا عبارة عن شخصيات مجهولة، لم

---

http://en.wikipedia.org/wiki/Ahmed_Tevfik_Pasha في الدولة العثمانية. توفي عام 1936. انظر بتاريخ 2010/2/18

يُعرف أي شئ عن قوتها ومؤهلاتها، لكن كان معروفاً عنها ردائتها... وكان من بينها أيضا شخص من طرف الأقليات...

والوقت الذي صعد فيه هؤلاء الرجال على كرسي السلطة في الحكومة، كان من أسوأ الأوقات... فكما أوردنا آنفاً، كانت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية موجودة في مياه استانبول... وكانت معظم هذه السفن ترسوا أمام قصر دولماباغچة، وكانت مدافعها موجهة تجاه القصر، وتجاه نواحي استانبول.

وكان منظرمرور قائد الجيش الفرنسي، الجنرال (فرانشيه ديبيريه)[477] من شارع (باي أوغلي) في طريقه إلى السفارة الفرنسية، منظراً مؤلماً للغاية... تُرى هذا الجنرال وهو راكباً حصانه الأبيض، منطلقاُ بلا عنان، هل كان يريد أن يقلد السلطان محمد الفاتح، أم هو مولع بتقليد الفاتحين الرومان القدماء... وفي داخل حلقة تضم المصفقين، من اليهود والأرمن والرومان، الذين عرفناهم كمواطنين، ورفقاء في الوطن والبلد، ولانزال حتى الآن ننظر إليهم من هذا المنظور، تبادل الطرفان السلام. وفي بعض الأماكن، كان هذا الجنرال يدوس بأرجل حصانه على الأعلام ذات الهلال والنجمة. لم يكن قائداً عسكرياً ذو وقار وهيبة، بل كان كالممثل الذي يقوم بدور المنقذ، فيُخرِج كفرة أحياء المدينة، على العباد الأتقياء، الشرفاء.

ويرسم أداء هذا الجنرال الفرنسي، سطور انهدام الدولة العثمانية التي سعوا إلى تقويضها من الداخل والخارج على مر العصور، هذا فضلاً عن التأثير الخارجي، عندما أفسحواالطريق للتأثير الداخلي للانطلاق إلى الخارج، كما يرسم في مخيلته سطور انتصار الصليب على الهلال.

فى تلك الأثناء يتساءل السلطان الذي يشاهد من نافذة القصر بعيون دامعة، أوراق الخريف الساقطة، آليس هذا مكانه؟

هذا الجنرال سليل الأمة الفرنسية التي أنقذ جدي السلطان سليمان القانوني، ملكها فرانسوا الأول بإطلاق سراحه بعد توسلات وتضرعات أمه، بينما كانت يداه ترتعدان.

---

[477] فرحتهم بدخول مقر الخلافة العثمانية، وفي وقتها أظهر اليونانيون - لم يُخفِ بعض القادة البريطانيين والفرنسيين استانبول شماتتهم بهزيمة الأتراك، وتجلى ذلك حين أهدى السكان اليونانيون في العاصمة جوادًا أبيض من سكان الجنرال فرانشيه ديبيريه في عام 1919، فدخل العاصمة مزهوًا على صهوة جواده، وكان دافعهم إلى للقائد الفرنسي وأراد هؤلاء الشامتون عام 1453م، دخلها راكبًا حصانًا أبيض، القسطنطينية فتح حين محمد الفاتح السلطان أن هذا وفرانشيه ديبيريه (1856-.ما حدث من قبل أن يكون احتفالهم بدخول القوات البريطانية وحليفاتها على غرار 1942) هو مارشال فرنسي قاد الجيش الخامس الفرنسي في موقعة المارن عام 1914، وجيش الشرق عام 1916، وجيش الشمال عام 1917. وفي يونيو 1918 تولى القيادة في سلانيك حيث توقف الحلفاء عن الزحف، فهزم الجيوش البلغارية، وقاد جيوش الحلفاء حتى النصر. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص 1280

فهل جاء الآن وعلى هذا النحو ليدفع الدين الذي على أمته، إلى الأتراك وإلى التاريخ التركي؟

جاءت حكومة توفيق باشا، بعد أول حكومة انتقالية، في وقت انتشرت فيه جميع أنواع الأزمات. جاءت مع فاجعة سقوط الدولة العثمانية، وظهور الكوارث المتخلفة عن بنية داخلية متهالكة. فقد توقفت تماماً السفن والقطارات والترام والأنفاق وجميع وسائل المواصلات نظراً لأزمة الفحم التي ظهرت فجأة في استانبول، وكأن المدينة عادت إلى حياة العصور الوسطى. كان الأهالي يسيرون على أقدامهم في أنحاء استانبول، وطيلة سيرهم يصبون لعناتهم على الاتحاديين، ويقولون:

"ـ لم يترك الاتحاديين حجراً فوق حجر في البلد، ولم يتركوا لنا حتى الرأس فوق الكتف!..."

وحكومة توفيق باشا عجزت - مع غبار دخان سقوط الدولة- أن تفعل أي شيء، ولم يبد أحد الأفراد التافهين الذين شكلوا أعضاءها، استعداداً لمجرد التفكير في حل.

فهؤلاء الأفراد كانوا بتعبير باشكاتب القصر:

"ـ كانوا ضعفاء إزاء الوضع الخطير، وعاجزين عن التغلب على المشاكل الخطيرة التي واجهتهم دفعة واحدة..."

يالهم من أفراد!

في هذا الوضع السيء، صارت القضية الأساسية هى مصير مجلس المبعوثان الذي هو مؤسسة تضم الاتحاديين...

هل يستمر هذا المجلس أم يُحل؟

إن حل المجلس - كما تقول إحدى رسائل البحث- في وطن تحت الاحتلال يؤدي إلى قطع العلاقة بين أطراف الوطن الواحد ومركزه، فيسهل وقوع هذه الأطراف في يد الأعداء، وتصبح أطراف الوطن معزولة وبعيدة عن مركز القرار الوطني.

وهناك آراء أخرى مناقضة لتلك الرسالة تقول، إنه لايجوز أن يعمل الاتحادي في المجلس مرة أخرى، ووجوده يعني أن الحكومة غير شرعية ولاتستطيع أن تعوق سياسات المجلس. ولذلك من الأفضل في وقت الكارثة أن تتوحد الأراء، ولا يكون هناك قطب مخالف بين القوى المتحدة، لذلك يُفسخ المجلس. والمادة السابعة من القانون الأساسي تخول للسلطان هذا الحق. والمسألة بسيطة وفقاً لوجود السبب، كما تقول المادة: "لدواعي سياسية"، ويكفي أن يصدر السلطان "خطاً همايونياً".

في 21 ديسمبر عام 1918 علمت حكومة توفيق باشا أن المجلس ينوي إسقاط الحكومة، فأسرع توفيق باشا، وسبق المجلس، مهرولاً إلى القصر حتى يقوم السلطان بحل المجلس.

ويجعل السلطان الصدر الأعظم يقرأ المادة السابعة من القانون الأساسي الموجود دائماً على مكتبه، ويقول له ما يعني أنه موافق:

"ـ إن هؤلاء (المبعوثين) يريدون أن يُظهروا لمسة وفاء (للاتحاديين) أولياء نعمتهم. وبناءً عليه يمكن فسخ المجلس، دون انتظار قرار إسقاط من جانب هؤلاء".

ويصدر قراره:

ـ نظراً لدواعي سياسية اقتضت الضرورة حل مجلس المبعوثان. بالنظر إلى الفقرة الخاصة بالمادة السابعة المعدلة في قانوننا الأساسي التي تقول إن من حق السلطان فسخ المجلس إذا اقتضت الضرورة ذلك، فإنني أقوم بحل المجلس المذكور، بموجب القانون الأساسي اعتباراً من اليوم.

21 كانون الاول 1334

م . وحيد الدين.

وفي اليوم التالي يقول السلطان وحيد الدين لباشكاتبه، إن طلب الحكومة، حل مجلس المبعوثان الاتحادي، يبدو أنه نتيجة تحريض الحلفاء وتأثيرهم:

"ـ إن تفكير الأجانب ليس مثل تفكيرنا، فعندما يضعون شيئاً في رؤوسهم لا يتخلون عنه أبداً، فإنهم يقولون كيف تتمسكوا بمجلس المبعوثان، وهو المجلس الذي انتخبته الجمعية القاتلة؟".

بعد عدة أيام، كانت من ضمن "الأمور المعروضة" التي جاءت من الباب العالي، لائحة القرار السلطاني، ومضبطة مجلس الوكلاء،وكانت تبرز ذلك المفهوم:

" ـ لابد من تأجيل الانتخابات الجديدة لما بعد الصلح..."

وتطلب دول الحلفاء من السلطان تشكيل ديوان حرب، مهمته التحقيق في جرائم الحرب التي وقعت أثناء رئاسة المدعو الفريق خيرت باشا. وفي 19 يناير عام 1919، يستدعي السلطان رئيس موظفي القصر وباشكاتبه، ليعلمهم بأول أمر مؤلم من دول الحلفاء المنتصرة، فيقول:

"ـ نظراً لقيام الثورة ضد البلشفية في روسيا، فسوف يتم استقدام جنرالاً و400 ضابطاً من فرنسا... وسيكون لهم مقر قيادة عامة في استانبول... ويطلبون إخلاء الأجنحة الخاصة بالأميرات والأمراء التي في (أورتاكوي)، ومصيف الأميرة فهيمة، وشقة عثمان فؤاد أفندي في (چيراغان)، ومصيف الأميرة نجية حرم أنور باشا، من أجل إقامة هؤلاء. وقد أرسلوا إنذاراً إلى الصدر الأعظم بخصوص هذا الأمر. ماهو مصير أفراد الأسرة الذين يقيمون في هذه الأماكن منذ زمن طويل؟ هل سيبقون في الشارع؟ إنني أمرت الصدر الأعظم بتخصيص قصر (بايلربايي) لإقامة الفرنسيين بدلاً من الأماكن المطلوب إخلائها."

كان موقف دول الحلفاء الذين بدأوا بإلقاء أفراد الأسرة العثمانية إلى الشارع، يثير الخوف...

فقد تجمد رئيس موظفي القصر، والباشكاتب في أماكنهما من الدهشة. ولم يستطع الباشكاتب تحمل هذا المشهد المؤلم، وبتعبيره يقول- وهو يجهش بالبكاء- إنه من غير المناسب أن نترك "قصر مهيب من مفاخر السلطنة" ليقيم فيه ضباط جيش العدو، ويدفع بالآتي:

"ـ حاشا لله يا سيدي! إن قصر (بايلربايي) هو قصر مخصوص لمقام السلطنة! فأذن لي ألا تفعل هذا! ولتأمر سيادتك بإعطائهم بدلاً منه قصور(باري وفاليدا باغي وكاغيدخانه)!..."

وبعد هذا الطرح ينخرط الباشكاتب في البكاء...فقد كان هذا بمثابة، كما يقول بتعبيره هو شخصياً:

"إنها علامة من علامات انقراض السلطنة السنية."

وهنا يرد عليه هذا السلطان المحنك الذي نضج في فرن الهموم التي حملها، هذا السلطان الناضج الذي يعلو فوق الصغائر، والذي لم يفقده اضطرابه، أصالته وإحساسه الرقيق:

"ـ يا عزيزي أي رأس تلك التي تحملها فوق كتفيك؟ نحن في حالة أسر! فإنهم إن طلبوا حتى قصر (دولمة باغچة)، ماذا سنفعل؟ فقد أمرت منحهم أجنحة (إيهلامور وكوكسو وبيكوز)، لكنهم رفضوا!".

ويواصل حديثه قائلاً:

"ـ قم بلقاء ولي العهد عبد المجيد أفندي[478] واخبره بالوضع! فلابد من إطلاعه على الأمر لأنه يخص الأسرة العثمانية!".

ويرد ولي العهد بقوله:

"ـ إن مارآه السلطان هو المناسب، لكنني أود أن أعرض رأيي في هذا الأمر. بما أن هيئة الوكلاء، وناظر الخارجية عاجزون عن تسوية هذه المشاكل الصعبة، فإنني أقترح أنكم تتفضلون باستشارة الأعيان، وسائر الأشخاص الذين تثقون في رأيهم."

وكان رد السلطان وحيد الدين على هذه الكلمات البلهاء غاية في الرقة والذكاء، إذ يقول:

"ـ ياعزيزي، هل هناك وقت لاجتماع الأعيان والتباحث في الأمر. إنهم يريدون إخلاء هذه الأجنحة قبل يوم الخميس بأي شكل. وإذا لم يتم هذا، سيقومون بإخلائها بأنفسهم، وينتهكون حرماتنا."

ويقول السلطان بعد هذا الرأي (الواقعي) لأقصى درجة، موضحاً عجزالوكلاء:

"ـ إنني أرى أن هؤلاء الوكلاء غير أكفاء! لكن من يحل محلهم؟ هناك خمسة أو ستة أشخاص يمكن أن يعملوا بجد في الدولة، لكنهم لا يريدونهم أيضا لأنهم اتحاديون!".

---

[478] ـ الخليفة عبد المجيد الثاني: ولد عام 1868، وهو أخر خليفة عثماني، وأخر ولي عهد. عندما تولى ابن عمه السلطان محمد وحيد الدين العرش، أصبح هو ولياً للعهد، واختير خليفة من قبل المجلس التركي الكبير في عام 1922، بعد رفض السلطان محمد وحيد الدين تولي منصب الخليفة بعد إلغاء السلطنة، ورحيله عن استانبول. وبعد إعلان الجمهورية تم نفي عبد المجيد إلى بارس حيث توفي هناك عام 1944. انظر على حسون، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، مرجع سبق ذكره، ص 286

برغم كراهية السلطان ونفرته من الاتحاديين، كان يرى أن فيهم من لديه القدرة على العمل والتصدي للأمر، وهذا يُظهر لنا أن السلطان وحيد الدين لم يعرف سوى الحق والحقيقة!...

في تلك الأثناء يأتي خبر يقول، إنه لم تتم الموافقة على الأبنية التي في نواحي الأناضول، أو قصر (بايلربايي)، وإنهم مصرون على الأوامر السابقة، وإن الإنجليز يريدون مصيف الخديوي الذي في (باباك).

وفي اليوم التالي يستدعي السلطان الباشكاتب لمقابلته لتوضيح الأمر، وبينما يوضح إنه يلاحظ عليه آثار بكاء الأمس، يقول هذا الرأي الذي يعد أقيم وأدق رأي في القضية:

"ـ إنك بالأمس بكيت، فقد كنت متأثراً جداً. في رأيي إنهم بعد أن دخلوا إلى مُلك آل عثمان، فلن يكون هناك فرق في أن يدخلوا إلى نادي على الحدود، أوإلى قصري أنا!".

الواقع إن هذه الكلمات القليلة شاهد كافٍ على أن السلطان محمد وحيد الدين السادس، هو صديق لوطن كبير، يتضح حجمه من قول حضرة عمر بإنه: "الجدي الذى يحيط بساحل دجلة"، وأنه أخذ على عاتقه مسئولية كبيرة بحجم هذا الوطن.

وانهالت البرقيات على القصر الواحدة تلو الأخرى، من كل أنحاء الوطن الذي سقط، وحتى من المسلمين الذين في الخارج. فبينما يطلب مسلمي (أورلا) إنقاذهم من مضايقات المسيحيين اليونانيين، تأتي صيحة من البوسنة والهرسك باسم 300 ألف فرد يطلبون حماية حقوقهم الملية. وفي ناحية أخرى يقول 6 آلاف من (فان)، إنهم أُخرجوا من منازلهم في (بوردور)، وتُركوا بلا طعام أو دواء، بعد قطع مرتباتهم منذ 8 شهور.

وبينما يعرض الباشكاتب هذه البرقيات على السلطان، فجأة تتدحرج الدموع على وجنتي هذا السلطان الوقور، الرصين، وينحني الباشكاتب انحنائتين أمام السلطان الذي يبكي.

وفي ذلك الوقت يخاطب السلطان محمد وحيد الدين باشكاتبه الذي كان يبكي بالأمس بحرقة شديدة، بهذا القول الذي ينم على الاحترام:

"ـ بالأمس أنت بكيت، واليوم أنا أبكي! ماذا أفعل؟ ما من قوة بشرية أو حتى قوة نبوية تستطيع تحمل هذا! إن هذا يحتاج إلى قوة إلهية!..."

من جاء بعد وحيد الدين، واستطاع أن يحاسب نفسه تلك المحاسبة عن المصائب التي أصابت الناس، واستطاع إبراز هذا المفهوم؟

محاسبة السلطان لنفسه

تستمر هذه الهموم التي لاتتحملها طاقة البشر، بل وتزداد وطأة كل يوم. ويقدم توفيق باشا الصدر الأعظم فجأة استقالته، ويؤسس في أعقاب ذلك مجلس وزراء آخر بتعيينات جديدة. وكانت هذه مجرد خدعة بسيطة، الهدف منها تعيين وزراء جدد والإطاحة بالوزراء القدامى.

بعد يوم من تأسيس مجلس الوزراء الثاني الذي أسسه توفيق باشا، تبدأ الصحف في انتقاد هذا التعديل، وفي مقدمة الصحف الناقدة كانت صحيفة (وطن). كان يرأس هذه الصحيفة أحمد أمين يالمان، وهو أيضا رئيس تحرير صحيفتين تصدران لأطفال الأناضول باسم (حق الطريق والأخوة عاصم وأوز). كان أحمد أمين قد جاء منذ فترة من أمريكا، وبعد مدة وضع قلمه المنحوس تحت تصرف المؤسسة اليهودية، وأسس في الجريدة أول مقر لها، وأخذ يدافع عن استقلال الأكراد والأرمن، ويطالب بوضع تركيا تحت الحماية الأمريكية. وبكلمة واحدة، أراد الاستقلال والابتعاد عن الوحدة.

ويوضح هذا القلم أن التغيير الذي حدث في مجلس الوزراء، تم بإيحاء من شخص اسمه رفيق بك، وهو من المقربين للسلطان. ويقول إنه تم تعيين ثلاثة وزراء في المجلس الجديد مشهورين بفسادهم. ولهذا لم يوافق الصدرالأعظم على تعيينهم، لكن السلطان وافق على ذلك نتيجة لضغط المقربين له.

أحضر السلطان الصحيفة من الحرملك وأطلع عليها الباشكاتب، واستدعى أيضا رئيس موظفي القصر، وقال لهم مايلي عن رئيس التحرير المعهود:

"ـ ما علاقة هذا الرجل بالدولة من ناحية السياسة والدين؟ فهو يحمل الجنسية الإسبانية، وهو من دونمة سلانيك!"

وهكذا صار هم أحمد أمين يالمان- وهو العدو الكبير، وكاتب هذا الأثر الذي هو عبارة عن إفساد للوطن باسم (وطن)- منذ ذلك اليوم، وحتى اليوم الذي سيدفن فيه في مقبرة اليهود، هو قلع الروح التركية من جذورها، وإفساد وحدة الأتراك، ورد السائرين في طريق المقدسات، والقومية عن مسارهم.

ويضيف السلطان قائلاً:

"ـ هل أنا أتشاور أبداً في أمور الدولة مع رفيق بك. فإنني أخفي عنكما أنتما الاثنان ما يدور بيني وبين الصدر الأعظم برغم كونكم من أركان القصر... إن مهمتكم تكذيب ما نُشر بصورة مناسبة."

إن السلطان وحيد الدين الذي يحمل على كتفيه في كل لحظة حطام الدولة التي تهدمت، يزداد حمله ويتضاعف همه وحزنه يوماً بعد يوم.

وهاهو السلطان يفرغ ما بداخله لكاتبه فيقول له:

"ـ إن الأجانب لا يؤتمن جانبهم... الله يعلم ما أتحمله ليلاً ونهاراً، وأعلمه أنا أيضا! فقد جعلونا نحل مجلس المبعوثان نتيجة ضغطهم علينا. يعلنون عن أفكارهم صراحة، وبلا إحساس، إنني حاكم دستوري، ولكنهم يعاملونني كأنني حاكماً مطلقاً. ويرجعون إلي مباشرة. وعندما أبحث أي أمر من ناحية دستورية، يواجهوني بقولهم أي دستور هذا، إننا نعرفك أنت فقط، فأنت السلطة الوحيدة التي أمامنا، والتي نرجع إليها، ونحن نعهدك طاهراً ونظيفاً. يعني يريدون أن يقولوا، إنك إن لم تنفذ كلامنا فلن نعترف بوجودك. لابد من تحمل هذه الأحوال من أجل إنقاذ مستقبلنا. ومن ناحية أخرى فإننا عندما نرجع إليهم في شئ لا يستجيبون في الحال، بل يردون بقولهم إن الجنود الموجودين هنا هم المكلفون بالأمر. صحيح إنني أجلس فوق ريش نعام السلطنة، لكن لا

أخفي عليك، إننى أجلس فوق رماد الوطن المشتعل! وأرجو ألا يتم الإدلاء بهذه المعلومات إلى أحد من الشعب، أو مناقشة هذا مع أحد. بالقطع ذات يوم سيكتب التاريخ هذه الحقائق. فإنني أقول لك أنت فقط هذا الكلام، ولا يجب الإفصاح به لأي أحد، وذلك لأنني أثق بك أنت فقط. الواقع إن المرحوم أخي كان عرشه واقعاً تحت ضغط أغلبية القوى الداخلية. لكن أنا أواجه قوة أقوى من تلك القوى بمراحل عديدة، وإذا كنت أنا من بعده لا أستطيع أن أدير أمور الدولة بكل عدل وأمانة وعدم تحيز، فوالله ما قبلت هذا الحمل الثقيل طوال عمري. إنني أعرف المسافة التي بين عرش السلطنة، ومغتسل الميت... أنت أيضا رأيت بعينك فقد كان العرش في جانب، وفي الجانب الآخر كان يقبع التابوت أيضا."

هذه الكلمات التي قالها السلطان محمد وحيد الدين السادس- وهي عبارة عن أقسى حساب مؤلم للنفس- تثبت أنه كان إنساناً وحاكماً عظيماً، كان صديقاً للشعب برغم إنه كان أسوأ سلاطين آل عثمان الـ 36 حظاً، بل إنه أسوأ حظاً من البشر جميعاً.

كان واحداً من أعظم الحكام الأتراك، ولكن حُكم عليه أن يبدو أحقرهم.

استانبول تحت الاحتلال

كنت قد قصصت كيف تجول الجنرال الفرنسي (فرانشيه ديبيريه) في شوارع (باي أوغلي) على حصانه الأبيض، وكان يشبه نابليون، ويذكرنا بالسلطان محمد الفاتح، وكأنما يحيي ذكرى القياصرة. فهذه اللوحة كانت أبرز نموذج حي تصور استانبول تحت الاحتلال... لكن حتى أرسم صورة كاملة للاحتلال، وأبدأ البحث والدراسة، رجحت الانتظار حتى أورد محاسبة السلطان وحيد الدين لنفسه... ذلك السلطان المضطرب أشد الاضطراب، والذي ظل داخل دائرة من النار تحيط به، وتقترب أكثر وأكثر، فيتضح مشهد الوطن من الداخل والخارج.

يجب مشاهدة استانبول تحت الاحتلال من خلال نظارة وحيد الدين وهو يحاسب نفسه تلك المحاسبة التي لم يشر إليها أي شخص حتى يومنا هذا، والتي يلزم أن نوضحها للتاريخ، وتصبح هى نفسها تاريخ ... إن محاسبة النفس هذه - التي توضح حال استانبول والوطن وتركيا كلها- إذا كانت تحتاج لنطاق يحيط بها، فهذا النطاق هواستانبول تحت الاحتلال ...

هذه الأزياء الإيطالية والإنجليزية والفرنسية من كل لون وشكل التي انتشرت في شوارع استانبول، هى ملابس أحفاد الجيوش التي جاءت في عهد أبوه السلطان عبد المجيد، لتقف مع تركيا ضد روسيا، لكنهم في الحقيقة كانوا المؤثر الذي سحب الوطن التركي إلى أحضانهم، فقد بدأت التنظيمات في ذلك الوقت، وهؤلاء الذين دخلوا المنزل كضيوف هم الذين داسوا عليه بعد ذلك...

وصارت العاصمة، مقر السلطنة، مسخرة لليهود والأرمن واليونانيين... وخرج ضابط جسور إلى الشارع مرتدياً زي قديم لديه، منزوع الشارات، ويبدو كملابس مدنية،

لمواجهة التحركات، فدفع حياته ثمناً لكرامته... وقام ضابط آخر بنزع جهاز النافورة، وانبطح على الأرض وكأنما يخرج مسدسه، وقام بتوجيه الجهاز إلى الزنوج السنغاليين الذين كانوا يسيرون فوق الكوبري. وفي ميدان (بايزيد) سأل إنجليزي محتل واحداً من المارة كان يرتدي معطفاً على ظهره يخفي زراعيه قائلاً: لماذا لا تسلم على الضباط الإنجليز؟ وعندما ضربه الضابط الإنجليزي بالسوط، سقط المعطف من على ظهره، فظهر أنه محروم من القدرة على السلام بيده اليمنى المبتورة...

وهكذا تسقط استانبول صريعة، ساكنة، بلا حس، ولا حراك كالقبر، بينما تصدح الأغاني اليونانية والتاتارية من داخل الحمامات التي أسسها الروس البيض، والتي أصبحت جرحاً عميقاً في أخلاق استانبول.

طبل وزمر في بيت الميت، كأنها طعنات له ولأهله...

وفي الأحياء التي يسكنها المسلمون، تسمع نحيبهم خلف الأبواب التي أغلقوها على أنفسهم، ومن تحت اللحاف الذي تغطوا به. ومن المنارات التي تطلق الأذان خمس مرات في اليوم، تسمع نحيب المؤذنين وترى دموع المصلين التي جرت أنهاراً. وفى القصر كان هناك أكثر رجل حزين في العالم وفي تركيا وفي استانبول، يشاهد استانبول في هذه الحال، وهو مستند بجبينه الساخن على الزجاج الذي يملؤه بخار الماء، إنه السلطان محمد وحيد الدين السادس... صار يمضي وقته في توديع أفراد من حكومة توفيق باشا الذين قدموا استقالتهم، وتنعدم سلطته على القدامى الذين دخلوا مجدداً إلى الوزارة، ولا يستطيع تغيير الأوضاع المضطربة في المجلس الذي صار ألعوبة في أيدي قوات الاحتلال... لدرجة أن الجنرال المعهود الذي يقلد نابليون، وهو قائد قوات الاحتلال الفرنسي، يستدعي الصدر الأعظم للدولة في السفارة، تلك الدعوة الوقحة التي لم توجه من قبل إلى صدر أعظم، والتي أثارت غضب جميع الوزراء، وجعلتهم يقولون للصدر الأعظم:

ـ لا تستجب لهذه الدعوة التي أهانت كرامتك!

لكن الصدر الأعظم يرى أنه من المناسب، من الناحية السياسية أن يذهب للسفارة، وبالفعل يذهب إلى السفارة دون إخبار السلطان، ويبقى في مواجهة هذا الخطاب:

"ـ إذا لم تقم حكومتك بفرض إجراءات مشددة، فستكون حكومتك مجرد وهم!".

وهناك كلمة أخرى قالها بالمناسبة، هذا الجنرال الذي يقلد القياصرة:

"ـ إن الحكومة تتباطأ في تنفيذ أوامرنا. أنا أستطيع أن أجعل طابور الجند الذي معي يدخل قصر (يلديز) وينفذون ما أطلبه، لكنني لا أفعل ذلك احتراماً للسلطان!".

وهكذا استقروا في استانبول، وضربوا الجيش التركي النائم في معسكرات (بيازيد) بالحراب، لحظة وطأة أقدامهم المدينة.

حكومة فريد باشا الأولى

ولم تصمد حكومة توفيق باشا الناصعة البياض، الطاهرة التي لا تشوبها شائبة، للرياح، ولم يعد لها القدرة على تحمل الوضع الثقيل...

"ـ يجب أن أنسحب، لكن لمن أترك السلطان!" هذا ما قاله الوزير الأعظم وهو في غاية التأثر، فلم يعد أمامه سوى الانسحاب في النهاية... ثم يعيد "المُهر الهمايوني" إلى صاحبه.

كان موقف قوات الاحتلال من حكومة توفيق باشا متشدداً وحقيراً. فعندما جاء الجنرال الإنجليزي (اللنبي)[479] إلى استانبول،هرول وزيري الخارجية والحربية إلى لقائه، فاستقبلهم قائماً على قدمية. وفي نهاية حديث بارد دار بينهم، تجاهلهما وابتعد عنهما، وبناءً على هذا لم يجد وزير الخارجية شيئاً يفعله سوى تقديم استقالته. وكأنما الذنب ذنب الحكومة التركية، وكان هنا كمن لا يشرب الخمر، لأنها تفسد الصوم!

ثم استقال الجميع بعد ذلك... وأصبح فريد باشا المعروف، صدراً أعظم...

ويدعم فريد باشا المقيد بإرادة جيوش الاحتلال، من أول يوم يرتقي فيه مقام الصدارة، الضوابط السياسية التي تهدف إلى معاقبة المسئولين عن الحرب، والمتسببين في الظلم الداخلي.

"ـ تم اتخاذ قرار عاجل بخصوص الجناة الذين جلبوا كراهية العالم..."

وهكذا تصبح الحكومة الجديدة كمجبراتي أمين على النفس، على رأس كيان الدولة التي خرجت كل عظامها من مكانها.

وكان في الحكومة الجديدة أسماءً جديدة قيمة تلفت الانتباه مثل، شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، ووزير المعارف الكاتب علي كمال بك.

ومصطفى صبرى أفندى الذي ذهب إلى مصر في نهاية حرب الاستقلال، ومات هناك بعد أن عاش حتى وقت قريب كما يقال، عُين في مقام المشيخة- رغم الاعتراضات التي لا أساس لها، من جانب أحمد رضا الثوري الصوري الموجود على رأس تلك الحكومة- وذلك لأنه كان مسلماً عميق الإيمان بلا جدال. فقد عاش صبري أفندي حزيناً في مصر، وانخرط في الجدال الديني، وأرسل مباركتة وتشجيعه إلي لكتابة هذا الأثر.

وكان أول عمل يقوم به فريد باشا، بدلاً من اتخاذ تدابير تؤدي إلى تخفيض الأسعار، فعل العكس وقام بفرض رسم ثقيل يسمى رسم البيع على الواردات مثل، القهوة والأرز والغاز والسكر، وكانت تلك الواردات شحيحة أصلاً.

---

[479] بإنجلترا. وقضى سنوات عديدة مع القوات البريطانية في في سفولك1861 - ولد إدموند هنري اللنبي في عام العالمية الأولى، عمل في البداية قائدًا أعلى لفرقة خيالة، ثم أصبح القائد الأعلى للجيش إفريقيا. وعندما نشبت الحرب في الأولى. استطاع أن يهزم الأتراك عام 1915م. قاد القوات البريطانية في مصر وفلسطين أثناء الحرب العالمية فلسطين في 18 اكتوبر عام 1918م عامي 1917م و 1918م بمساعدة لورانس العرب. أدى انتصاره في مجدّو في م إلى 1919 عمل اللنبي مفوضًا ساميًا بريطانيًا في مصر من.البريطانية إلى وضع سوريا وفلسطين تحت السيطرة الاستقلال، إضافة إلى وعد الحلفاء لليهود بوطن 1925م. وكان العرب مستائين بسبب رفض بريطانيا وفرنسا منحهم م. انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مرجع سبق 1936 توفى .فلسطين قومي لهم في ذكره، ص 211

رفض السلطان ذلك، وحصر هذا الرسم الذي كان مفروضاً على البضائع المستوردة، على بعض الواردات الضرورية فقط مما خفف من وطأته.

وكان خطاب وحيد الدين للوزراء، خلال مراسم إدلاء الحكومة الجديدة بالقسم هو:

"ـ أرجو ألا ينقاد وزرائنا لهوى النفس الخسيسة."

وبعد ذلك كان تصرف فريد باشا يسير في نفس الخط الذي حذر منه السلطان، ونهى عنه، ووصفه بقوله: "هوى النفس الخسيسة"... فقد تم اعتقال عدداً كبيراً من المسئولين في الحكومة القديمة، إرضاءً لدول الحلفاء... ففي يوم واحد جرى اعتقال 66 شخصاً، وتستمر هذه الاعتقالات كل يوم، وطيلة حكومة فريد باشا. وكان أول حكم بالإعدام صدر ضد القاتل، القائمقام كمال بك، لقيامه بتهجير وقتل الأرمن... وعندما أُرسل الحكم إلى السلطان من أجل التصديق عليه، قال وحيد الدين "الرحيم" الذي يحافظ على الأرواح، وهو هنا يشبه أخيه الكبير السلطان عبد الحميد الثاني، في إحساسه الرقيق:

"ـ أصبح حالنا الأن سيئاً للغاية، لكن طالما هذا الحال مستمر ولم ينتهِ بعد... فلابد أن نقطع الطريق أمام هذا السوء... سلوا شيخ الإسلام صبري أفندي بالتليفون، هل رأى هذا القرار؟ فإذا كان قد رآه، سلوه ! هل يمكن التعهد بإصدار فتوى شرعية في الصباح حتى أستطيع توقيع هذا القرار؟".

ولم يرض مصطفى صبري أفندي المؤمن، صاحب العرفان والأخلاق، أن يصدر فتوى تجيز حكم الإعدام هذا، وبعد مناقشات ومباحثات طويلة، يتم التصديق، بفتوى شيخ الإسلام المشروطة، على الحكم. وكانت فتواه، إنه حكم سوف يؤتي بنتائج سيئة، سواء كان سليماً او فاسداً.

وكان تأثر السلطان بهذا الأمر شديداً للغاية، فيقول لشيخ الإسلام هذا الكلام:

"ـ سنين عديدة وأنا أرى أن النفس البشرية قد أصبحت شديدة الإسراف. لا يجب الإفراط في إصدار قرارات الإعدام. فإذا أصبحت سيئات الإنسان تجاه جناب الحق كثيرة جداً، فهذه أشياء بين العبد وربه، إننى جئت بجبين طاهر ولا أبلغ الكمال حتى الحشر، ولا أريد في أيام عمري الأخيرة، أن أرحل ملوثاً بالدماء!".

وهكذا نجد السلطان وشيخ الإسلام الجديد اللذان لايقسو قلبيهما حتى وهما ينزلان العقاب بالمذنبين، منصفين في زمن يشعرون فيه بالحيرة والذهول، تجاه السقوط الذي أوشك عهده على الاكتمال.

فى 14 مايو عام 1919... كان فريد باشا في حضور السلطان... وجاء خبر يقول:

ـ ينتظر في منزل الصدر الأعظم، ممثل سياسي للإنجليز... ويريد مقابلته بسرعة:

شعر السلطان والصدر الأعظم بالاضطراب والقلق... فينهي فريد باشا لقائه مع السلطان، ويسرع نحو منزله. ثم يرسل السلطان في إثره أحد المقربين منه، ليخبره بما يجري. وفي اليوم التالي، يوم 15 مايو، دخل الباشكاتب على السلطان فوجده في حالة إعياء وذهول واستياء... أصدر السلطان للباشكاتب عدة أوامر مقتضبة وموجزة، وظل متجمداً في مكانه، بلا حراك على غير عادته. ويسأل الباشكاتب نفسه هذا السؤال المحير:

ـ تُرى ماذا حدث؟ هل حدثت واقعة كبيرة! فالسلطان ليس من النوع الذي تصيبه مثل هذه الأشياء بالجمود.

وفي نفس اليوم توضح البرقية التي جاءت إلى مقر باشكاتب القصر من منتشه، كل شيء:

ـ جاء خبر يقول إن دولة أجنبية قامت باحتلال سواحل إحدى محافظات الدولة، ورفعت علمها على أبنية الجمرك. وهذا ما حدث أيضا لإزمير وسواحلها. النجدة!...

عندما يستلم الباشكاتب البرقية، يسرع لمقابلة السلطان، ويرى أن السلطان لا يندهش من تأثير الخبر، ويفهم أنه علم بهذا الوضع ليلة أول أمس، من الخبر الذي جاء به فريد باشا، والذي تسبب فى إعيائه وكدره، وظهوره على تلك الحال السيئة.

وها هو المشهد الذى رآه الباشكاتب الذي أُرسل إلى الباب العالي في الحال:

كان الصدر الأعظم يجلس في حجرة الاستراحة يتناول طعام الغذاء... وأمامه وزير المعارف على كمال... أما الوكلاء فكانوا مجتمعين في حجرة الاجتماع... ويقول على كمال جملة باللغة الفرنسية: (إن الوضع أحرج ما يكون ...)

ويطرح الباشكاتب أسئلته نقلاً عن السلطان:

ـ مَن الدولة التي احتلت سنجق منتشه؟ هل طُلب من اليونانيين أن يقوموا باحتلال إزمير؟

الجواب:

ـ الممثل الإنجليزي قال إن إزمير سوف تُحتل اليوم من جانب اليونانيين، البرقيتان اللتان جاءتا من والي (آيدين) تقول أنه علم بهذا من أميرآلاي الإنجليز. وهكذا يصير الاحتلال، بناءً على قرارات "مؤتمر باريس"، وتستجيب القوات العسكرية اليونانية لتلك القرارات. وتأتى أكوام البرقيات التي تحمل صيحات الاستغاثة من إزمير ونواحيها، ولا تعرف الحكومة ماذا تفعل إزاء هذا الوضع. ويرجحون أن هذا الاحتلال تم بمعرفة الدول الكبرى. وهم كانوا يعتقدون أن الإيطاليين، هم الذين احتلوا سواحل منتشه.

فالحكومة المنهارة، ساقطة الروح لدرجة إنها تتمنى لو أن إحدى الدول الكبرى، أي إحدى جلاديها، هى التي قامت باحتلال إزمير، وليس اليونانيين، وتجد في ذلك عزاءً لها، لا تبدي سطوة ولا كرامة سوى إفساح مجالاً آخر للتوقيع على عهد السقوط.

اليوم التالي كان الاحتفال بليلة النصف من شعبان... يعنى الليلة المباركة التي تُعرض فيها أعمال الإنسان عن سنة كاملة... ويتم فها طلب المغفرة والبراءة من الذنوب... في تلك الأثناء، كان أكبر وأقيم براءة من الذنب، هى البراءة من ذنب الوطن التركي!...

اجتمع النواب في القصر للتهنئة بليلة النصف من شعبان. وفي أثناء حضورهم كان الموقف غير واضحاً... فلم يأت خبر من والي إزمير... أما البرقية التي جاءت، فكانت من متصرف (مانيسا)، ومكتوب فيها أن أحد جنود خفر الحدود من جانب إزمير يخبرنا أن أصوات السلاح المنطلق، صار يُسمع من المدينة... والآن يخطرنا الوضع الذي لم يتحدد بعد بشكل واضح وصريح، إن إزمير- وفقاً لعدة شواهد خارجية- تعيش أياماً عصيبة...

وهذه الأوضاع تجعل السلطان يشعر بالحزن والجرح لدرجة جعلته يرتعش من شدة تأثره، ويأمر باشكاتبه بالذهاب وراء الذين ذهبوا للاجتماع في منزل الصدر الأعظم، ويقول:

ـ لابد أن تكون دائما في حالة اتصال مع الحكومة، وإذا عرفت أي خبر، ولو حتى كان ذلك في أية ساعة من ساعات الليل، اخبرني به في الحال على تليفوني الخاص!

والباشكاتب الذي انتظر مباحثات الحكومة حتى منتصف الليل، يعطي هذه المعلومة التي حصل عليها من وزير الداخلية قرب الصباح:

جاء خبر الآن من مدير مكتب البرق في إزمير يقول، إن اليونانيين بعد احتلالهم المدينة، قاموا بعدة تجاوزات، وتعرضت الأسواق للنهب... لكن تم علاج هذه الأمور، كما تم عودة الموظفين الذين تأثروا من هذه الأحوال إلى وظائفهم... ولا خبر من والي إزمير حتى الآن!...

وهكذا تم إخبار السلطان الذي كان مستيقظاً في فراشه، يعتصر مرارة الألم، بالوضع بالتليفون.

لابد أن نتخيل مدى الألم الذي يحمله هذا السلطان المهموم الذي بدلاً من أن يجلس على عرش وزنه وثقله 60 كيلو جراماً، جلس على عرش وطن ثقل همه مليارات الأطنان، حملها كلها على ظهره.

إن إزمير التي كانت في يد (هوميروس) في اليونان القديمة، تم تداولها من يد ليد عبر القرون، واستقرت في النهاية في يد الأتراك، قدمها الإمبرياليون الغربيون هدية لليونانيين. وهذا التصرف يعد تحقيقاً لهدف وهو استكمال سقوط الدولة العثمانية العظيمة، والقضاءعليها نهائياً، وعدم ترك أي مجال يسمح لها بالسيطرة أو الهيمنة.

وهاهى إحدى الصور المفجعة التي ترسم رمزاً هذا الهدف الوضيع، وتجمع جميع معانيه:

قام اليونانيون بإصدار أمراً للعقيد فتحي بك، رئيس إحدى فرق الجيش، بأن يخلع طربوشه من على رأسه، ويلقي به إلى الأرض، ويدهسه تحت قدميه.

المعنى الذي يدل عليه هذا الأمر هو:

ـ ادهس دينك وتركيتك وماضيك ودولتك الشريفة وجميع مقدساتك، تحت قدميك.

وكان جواب العقيد فتحي بك:

ـ أبداً!...

ـ فيجرحون العقيد جرحاً عميقاً. وبعد عدة أيام يلقى العقيد وجه ربه كشهيد.

ما الذي يمكن أن يفكر فيه فريد باشا سوى تقديم استقالته؟ ويقدم بالفعل استقالته، ثم يؤُمر بتشكيل مجلس وزراء جديد. وفي المجلس الجديد، يستمر فريد باشا وشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في مناصبهم... ويتولى الكاتب على كمال وزارة الداخلية، بدلاًمن نظارة المعارف، ويبقى الآخرون- سواءً منهم القديم أو الجديد، وهى شخصيات باهته- في مناصبهم أيضا. وكان ذلك دليلاً على عدم معرفة ماذا يمكن عمله؟ ومن الذي يليق بالمكان المناسب؟

لكن "الخط الهمايوني" هذه المرة، كان في شكل أمر من السلطان محاطاً باضطرابه وحيرته:

"ـ في هذه الأوقات العصيبة، يستعد دائماً سلاطين وخلفاء هذه الدولة التي استمرت على مدى 6 قرون ونصف للتضحية بأنفسهم... ويفكرون في كل ما يجيش بصدر شعوبهم... ولما كان أمل الأمة الوحيد هو المحافظة على سلامة أراضي الدولة، وعلى أفراد الشعب، وحقوق الدولة والأمة، فأرجو أن تبذلوا كل ما في وسعكم من أجل تحقيق هدف الأمة المقدس. وإنني أعتمد على الله أن يوفقكم في كل الأحوال، وأستمد القوة الروحية من صاحب الرسالة."

وهذا الفرمان أو الخط الهمايوني الذي يحمل تاريخ 19 مايو عام 1919 يعني تاريخ اليوم الذي وطأ فيه مصطفى كمال باشا سامسون بقدميه، لم يكن سوى مجرد سوط يطرقع فوق جسد ميت، فالسلطان المسكين قد وجد في تلك الأيام أن إنقاذ الوطن يبدأ من الأناضول، وليس من استانبول.

سأترك هذه النقطة التي هى بحثنا الرئيسي في كتابي هذا، إلى فصل "حركة المقاومة الشعبية أوالملية"، وأعود وأركز تماماً على مصطفى كمال باشا بشكل محايد للغاية حتى نهاية عصر السقوط، من أجل توضيح الحقيقة، وبمعيار الحقيقة:

كنت قد كتبت قبلاً أن مصطفى كمال باشا الذي جاء إلى استانبول في اليوم الذي حاصرت فيه مدافع أسطول قوات الحلفاء القصر، والقباب التاريخية التي في نواحي استانبول، وكان ثابتاً بشكل منطقي وعلمي، إنه لم يكن يفكر سوى في أن يصبح وزيراً للحربية في أول حكومة جاءت بعد حكومة الاتحاديين، أثناء توقيع معاهدة (موندروس)، وذهب إلى الأناضول، ولم يكن في باله أن يصبح زعيم حركة مقاومة شعبية.

حقيقة هذا الوضع الذي قدمنا الأدلة عليه، والذي بدأ يتضح ويتم الكتابه بشأنه، تثبته تلك الجمل من كتاب اسمه (احتلال الأناضول) للكاتب التركي، صباح الدين سالاك، وهو يشتمل على 440 صفحة، ومكتوب في الصفحة رقم 178 ما يلي:

"ـ قبل حل حكومة طلعت باشا، اقترح مصطفى كمال باشا على السلطان وعلى أحمد عزت باشا، تأسيس حكومة برئاسة أحمد عزت باشا، وتوليته هو منصب وزير الحربية."

هذا الكتاب الجاد الذي كتبه أحد أعضاء حزب الشعب، لايدع لدينا مجالاً للشك حول هذه الرغبة. والكتاب من نفسه يوضح أن مصطفى كمال باشا الذي كان يخطط لدخول مجلس الوزراء، لم يكن يخطط لتنظيم حركة مقاومة شعبية في الأناضول.

إذ يرد عليه عزت باشا بقوله:

"ـ نرجو من الله اللطيف أن نتحد بعد الصلح..."

مكث مصطفى كمال- الذى أُبعد عن وزارة الحربية بشكل ماكر، وبأسلوب ذي مغزى منذ هذا التاريخ، وبعد حديث قصير مع السلطان لم يخرج منه بأية نتيجة- بلا عمل، أولاً فى منزل أمه في (بشيكطاش) ثم في (عقاراتلر) ثم في منزله في (شيشلي)، لمدة 6 شهور. وكان يتابع كارثة السقوط كلها وهو في منزله، ولم يبدِ أي دليل أو علامة

على أنه يخطط لتنظيم حركة مقاومة شعبية في الأناضول. وإذا كان قد طلب الزواج من ابنة السلطان الجميلة (صبيحة)، فهو لم يتزوجها لأنها كانت تحب الأمير (عمر فاروق أفندي). وظل لا يعمل ولا يفكر في أي شيء سوى ترقب الأحداث في نهاية عهد السقوط حاملاً لقب "الياور الفخري لحضرة السلطان".

ومن هذه النقطة ننطلق إلى فصل "حركة المقاومة الشعبية"، مركز الثقل في كتابي هذا.

"حركة المقاومة الشعبية"
فكرة محمد وحيد الدين السادس

عند بداية حركة المقاومة الشعبية، كنت في عمر 14 أو 15 تقريباً، وعند إعلان الجمهورية كان عمري 19 عاماً، ومن خلال ما قرأته وسمعته وشاهدته وتمعنت فيه طيلة سنوات عديدة، وصلت إلى هذا الحكم: إن من فكرفي إثارة حركة مقاومة شعبية للحصول على الحقوق التركية بعد كارثة الحرب العالمية الأولى، وبعد انهيار الدولة العثمانية، هو السلطان محمد وحيد الدين، وليس مصطفى كمال. فمصطفى كمال ترأس هذه الحركة. يعني هى حركة نفس الرجل الذى أُتهم بخيانة الوطن...

إنني أطرح في كتابي هذا الحكم بكل أمانة، وأجعل منه أساس بحثي، وأخذ على عاتقي إثبات أدق التفصيلات.

في بداية الهدنة تجمع في استانبول القادة الشبان أمثال، كاظم قرة بكير وعلى فؤاد وجعفر طيار ورأفت بيلين. وعندما تم استدعاء هيئة القيادة العليا لوحدات جيش السلطنة التي تم تسريحها، إلى الاجتماع عند القائد الأعلى في مقر القيادة، لفت هذا الوضع الخطير انتباه كاظم قره بكير:

يقول المرحوم كاظم قره بكير في إحدى كتاباته:

"ـ في عام 1918 قمت بإطلاع العقيد عصمت (إينونو) مستشار وزارة الحربية على أفكاري التي تستهدف إنقاذ استقلال الوطن على هذا النحو: إن تجميع قيادات الشباب في استانبول، ومنعي وحرماني من هذا الشرف ـ شرف إنقاذ الوطن ـ إنما هو غفلة كبيرة. أرجوا أن تتيح لي هذا الشرف في الحال!"

ويواصل كاظم قره بكير قائلاً:

"ـ وفي الأول من كانون أول عام 1918، قمت بزيارة حضرة جواد باشا رئيس الأركان الحربية العامة، وأوضحت له مدى غفلة التجمع في استانبول، ورجوت أن يعيدني إلى الشرق، وأن يعمل على عدم إضعاف الجيش. وقلت أيضا نفس هذه الأراء لعزت باشا الذي كان قد استقال من الصدارة العظمى!".

وبقلم كاظم قره بكير تتضح حقيقة أن وحيد الدين هو أول من أدرك سوء هذا الوضع:

"ـ كنت قد أُستدعيت لحضور مراسم الاستقبال لدى السلطان في 6 كانون أول عام 1918. قال السلطان إنه قبل الحديث والتفاوض بشأن تأمين الصلح، لا يجب إضعاف الجيش، أو إبعاد القادة الشباب عن الاضطلاع بالأعمال الرئيسية. وإلا فلن نكون بعيدين عن وضع الأندلس. وعودة القادة الشباب المجتمعين في استانبول، إلى الشرق، إلى الأناضول على رأس جيوشنا، سيحول دون القضاء على الوطن التركي. وأصبح هذا اللقاء أحد عوامل ضمان بقائي أنا وشباب القادة الآخرين على رأس العمل."

الذي يقرأ هذه السطور القصيرة، ويكون عادلاً في وجهة نظره، يفهم على الفور أن وحيد الدين الذي أحاط بجميع أوجه الضعف والقصور، هو الذي فكر في وسيلة لإنقاذ الوطن.

ويوضح كاظم قره بكير باشا- الذي أصبح مصدراً أميناً وشاملاً- بالسطور التالية غير المغرضة، أن مصطفى كمال باشا كان كل همه أن يتولى نظارة الحربية، ولم يكن يفكر في شيء اسمه الحركة القومية:

"– في 11 نيسان عام 1919 قمت بزيارة حضرة اللواء مصطفى كمال باشا حتى أثنيه عن رغبته في دخول الوزارة، وأناقشه في مسألة البقاء في استانبول المشار اليها، وهى أحد أسباب الزيارة. كان يرقد مريضا. قدمني الباشا إلى شخص ثالث كان موجوداً في زيارته اسمه روشان أشرف بك."

وهكذا نربط بين هذه الكتابات وبين النتيجة التي ذكرتها قبلاً:

"– نفهم مما سبق حقيقتين، الحقيقة الأولى، هى أن شباب الجيش التركي المتفرق، والقادة الكبار كانوا مجتمعين في استانبول أثناء الهدنة. ويقترح هؤلاء الموجودون على رأس الدولة- الذين رأوا أن هذا الوضع غير سليم- عودة القادة إلى الخدمة في الأناضول في مهمة جديدة. والحقيقة الثانية، هى أن القادة أصحاب الخدمات الجليلة في حرب الاستقلال قاموا بزيارة مصطفى كمال فرادى، لمناقشته والتفاوض معه... وأن احتلال إزمير، ووقوف المنتسبين للاتحاد والترقي مكتوفي الأيدي، قد سبب غليان الأناضول. وحالة الغليان كانت السبب الأول في تفكير شباب وكبار القادة المحنكين في إقامة تشكيل شعبي جديد. بدأ غليان الشعب التركي بعقد الاجتماعات في استانبول. وبسبب استيلاء القوات اليونانية على الأناضول، شكّل الشعب فرقاً شعبية، وتسلحوا وصعدوا إلى الجبال. ودعى ممثلي الشعب المحليين إلى عقد مؤتمر (رد الحق) في الغرب، و(مؤتمر أرضروم) في الشرق."

هل أصبح واضحاً الآن أن مصطفى كمال باشا كان من أوائل القادة الذين عادوا إلى استانبول، وتجمعوا هناك تاركين وحداتهم تواجه السقوط؟ وأن أمله الوحيد كان نظارة الحربية، وأن فكرة قيام قادة شباب الجيش بتنظيم المقاومة الشعبية، وعودتهم إلى رأس وحداتهم، جاءت من السلطان؟

هذه حقيقة واضحة تمام الوضوح، وستتضح أكثر خلال اللقاءات التي تمت بين مصطفى كمال والسلطان.

خطة إنقاذ الوطن

كان حال السلطان كأنما انهال فوقه تراب الأناضول، وتراكم حتى دفنه في أعماق الأرض السحيقة، فقد كان مضطرباً أشد الاضطراب، ومثقلاً وكأنه يتنفس من ثقب إبرة... كان هو أكثر من أي فرد آخر، مشغول العقل والروح بهذا السؤال الذي يلح عليه:

ـ ما الوسيلة لإنقاذ العرش العثماني الذي دام لأكثر من ستة قرون؟

وجميع المذكرات التي كُتبت في هذا الخصوص، أوضحت موقفه الذي بدا من الخارج غامضاً، ولم تُظهر المغزى الداخلي، وما كان يرمي إليه بالفعل.

كان السلطان يشعر بالاضطراب والقلق الشديد، وكان يواجه المسائل اليومية والوقائع البسيطة بوجه يبدو طبيعياً، لكنه في الحقيقة كان يشعر بالاختناق وهو يأكل طعامه، وبالغليان بينما يستحم بالماء البارد. وعند النظر إلى القادة الشبان المجتمعين في استانبول، ووجوهم الحزينة على الوطن، وإلى مزاجهم السيء، لا يشعر بداخله بأى إحساس ولو صغير بأمان يمليه عليه موقعه كسلطان. فقلقه على الوطن جعله يخجل من اللقب الذي يحمله، ويعتبر نفسه أسوأ حظاً من أي شحاذ فقير، معدم.

فهل نبرز من هنا هذا الحكم؟

تفضلوا:

"ـ خرج وحيد الدين إلى صلاة الجمعة في جامع يلديز. وكان قد اصطف أمام باب المسجد جميع الوكلاء والياوران (المساعدين). (ربما كان مصطفى كمال باشا هناك أيضا)... وأمامهم أخذ عازفو الموسيقى الهمايونية الذين يعزفون السلام أماكنهم. وعندما اقترب وحيد الدين من باب المسجد، أخذ عازفو السلام يهللون قائلين:

يا سلطاننا لا تغتر، فإن الله أكبر منك!

فأشار وحيد الدين بكلتا يديه إلى هؤلاء غاضباً، وطلب منهم بأن يكفوا عن التهليل، وصاح قائلاً بصوت مملوء بالألم:

ـ ماذا بقى لنا لنغتر به؟ فقام الياوران بإسكات العازفين"

هذه السطور التى أخذناها من كتاب اسمه (تاريخ السلاطين العثمانيين)، بالرغم من إنها عبارة عن إشارة إلى زمان الهيبة والعظمة، لكن عندما يوجه القصر هؤلاء العازفين إلى هذا الصياح الذي يشبه قولنا لرجل أوشك على الموت: إن "الشره سيئ"، فهذا يدل على مدى الغفلة والحماقة، وعلى مدى عدم مبالاة كبار رجال الدولة كلهم، وغفلتهم عن أن الله قدر أن يصبح صاحب التاج- الذي بقى وحيداً، منفرداً بالقلق والاضطراب- مجرد تمثال جميل!

ما الحيلة لإنقاذ الوطن والعرش العثماني الذي استمر أكثر من ستة قرون؟

أجاب وحيد الدين على هذا السؤال الذي كان يؤرقه. فقد رأى أن يكون أول شيء يفعله هو إرسال شباب القادة الذين كانوا في استانبول إلى رأس الوحدات. والهدف من هذا هو تجميع أكبر قدر ممكن من وحدات الجيش المسلحة التي بلغ عددها 400 ألف تقريباً، لكنها كانت تفتقد الهيبة والسلطة، ثم إصدار الأوامر لها بعد ذلك بدعم أي شكل من أشكال المقاومة الشعبية، وبذلك يعيد الرأس إلى الجسد الذي استؤصلت منه.

العمل الآن هو جمع كل هؤلاء القادة الشبان حول رأس مدبر واحد... هذا الرأس لايجب أن يكون من مؤسسات الدولة الرسمية التي في استانبول. فلا يجب أن يكون رئيس أركان الحربية العامة مثلاً، (وكان حينئذ هو فوزي باشا أو المارشال فوزي چاقمق)، أو أي أحد آخر له مقام معين... فهؤلاء تحت وطأة قوات الاحتلال وإرادتهم خاضعة لها... لكن حتى إذا لزم الأمر الإتيان بشخص من خارج استانبول، فلابد أن

يكون غير منتمياً لسلطة الحكومة المركزية التي هى في حالة أسر، ويكون جنرالاً متمرداً، وقائداً ثورياً، يليق بأن يكون بطلاً ثورياً...
فمن يكون هذا البطل؟

يمر في مخيلته مصطفى كمال الذي يحمل لقب: "حضرة الياور الفخري للسلطان"، ذو الزى المهندم، والأداء الحكيم، وشعر أصفر بلون شواشي الذرة، وعين زرقاء بلون السماء، وشارب أصفر، وشفتين رقيقتين كأنهما شُقتا بسكين، مقطب الجبين وكأنه نزل إلى الدنيا مخصوص من أجل هذا العمل. إنه الجنرال الذي عمره 39 عاماً الذي رافقه إلى ألمانيا عندما كان ولياً للعهد، والذي كان دائم المعارضة للمارشالات الألمان، ولم تهدأ نفسه أبداً لطمأنتهم...

سأتوقف عند هذا الحد، وأعود إلى المارشال فوزي چاقمق:

ذلك المارشال هو حمو صديقي في الدراسة في فرنسا، المرحوم برهان طوپراق. عن طريقه عرفت إنه كان إنساناً صادقاً، وقد أطلعني على أدق الخفايا...

وسأصرح بنقطة مهمة سمعتها من المارشال شخصياً، عندما كنا نتناقش بشأن مسألة وحيد الدين، حيث قال:

"ــ طلب مني وحيد الدين قائمة بأسماء القادة الشباب الذين يتميزون بالشجاعة، ويحبون وطنهم لدرجة العشق، والمحترقون بآلام وطنهم، ويستطيعون أن يحملوا على كتفيهم مسئولية إنقاذ الوطن، ويكونوا ذوي عزم وفدائية... فكتبت القائمة، وقدمتها له... وبجانب اسم كل قائد، كتبت ملاحظاتي عن شخصيته. وكان مصطفى كمال على رأس هذه القائمة."

كتب المارشال فوزي چاقمق في القائمة التي أعطاها للسلطان، إن مصطفى كمال باشا يتميز بالكفاءة، وهو إنسان ثوري، ويملك روح المغامرة، لكنه طماع إلى أقصى درجة، وطموح للغاية.

ونستطيع إثبات هذه النقطة في كتاب (احتلال الأناضول) لصباح الدين سالاك، عضو حزب الشعب، والذي تناولناه قبلاً. في صفحة 42 من هذا الكتاب يصدمنا الكاتب بهذا التشخيص لمصطفى كمال باشا، من وجهة نظر وحيد الدين:

"ــ كنت قد تعرفت على مصطفى كمال باشا في رحلة سفري إلى ألمانيا عندما كنت ولياً للعهد. كان هذا الباشا الشاب في ذلك الوقت يثرثر كثيراً على نحو خطير، وقد شعرت بالخوف منه. وفي النهاية، في الأيام الأخيرة من الحرب، وكان هو قائد الجيش، جاء إلي وطلب مني أن أعيده من الأناضول، وأعين فلان صدراً أعظم، وأعينه هو وزيراً للحربية، فقد كان طماعاً كبيراً."

وهكذا بعد أن أثبت الكاتب طمع مصطفى كمال باشا، قام ببحث العلاقة بين السلطان وحركة المقاومة الشعبية، وبين مصطفى كمال باشا، فيقول:

"ــ ولأن حركة المقاومة الشعبية لم تكن في يوم من الأيام ضد السلطان، إذاً فالخصومة التي أبداها السلطان، لم تكن موجهة ضد هذه الحركة، بل ضد مصطفى كمال شخصياً. ومثلما كان حسين عوني باشا عدو السلطان عبد العزيز، وكان مدحت باشا

عدو السلطان عبد الحميد، كان مصطفى كمال عدو وحيد الدين، لكن مصطفى كمال باشا كان أكثر خطورة من الآخرين. فقد استولى على جيش السلطان في البداية، ثم على ولايته، وانفصل عنه بعد ذلك. ولابد وأنه كان سيستولى على العرش.

ومع استمرار الكفاح الوطني دون وصول أي أخبار مفرحة، كان هناك صراع أشد يدور بين وحيد الدين ومصطفى كمال، لأن أحدهما كان يريد تصفية الآخر، وكان كلاهما يعرف هذا جيداً. فقد ضاع طرف الحبل من وحيد الدين منذ البداية، وذلك ببقائه في استانبول، وبموقفه من القوة الشعبية، مع إنه كانت هناك فرصة كبيرة في يد وحيد الدين لإنقاذ العرش العثماني، واستعادة استانبول ولو بعد فترة، وذلك إذا كان قد ذهب هو بنفسه إلى الأناضول. فإذا كان استطاع أن يفعل هذا، كان مصطفى كمال باشا سيصبح في النهاية صدراً أعظم للذات الشاهانية."

هدفنا من أخذ هذه السطور، هو توضيح إلى أي مدى تستطيع أراء المؤرخ الخاصة حول أمواتنا، تحريف الحقيقة وطمسها. فالكاتب الذي يثبت رؤية مصطفى كمال باشا تجاه وحيد الدين، وعرضه على نحو مباشر، لا يستطيع أن يتصور أن السلطان بالذات كان لا يستطيع الذهاب إلى الأناضول. فإذا كان قد ذهب إلى الأناضول، كان تم القضاء على حركة المقاومة الشعبية وهى في بدايتها. وسوف نفهم ذلك بعد قليل.

فالعائق الذي وضعوه أمام ولي العهد عبد المجيد أفندي الذي أراد الذهاب إلى الأناضول، والموقف الذي أُتخذ ضد الأمير عمر فاروق أفندي الذي ذهب بالفعل إلى هناك فأرجعوه مرة أخرى، هى أدلة واضحة على كيف أصبحت النظرة تجاه القصر، عندما بدأت الحركة الشعبية في الإندلاع.

ولذلك يجب أن نقول هنا أن وحيد الدين ليس هو الذي خرج ضد مصطفى كمال باشا، بل مصطفى كمال باشا هو الذي خرج ضد وحيد الدين...

وسوف أروي حكايتي من أجل توضيح هذه النقطة في المستقبل، وتوضيح أن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة المقاومة الشعبية المباشر:

يستدعي وحيد الدين مصطفى كمال باشا إلى القصر، من أجل إرساله إلى الأناضول في مهمة تحتاج قائداً أوصافه غير عادية، بهدف تأسيس حركة مقاومة شعبية ضده، أي ضد السلطان.

ولنعين أولاً الحكاية على لسان مصطفى كمال باشا، من كتاب أنور بهنان شابوليو، إذ يقول: "جاء ياوري جواد عباس إلى المنزل مرة أخرى، وكان قلقاً وقال:

ـ إن الذات الشاهانية يدعوك على العشاء!

ذهبت إلى قصر يلديز في 14 مايو الساعة السابعة والنصف مساءً. أدخلوني حجرة صغيرة جداً. بعد قليل جاء محمد وحيد الدين. نهضت واقفاً. أجلسني بجانبه. كان قريباً جداً مني، كانت الركبة بجانب الركبة. كان على يمين السلطان منضدة يستند عليها بمرفقه، يوجد فوقها كتاب. كانت الحجرة هادئة، ويسودها الصمت. ويُفهم من هذا أن القصر لم تكن به أثر لأي سعادة... كان السلطان يفكر في عاقبته. وكان هذا هو المنظر الذي يبدو من نافذة كبيرة في حجرة تطل على البسفور: اصطفت أساطيل دول الحلفاء

موجهة مدافعها تجاه القصر... كان منظراً مرعباً يوحي بالتهديد... وكان لابد أن ترى هذا المنظر، وأنت تجلس بداخل هذه الغرفة...

قال محمد وحيد الدين:

ـ أيها الباشا: إنك حتى هذه اللحظة أديت خدمات كثيرة لدولتنا! بقى أن تُدون كلها في هذا الكتاب.

كان هذا كتاب تاريخ.

ـ لا تنسى هذا! إن الخدمة التي ستقوم بها بعد ذلك ستكون أهم خدمة ستؤديها حتى الآن. فإنك إذا اجتهدت بجد وصدق، تستطيع إنقاذ الدولة من الكارثة التي وقعت فيها. إننى عينت بعض القادة على رأس فرق الأناضول، ومهمتك أنت التفتيش على هؤلاء.

قلت : ـ سأفعل ما في وسعي، فلتطمئن!

كان أكثر ما يقلق السلطان هو أن قواتنا كانت متفرقة. فقد خرج الجيش من الحرب منهكاً. وكان السلطان يأمل ألا يبدو معارضاً لرغبات الدول المنتصرة. فلابد من منع أي شئ يثير هؤلاء.

نهض وحيد الدين واقفاً وشد على يدي، وقال:

ـ ليحالفك التوفيق!

غادرت القصر. ومنحني السلطان بعض الهدايا داخل علبة من القطيفة. وفي عتمة الليل ذهبت مع ياوري جواد عباس- مستغرقاً في التفكيرالعميق- إلى سيشلي متجاوزين روابي يلديز."

في هذه الكلمات المروية من مصطفى كمال باشا بنفسه، لا توجد دلالة واضحة على الهدف من استدعائه إلى القصر. فأمر السلطان بأن يكون مسئولاً عن التفتيش على قادة الفرق، وأمره بضرورة عدم وجود أي شئ يخالف رغبة دول الحلفاء مما يؤدي إلى إثارتهم، لا يوضح شيئاً معيناً، بل يثير الغموض، ويعطي انطباعاً بإنه يخفي السبب الحقيقي.

ولأقص أنا حقيقة الأمر، على لسان مصطفى كمال باشا شخصياً، حتى يتضح الأمر. وسوف أبدأ هذا الأمر بإيراد بيانات لها قيمة الوثيقة، أعطاها لي ياور سابق لايزال على قيد الحياة حتى هذه اللحظة.

ما رواه الياور السابق

علي نوري (أوكتاي) هو أحد ياوران السلطان وحيد الدين الذي لا يزال على قيد الحياة، وهو ابن توفيق باشا الصدر الأعظم السابق، وصاحب فندق (بارك) المشهور في (إياس باشا). كان هذا الفندق فيما مضى عبارة عن مبنى قديم أُتخذ كمقراً لوزارة الخارجية، وكان ملكاً لتوفيق باشا في نفس الوقت، ثم احترق بينما كان الباشا يعمل سفيراً في سفارة لندن. وأصبح المبنى القديم عبارة عن قطعة أرض محترقة. ثم أُنشئ

مكانه في عهد توفيق باشا، شركة تضم 7 حجرات، ثم صار اليوم فندق (بارك) الذي يضم 210 حجرة.

اتصلت بالتليفون بـ علي نوري بك أفندي الذي تجاوز الثمانين من عمره، فلابد أنه يعرف معلومات ثمينة عن السلطان وحيد الدين، فهو كان معاصراً له وذو وضع استثنائي.

كنت أشعر بالقلق على هذا المنبع الأخير، وأخشى أن يكون قد جف برحيله عن دنيانا مع آخرين سبقوه. كان قلقي يشبه قلق المسافر الذي لا يريد أن يفوته أخر قطار. جاءني صوته على التليفون، صوت رجل مسن لهجته أجنبية. بعد أن قدمت له نفسي، واوضحت له سبب رغبتي في مقابلته، رد قائلاً:

ـ أنا مصاب بنزلة برد من عدة أيام، وأرقد الآن، فإذا كنت لا تخشى على نفسك من أن تُصاب أنت الآخر بنزلة برد، فتفضل لمقابلتي في شقتي في الفندق.

ذهبت إليه في الحال... أنزلوني إلى شقة أسفل فندق (بارك) بدورين. كانت شقة صغيرة مكونة من ثلاث حجرات، ألوانها ونقوشاتها غاية في الخصوصية... طرازها قديم، زُينت جدرانها بصور ورسومات تعود إلى الزمن الماضي... توجد صور لتوفيق باشا، والد نوري بك أفندي، وسعد الله باشا، حماه في إطارات منفصلة جنباً إلى جنب... كما يوجد العديد من الأشياء الأخرى!... على جدران الحجرة الصغيرة الموجودة في القسم الأمامي، ذات البروز على طراز الطنف، يوجد كل أنواع الماضي المدني والعسكري. وتوجد أيضا صورة (فون دير جولتز باشا)، المهداه إلى علي نوري بك أفندي، وعليها إهداء بتوقيعه.

كان يرتدي روباً (دي شامبر) بني اللون. وكان طويل القامة، أبيض الشعر واللحية. وهو إنسان يعطيك انطباع بإنه كان في شبابه أنيقاً ووسيماً. شعرت أن هذا الرجل الأصيل قد ملأ روحي وكياني. فقد وجدت فيه إضافة إلى نمطه الأوروبي، كل المعاني الأصيلة التي أبحث عنها.

بعد السؤال عن الحال والأحوال دخلت بسرعة إلى الموضوع وقلت له:

ـ إنك ابن رجل كان رئيساً للحكومة في أحد العصور الحرجة في التاريخ العثماني، وهو توفيق باشا! ووالدكم المرحوم، المحترم، كان الصدر الأعظم العثماني الأخير، مثلما كان وحيد الدين السلطان الأخير... وأنت ايضاً كنت ياوراً للسلطان في عهد الهدنة والاحتلال. أنت كنت قريباً من السلطان وحيد الدين، ذلك السلطان الذى وُضع فوق قبره في ديار الغربة، جبلاً ضخماً من الأكاذيب. إنني أطلب من الله أن يمد في عمركم أكثر، فهو وحده ونحن أيضا، نعلم الحكمة من امتداد عمركم حتى الآن. إننى جئت أعرف منك- وأنا مطمئن إلى إنك إنسان تؤمن بالحساب واليوم الآخر- ما تعلمه عن موضوع وحيد الدين، فتنال رضا الله. وأرجوا منك ألا تُخفى شيئاً من الحقيقة. ولتأذن لي بعد موافقتك، أن أذكر اسمك باعتبارك مصدر المعلومات التي ستقدمها لي، وإذا كنت لا تريد ذلك، فسوف أقدمها إلى الشعب التركي دون ذكر اسمك!

رد علي هذا الرجل ذو الإحساس والذوق الجميل، ذو الوجه الأسمر الذي يبدو كنسمة صيف، قائلاً:

ـ تستطيع أن تفعل ما تريد، تستطيع أن تذكر اسمى كمصدر للمعلومات! إنني شخصياً لا أرى ضررورة لإخفاء شيئاًعلى الشعب، سواء فيما يخص بلدنا او ما يخصني أنا شخصياً.

شعرت بتقدير كبير لهذا الرجل من أول وهلة. واصل الياور السابق كلامه قائلاً:

ـ في عهد السلطان وحيد الدين، كنت رائد ركن، وسلاحي الأصلي كان سلاح الفرسان... دخلت في سلك التدريس في كلية أركان الحربية، وأصبحت من "ياوران حضرة السلطان". ودارت حياتي بين القصر، وكلية أركان الحربية. واشتركت في حرب البلقان، وفي الحرب العالمية الأولى.

كان محدثي يدخل في العمق. سكت برهة، ثم استمر في كلامه:

ـ إنني أعرف السلطان وحيد الدين عن قرب، منذ أن كان أميراً، ولياً للعهد. فوحيد الدين كان حمو أخي حقي بك، (حقي بك شقيق علي نوري بك، كان زوج الأميرة علوية ابنة السلطان وحيد الدين)، ولذلك كنت قريباً جداً منه خاصة في فترة ولاية عهده. ولدي ذكريات عن هذه الفترة. ذات يوم- في فترة ولاية عهد وحيد الدين- جاءت جماعة بينما كنت معه في (كورو چاشمة)، لا أذكر الآن أعضاء هذه الجماعة. كانت هذه الجماعة تريد تشكيل فرقة سلطانية...

استقبل ولي العهد الجماعة. وأوضح هؤلاء القادمون الغرض من زيارتهم. قالوا إنهم يريدون تشكيل فرقة سلطانية، وإنهم جاءوا من أجل ذلك، ويريدون مساعدته ومساندته. شعر وحيد الدين بالحيرة، وأجاب قائلاً: ماذا يعني تشكيل فرقة سلطانية؟ إن تشكيل فرقة كهذه قد يُفهم منه أن هناك ضعف وقد تُحدث أثراً عكسياً؟ إن السلطان هو أبو الأمة كلها، فكيف ينحاز لفئة دون أخرى؟ ألن يكون هناك علم للفرقة؟ إنك تعرف أن السلطان وحيد الدين كان صاحب طبيعة وشخصية جعلته يفهم مدى سوء هذا العرض غير المناسب.

سألته:

ـ ما حكمكم على ذكائه وشخصيته؟

أجاب قائلاً:

ـ ذكاء السلطان وحيد الدين لم يبلغ حد الدهاء، لكنه كان يفهم ما يدور حوله بسرعة. كان يحيط بالوقائع ويقيمها، ويفهم معناها الصحيح بسرعة ومهارة.

ـ ماذا كان موقفه في أيام الاحتلال والهدنة التي كانت تعني سقوط الدولة العثمانية، عند نهاية الحرب العالمية الأولى؟

نهض الياور السابق علي نوري بك أفندي، وذهب إلى الحجرة المجاورة، وأحضر كتاب مذكرات صغيراً، مغلفاً بغلاف جلدي ناعم، ووضعه على الكرسي الوثير، وبعد أن دقق كثيراً في الكتاب، أجاب قائلاً:

ـ حتى لا تحيرني التواريخ، فقد كتبتها في هذا الكتاب الخاص بي. بعد يوم من احتلال إزمير (أُحتلت إزمير في 15 مايو عام 1919)، يوم الجمعة 16 مايو، كان

وحيد الدين على رأس الحكومة التي طلبت الهدنة من العدو... بموجب الهدنة كان يتعين عليه أن يسرح الجيش فوراً. لكن من أجل الدخول في أمور كهذه، كان لابد من ضمان الثقة بأن هناك التزام متبادل بين جميع الأطراف برعاية أحكام الهدنة... لكن هذه النقطة لم تكن موضع ثقة أي طرف... كان السلطان يحترق، وفي قمة اضطرابه وقلقه... وأثناء صلاة الجمعة، الذين رأوا وحيد الدين في ذلك اليوم، كانوا أمام صورة إنسان اضطرابه وكدره فوق العادة.

وعند هذه النقطة، يغير علي نوري بك أفندي مجرى حديثه، فيقول:

ـ رأت أسرة ملك إنجلترا أن والدي توفيق باشا، يستحق نيشان الأسرة الملكية الإنجليزية. فقد رأوا إنه لا يوجد رجل دولة عثماني آخر سوى والدي، يستحق هذا النيشان. وقام السلطان أيضا بمنح والدي نيشان الأسرة العثمانية. تفضل لأريك هذا النيشان!

أخذني الياور القديم إلى حجرة أخرى كان يوجد بها دولاب. فتحه، ومن داخله أخرج علبة كبيرة على شكل قلب. فتح غطاء العلبة، كان يوجد فيها معدن يأخذ الأبصار... محفور عليه كتابات تخص أسرة ملك إنجلترا، وحاكم إمبراطورية الهند. كان نيشان مهيب، تحيط به سلسلة ضخمة وغليظة... عُدنا الى أماكنا وجلسنا. دخل علي نوري هذه المرة في الموضوع مباشرة، واستمر في حديثه قائلاً:

بينما كان وحيد الدين قلقاً ومضطرباً في فترة الهدنة، كان يستدعي والدي من حين لآخر، وفي إحدى المرات قال له: "إن الإنجليز يحبونك لدرجة إنهم قاموا بمنحك نيشان الأسرة الملكية...حاول إقناعهم بمعاملة دولة الأتراك بسماح... "كان رد والدي: إن من يوجه السياسة الإنجليزية هو (لويد جورج)، وهو عدو الإسلام وتركيا. فوالدي كان يرى إنه لا فائدة من مراجعة الإنجليز! فحكومة الأسرة المالكة الإنجليزية لاعلاقة لها بالسياسة، وليس من صلاحياتها التدخل فيها! حتى إن قيامنا بمحاولة كهذه قد يكون ضدنا وليس في صالحنا!..."

واصل محدثي كلامه ثم دخل في موضوع آخر، وقال:

ـ إن الأسرة المالكة الإنجليزية قد منحت والدي نيشان الأسرة لأنها رأت إنه يليق به، لكنها منحته له ليملكه في حياته فقط ولا ينتقل لأولاده. وبعد وفاة والدي - في عهد الجمهورية- جاء وفد إنجليزي لحضور الجنازة، واعتقدت إنهم سيستردون النيشان. لكنهم لم يفعلوا. وهكذا ظل النيشان معي. ثم دخل في الموضوع مرة أخرى، وقال:

ـ كان السلطان وحيد الدين منشغلاً جداً بالكفاح الشعبي، وبحركة الإنقاذ الوطنية. بعد بداية الحركة، كان يستدعيني لحضرته مراراً، وكان يأخذ رأيي فيما يتعلق بالأوضاع الداخلية والعسكرية، وكنت قد وضعت خريطة طباعة حجرية كبيرة، أوضح عليها للسلطان الوضع العسكري بأعلام إبر لونها أحمر وأزرق. وكلما أخبرته بأي نصر تحرزه حركة المقاومة الشعبية، كان يتنهد من أعماقه قائلاً (أوه)، وكان يفرح، ويشعر كأنه ولد من جديد. إنني شاهدت هذا بنفسي. إنني أقول، وأؤكد هذه الحقيقة، ولن أمل من تكرارها إلى أن يحين لقاء العبد بربه.

صمت الياور القديم، وبدا عليه التأثر العميق.

إن وظيفتي كمحرر لهذا الكتاب، ليس توجيه هذه الشخصية - التي تُعتبر وثيقة تاريخية كبيرة- إلى قول ما أريده أنا، بل رجحت أن أتركه يسترسل في الكلام على طبيعته حتى أعرف منه التوجهات الحقيقية، وانتظرت حتى يأتي هو بنفسه إلى النقطة الحاسمة الأصلية، دون دعوة مني.

وجاء إلى هذه النقطة!

فجأة، قال الياور القديم هذا الكلام:

ـ بعد صلاة الجمعة الذي تحدثت عنه، دُعى مصطفى كمال باشا إلى مقابلة حضرة السلطان، وقبل الدعوة. وأقنعه السلطان وحيد الدين بالسفر إلى الأناضول.

فقلت محاولاً التأكد:

ـ إقناعه؟ هل كان مصطفى كمال باشا في حاجة إلى الإقناع؟

عندما وصلت إلى هذه النقطة الدقيقة، استمر محدثي في الكلام قائلاً:

ـ سأوضح لك: بعد ساعة أو ساعتين من حضور مصطفى كمال باشا إلى حضرة السلطان، جاء الباش ياور ناجي باشا (هو الجنرال ناجي باشا أل دنيز، المعروف بلقب نازك ناجي باشا الذي انضم إلى حركة المقاومة الشعبية، وظل في القيادة قليلاً، ثم صار عضواً بمجلس الأمة فترة طويلة) إلى حجرة الياوران وصاح قائلاً: "السلطان استطاع إقناع مصطفى كمال باشا. فقد سمعت ما صاح به ناجي باشا كلمة كلمة، وكانت كلمة إقناع هذه قد قالها بالفعل.

ـ أليس الذهاب إلى الأناضول كان بناءً على رغبة مصطفى كمال باشا نفسه؟

فهم محدثي ما أرمي إليه، ففكر قليلاً ثم رد قائلاً:

ـ إنني أعرف أن مصطفى كمال باشا رجل عسكري وقائد كبير، لكن ليس عندي كلام أقوله عن مزاياه الأخرى. مصطفى كمال باشا كان في ذلك الوقت لا يرغب في أي شئ عدا أن يدخل الحكومة. وليس لكى يصبح ناظراً للحربية كما يعتقد الكثيرون، بل كان يتطلع لأن يصبح صدراً أعظم. في ربيع عام 1919 كان الوضع كالآتي: كان هناك رأي يقول بإنه لا يتعين على جيشنا في الشرق أن يلقي سلاحه خشية أن تقوم دول الحلفاء باختراقنا مرة أخرى من المركز. وكان السلطان مقتنعاً بهذا الرأي. أما مصطفى كمال باشا المعروف بإنه قائد كبير وقدير، وإرادته قوية، كان يرى إنه لابد أن تقوم حكومة استانبول بمقاومة قوات الحلفاء، وجعلها ترضخ لطلباتها، ولذلك كان يريد أن يسيطر على الحكومة لتحقيق هذا الهدف. لكن هذا الاعتقاد، وهذا الرأي، لم يكن ذو قيمة سياسية أو عملية. لأنه لا يُنتظر من حكومة مغلوبة، وقّعت هدنة مودروس، أن يكون لديها قدرة أو سلطة على مقاومة العدو المنتصر.

قاطعت كلام علي نوري بك أفندي، وقلت:

ـ إذا كان الأمر هكذا فإنه لا يُنتظر أيضا من مصطفى كمال باشا- الذي لم يتمكن من دخول مجلس الوزراء لتحقيق ذلك الهدف- أن يكون قد خطط من قبل لحركة المقاومة الشعبية.

استمر محدثي في الكلام دون أن يلتفت لما قلت:

ـ إن مصطفى كمال باشا قد أُرسل إلى الأناضول. والغرض من إرساله كان لتحقيق ما يلي: إما القضاء على المقاومة التي في الشرق، ونزع سلاح الجيش في الجبهة الشرقية، وهذا يناسب رغبة الإنجليز، أو العكس تماماً، وهو من أجل تشكيل حركة مقاومة شعبية...

ـ في اعتقادكم، أي الهدفين كان هو الحقيقي؟

أنا ببساطة أسجل الاحتمالات، وأقدم العناصر العائدة على الوقائع، ولتحكم أنت على ما تسمع كما ترغب!... كنت لا أرى طريقاً مؤكداً لعمل تفسير إضافي من جانبي. لكنني تأكدت من نقطة واحدة وهى، إن السلطان هو الذي أقنع مصطفى كمال باشا بالذهاب إلى الأناضول.

وحتى أفسح مجالاً لمعرفة أي الإحتمالين كان هو الواقع، سألت سؤال في صميم القضية:

ـ فيما يتعلق بهذا الموضوع، هل ما قيل عن أن السلطان منحه نقوداً كثيرة وقال له: "إذا ذهبت أنا إلى الأناضول بوصفي السلطان والخليفة، فإن هذا سيقلق قوات العدو، ويؤدي إلى ضياع الوطن كله، ووقوعه في الأسر. ولذلك أقول لك بوصفك قائداً، أن تذهب أنت إلى الأناضول، وإذا لزم الأمر، قم بعصياني أنا والحكومة، وقم بثورة تضم الأمة كلها" صحيح فعلاً؟

لا أعرف: أعرف فقط أن الحكومة لابد وأن تكون قد منحته مخصصات لزوم إرساله إلى هناك.

وقابلت هذا الرد السياسي من جانبه بقولي:

ـ غير المخصصات، فهذا شئ طبيعي... لكن هل منحه السلطان نقوداً كثيرة من جيبه الخاص؟ هناك من يقولون إنه منحه 30 ألف ليرة ذهب، وهناك أخرون يقولون 42، ووفقاً لرواية أخرى 60 ألف ليرة...

ـ لا أعرف! كل ما أعرفه، أن مصطفى كمال أُرسل إلى هذه المهمة من جانب فريد باشا، بأمر من السلطان!

بما أن السلطان هو الذي أصدر الأمر، ألا يوجد احتمال أن الهدف الرئيسي أُخفي عن الحكومة؟ خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطان وحيد الدين كان كتوماً لأقصى درجة، وماهراً في التدبير؟

ـ حسناً!... وحيد الدين كان لا يحب فريد باشا، ولا يعتمد عليه. لدرجة أنه أثناء مباحثات الصلح التي جرت في قصر فرساي في باريس، استدعى السلطان، والدي وأمره بالآتي: "إذهب في إثر فريد باشا وراقبه!..."

وعند هذه النقطة، ترك محدثي الخط الأساسي للقضية، واستغرق في أمور تعود إلى مؤتمر الصلح، وهى أمور لها أهمية تاريخية كبيرة، ثم عاد مرة أخرى إلى الكلام عن طبيعة وحيد الدين المحبة للوطن والمرتبطة به. وبدلاً من تكرار هذا، سأورد الحوار الذي دار بين مصطفى كمال باشا ووحيد الدين، وهو الحدث الرئيسي في قضيتي

وبحثي. وبعد أن نستمع لهذا الحوار من مصطفي كمال باشا، سأعرضه من وجهة نظري، ومن خلال الوثائق...

مكان ميلاد الحدث الرئيسي

إن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة المقاومة الشعبية، وهو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول لتحقيق هذا الهدف... وكان مكان ميلاد هذا الحدث، قصر يلديز، في حجرة صغيرة تطل علي البحر.

التقى السلطان بمصطفى كمال في هذا الصالون الذي التقى به فيه من قبل مرة أو مرتين، وكانت هذه المرة هى أخر مرة يرى فيها السلطان مصطفى كمال.

والآن لنعد المسرح لاستقبال نتيجة المحاسبة، وكل شيء كان بمثابة وثيقة، وهو ما سأورده بعد قليل:

عُين مصطفى كمال باشا مفتشاً على وحدات الجيش التاسع، وفقاً للهدف الذي تقرر خلال لقائه مع السلطان من قبل، ومن أجل الذهاب إلى المنطقة المنتشر فيها هذه الوحدات، جهز نفسه للتحرك إلى سامسون بسرعة. وكان هذا هو سبب وجوده في قصر السلطان.

وكانت حجة تعيينه في هذه المهمة الجديدة، هو وجود صدام بين الروم والأتراك في سامسون وحواليها مما أدى إلى اضطراب الأوضاع هناك... فيوضحون للإنجليز الذين كانوا يريدون القضاء على هذا الاضطراب بسرعة، أن مصطفى كمال يستطيع القيام بهذه المهمة نظراً للمزايا التي يملكها بجانب صلاحياته العسكرية على النحو التالي:

ـ إن هذا الشخص هو الجنرال الذي سيقضي على تمرد الجيش في الشرق، ويعيد النظام والأمن والاستقرار للمنطقة، ويقضي على الاضطرابات.

هذه اللعبة التي لُعبت بهدف خداع الإنجليز، لعبها وحيد الدين بنفس الشكل على حكومته، أي إنه أفهم حكومته نفس هذا المفهوم.

وفي الصفحة رقم 190 من الكتاب المسمي بـ (أناضولي احتلالي) أي احتلال الأناضول، سنرى تلك السطور التي نوردها، وهى توضح أن السلطان هو الذي قام بتعيينه مباشرة لهذه المهمة:

"قال راجي عزمي ياپان بك الذي غادر الدولة حتى لا يدخل ضمن قائمة المائة وخمسين التركية، تعقيباً على هروب وحيد الدين: إن السلطان السابق قال له ذات يوم في سان ريمو:(إنني أخطرتكم أن تعتبروا مصطفى كمال باشا، اللواء أركان حرب من ياوراني، عندما أخبرتكم إنه سيُرسل كمفتشاً على سامسون!)".

يُفهم بوضوح من هذه الشهادة- التي اتضحت نتيجة التدقيق في كلمة خصم لوحيد الدين- أن من عين مصطفى كمال باشا في المهمة الجديدة، ليس وزير الحربية أو الصدر الأعظم. بل السلطان الذي أخفى حتى عن الحكومة، الغرض من هذا التعيين. وما تردد

حول أن السلطان وحيد الدين وافق على هذا التعيين مضطراً، كان كلاماً ملفقاً لا أساس له من الصحة.

في نفس الكتاب في نهاية صفحة 189، وبداية صفحة 190، يقول الكاتب وهويتحدث عن لقاء السلطان ومصطفى كمال باشا:

"ـ اجتمع السلطان وحيد الدين بمصطفى كمال باشا، ولم يعد هناك شك إنه سيوكل اليه أمر هذه المهمة الهامة. فبعد اقتناعه بذكائه عندما تعرف عليه في فترة ولاية عهده وتعيينه ياوراً فخرياً له، لم يعد هناك سبب يشككنا في ارتباطه به. فكلاهما كان يكره أنور باشا، فلابد أن شعورهما بنفس الإحساس تجاه شخص واحد قد قربهما من بعض أكثر. كما أن وحيد الدين يعرف طبيعة ومزاج مصطفى كمال باشا، وأنه يستطيع القيام بالمهام الكبيرة، ومحتمل إنه كان يشعر في نفسه أن النتيجة التي سيتم تحقيقها ستكون مفيدة للطرفين."

لكن وجهة النظر هذه- التي نستطيع أن نصفها بكلمة "اعتراف"- تُظهر بعد التحليل عنصر الحقيقة الذي يوضح أن أمر التعيين جاء من السلطان:

"وهكذا تجدون في التعليق أهم سبب، وهو صدور قرار سلطاني، بسرعة وبدون تردد ولو صغير، خاص بتعيين مصطفى كمال باشا في 30 ابريل. إذ كتبت وزارة الحربية إلى الصدر الأعظم بشأن رغبة السلطان في تعيين الباشا، وفي نفس اليوم أُخذ قرار السلطان."

هل يبقى هناك شك في أن وحيد الدين هو نفسه الذي أمر بتعيين مصطفى كمال باشا، وأخفى الغرض من هذا التعيين في نفسه؟ وأنه هو الذي أظهر لحكومته رسمياً، ولقوات الحلفاء أن هذا التعيين إنما هو من أجل تحقيق الأمن في سامسون ونواحيها وإخضاع جيش الشرق لشروط الهدنة...

ونأتي هنا لأهم وأدق نقطة.

تُرى هل أبدى السلطان أو الحكومة سبباً مقبولاً في أثناء هذا التعيين جعلت مصطفى كمال "يقتنع" مثلما أفاد الياور السابق علي نوري بك؟ وإذا كان مصطفى كمال قد قبل التعيين فما الداعي لكلمة " إقناع"؟ لكن إذا كان لم يوافق، فيضطر هنا أن يفكر أكثر في أمر هذا التعيين، ويكون بحاجة إلى الإقناع؟

وإذا كانت حركة مثل إثارة المقاومة الشعبية هى خطته ودعوته، فهل كان هناك لزوم أن يكون هناك إقناع له من جانب السلطان؟

وهكذا لم يعد هناك شك بعدما أخبرنا به الياور السابق بكل صدق ووفاء، ووفقاً لشاهد شخصي مثل ناجي باشا الذي كسب ثقة كمال باشا حيث يقول: إن السلطان قد "أقنع" مصطفى كمال في أخر دقيقة من اللقاء الذي جرى بينه وبين ياوره الفخري، وإن السلطان نجح في ذلك.

وهنا لايسعنا إلا أن نقول، إن مصطفى كمال وافق بعد تردد على المهمة الجديدة التي أوكلها إليه السلطان في أخر لقاء له معه.

فقد استقبل وحيد الدين الباشا مصطفى كمال في الصالون الصغير واقفاً على قدميه أولاً، ثم أشار إليه بالجلوس، وجلس بجانبه لدرجة تلامس ركبتيهما.

ومن ناحية بحثنا، فإننا نخرج من هذا اللقاء الأخير بهذه النتيجة:

يُطلع وحيد الدين، مصطفى كمال باشا من النافذة على أسطول العدو ويقول له كما أوضحت بعض المصادر:

ـ أيها الباشا، هل ترى مدافع العدو التي صوبت ماسوراتها تجاه القصر؟ إن هذا الوضع قد قضى على أمن القصر والدولة كلها!

وفي نفس الوقت يقدم وحيد الدين القهوة التي أحضروها بيده إلى مصطفى كمال باشا، ومرة أخرى يقدم له السيجارة بيده، ثم يستمر في كلامه قائلاً:

ـ إننا هكذا نجلس بجانب بعضنا البعض، ويكون مناسباً أكثر أن نتحدث همساً. فلا أحد يدري كم أُذن وراء جدران هذا القصر، تُصغي لما نقوله؟

وهكذا يبقى مصطفى كمال باشا ـ الذي يشعر من هذا الأسلوب بأن هناك شيئ غير عادي- أمام حوار يمثل لحظة ميلاد حركة المقاومة الشعبية، ويشكل حدثاً بحجم وطن سيدخل في زمة التاريخ، إذ يقول له السلطان:

ـ أيها الباشا! من أجل إنقاذ تركيا لا يمكن انتظار أي حركة تخرج من استانبول. إن استانبول، قلب الوطن، واقعة في قبضة العدو. لايمكن إنقاذ أي جزء من جسد الوطن بالإضافة إليها (أي استانبول) سوى العضو الذي يحيط بالقلب. إن ما بقي في اليد بعد استئصال جميع الأجزاء التي كانت تربط أطراف الدولة بالقلب هو الوطن الأم، التعس المظلوم! يعني الأناضول!.. لابد من الذهاب إلى الأناضول، وهناك اشعل مقاومة شعبية!

نستطيع أن نقول هنا أن هذا الكلام المهم كان بمثابة مفاجأة لمصطفى كمال. لكن يمكن أن يُقال لنا ما يلي:

ـ قل يا هذا من أين تأتي بهذا الكلام الذي يعطي إيحاءً بإنه من وحي الخيال كحوارات المسرح؟ ومن أجل بيان الحقيقة العلمية والتاريخية، بشهادة من تستطيع أن تثبت هذا الحوار الذي يجب استناده على وثيقة؟

هذا هو جوابي:

ـ أولاً اصغ إلي! ثم بعد ذلك اطلب الإثبات! وبينما أرسم لوحة وحيد الدين ومصطفى كمال باشا، ابق أنت بعيداً عن إطلاق أحكام مسبقة! ولا تنحاز لا لهذا الطرف أو لذاك، ولا تتأثر بشئ، واحكم بموجب النتيجة! توجد في الرياضيات قاعدة: إما أن يكون عندك الحكم والنتيجة مسبقاً، وأنت تقول كيف وصلت إلى هذا، أو يحدث الإثبات أولاً، ثم تأتي النتيجة بعد ذلك. وأنا أفضل قاعدة تقديم الحكم في البداية، ثم أثبته بعد ذلك. هكذا!

يقول السلطان لمصطفى كمال باشا:

ـ إنني أرسلك إلى الأناضول من أجل إشعال حركة مقاومة شعبية! وهذا يختلف عن سبب ذهابكم المعروف لقوات الأعداء- وخاصة الإنجليز- وللحكومة. إن قوات الاحتلال

تعرف ان ذهابك إلى سامسون الهدف منه تحقيق الأمن هناك، والقضاء على مقاومة الجيش الذي في الشرق. أما السبب الحقيقي لذهابك فلن يعرفه أحد سوانا، أنت وأنا فقط. وبدأ يسرد بنفسه تفاصيل المقاومة الشعبية التي لابد وأن تملأ روحها أنحاء الأناضول، فيقول: إن العمل الموكل إليك هو إثارة الحماسة في الروح وإشعال المقاومة، وتوحيد الجيش، وتشكيله في دائرة مركزية واحدة. وقد تم إخبارنا أن اليونانيين قد بدأوا احتلال إزمير. وأنتم تعرفون أيضا المناطق الأخرى المحتلة... لكن هذا الاحتلال الأخير يفتح لك الطريق لمواجهة اليونانيين، وتأكد أن الانفعال الشعبي سيكون وسيلة لإشعال المقاومة. فمن الواجب علينا أمام شروط الهدنة التي أُبتلينا بها، أن نشعل حركة مقاومة تكون موحدة ومركزية. إنني فكرت طويلاً جداً في القائد الذي يمكن أن أئتمنه، وأوكله بهذه المهمة. وفي النهاية وجدتك أنت لأنني أعرف صفاتك! وإنني أصدر الآن قرار تعيينكم في الرتبة التي تناسب وصفك الآن، حتى يُصدق كل طرف ما ذكرته من أسباب.

ويواصل وحيد الدين حديثه بنغمة وأداء مختلف.

ـ هنا يخطر على بالي سؤال:

"لماذا لا تفكر أنت بصفتك السلطان والخليفة أن تذهب إلى الأناضول، وتثير مقاومة شعبية على أعلى مستوى؟ ولماذا الأناضول بالذات الذي تقترح أن تنطلق منه المقاومة الشعبية؟ الإجابة: "إن محاولة كهذه ستقتل الحركة قبل أن تولد، وتكون سبباً في القضاء علينا. فإذا أعددت لهذه المقاومة سراً، واستطعت إشعال مقاومة فعلية في الأناضول، ستكون مقاومة على أعلى مستوى، ولكنها ستضع أمتي في أزمة، ويكون شيئاً مثل الانتحار. فحينئذ ستتخلى قوات الحلفاء عن ترددها، وتهجم كلها علينا، لأن الوضع أصبح يستحق ذلك. وتعمل على تصفيتنا جميعاً. وتقوم بسحق الحركة. عندئذ لا يكون أمامنا حلاً آخر. فيتم عرقلة الصلح، وفرض شروط جديدة.

أما مقاومة ذات وزن، وتأتي من الأمة، وليس من مركز الدولة التي تستعد في تلك اللحظة لمؤتمر الصلح، فستؤدي إلى الحفاظ على حقوقنا عندما نجلس على مائدة المفاوضات في المؤتمر، وستشكل هذه الخطة دعماً إضافياً لنا، أمام الخطة التي تستهدف ترويعنا. وهكذا تفهم أوروبا أنها في مواجهة أمة لا تنام، وإذا لزم الأمر فهى مستعدة للتضحية بروحها من أجل الاستقلال. ويؤدى هذا إلى تخفيف الشروط. يعني من أجل إمكانية نجاح المقاومة الشعبية، لابد أن تكون هذه المقاومة خارج استانبول وبعيدة عن الدولة والسلطان، ولابد من المحافظة على شكلها بحيث لا تسبب لعدونا الإحساس بالدهشة والقلق. ويمكن حتى أن نجعل هذه الحركة تبدو وكأنها ضد الحكومة، وضدي أنا أيضا. نعم أيها الباشا، لابد من الذهاب إلى الأناضول، لتحقيق هذا الهدف بذكاء عند قيادتكم الجنود والمدنيين في أدق مهمة، وليوفقكم الله ويكون معكم.

وبعد هذا الكلام الذي قاله السلطان، والذي شكل أساس حركة الإنقاذ الوطني كلها- ذلك السلطان الذي دُفن تاريخه في تراب الوطن الذي تصدع من الاضطراب، وظل هذا الكلام سراً في داخل ذاكرة بعض الأرواح الفانية وطُمس عليه- يقول هذه الكلمة الأخيرة إلى مصطفى كمال باشا الذي اعترف هو نفسه أن السلطان قد قالها له وهى:

"ليوفقك الله! "

تلك كانت أخر كلمة قالها السلطان لمصطفى كمال باشا.

ـ من أجل أن تنجز هذه المهمة العظيمة، ها أنا أعطيك من نقودي الخاصة (...) قطعة ذهبية. (هذا الرقم لم تُعرف قيمته الحقيقية، فكما قلنا من قبل إنه 30 ألف ليرة وفقاً لإحدى الروايات، و42 ألف وفقاً لرواية أخرى، وتقول رواية ثالثة إنه كان 60 ألف ليرة)... لكن من أجل أن تنجح في مهمتك، يجب أن يكون في يدك اعتماد مالي وصلاحية تمكنك من القيام بها. لذا سيحتاج الأمر إلي إصدار "خطاً همايونياً". بالإضافة لذلك، سأعطيك من جانبي هدية علي سبيل التذكار... (هي عبارة عن ساعة ذهبية حُفر عليها الحروف الأولى من اسم السلطان)... اذهب وانقذ الوطن! فهل اقتنعتم من حيث المبدأ، بما يجب أن يواكب تلك المهمة من أجل أن تتحقق؟

ويتم "إقناع" مصطفى كمال باشا على حد كلام الياور السابق، ويدخل ناجي باشا، كبير الياوران إلى حجرة الياوران، ويصيح كما أوضحنا من قبل قائلاً: "السلطان أقنع مصطفى كمال باشا"، ويخرج مصطفى كمال باشا من عند حضرة السلطان وهومقتنع تماماً بهذا الموضوع بعد أن كان متردداً. وبعد يوم يتجه نحو سامسون بالباخرة "باندیرما".

هاهى اللوحة التي رسمناها مراراً... أخبروا مصطفى كمال باشا أن محمد علي بك وزير الداخلية سيعطيه مظروف به مخصصات رسمية عند تحركه.

وعند خروج مصطفى كمال باشا من عند حضرة السلطان، يخاطبه السلطان الذي لن يراه مرة أخرى بهاتين الكلمتين: "ليوفقك الله"، وهو مارواه مصطفى كمال باشا شخصياً في مذكراته.

والآن يأتي بنا هذا المشهد الذي اجتهدنا لإحيائه بأسلوب الروايات، والذي هو عبارة عن الحقيقة نفسها، إلى نقطة إثبات أن فكرة اندلاع حركة مقاومة شعبية إنما هى فكرة السلطان.

وبعد أن فحصنا سوياً أولاً الأدلة كلها، لندخلها الآن في تركيبة واحدة لمعمل التحليل لتقييمها، والحكم عليها:

إن أدلتنا وهى عبارة عن 11 دليل كامل، مختلفة من ناحية القيمة والقوة. وقد رقمت هذه الأدلة بموجب القيمة والقوة التي بينهما. أربعة من هذه الأدلة في قيمة الوثيقة العلمية، وخمسة منهم في حكم قرينة واضحة أقرب إلى الوثيقة، أما الدليلان الأخيران فهما عبارة عن أدلة مروية من جانبي مباشرة. ونظراً لوفاة مصادرهما، فستكون المسألة مسألة ثقة. إذا تم الوثوق بها فستكون قيمتها كبيرة، أما إذا لم يتم الوثوق بها، فلن تكون لها قيمة، لكن لابد من فهمها في إطار الأدلة الأخرى.

الوثائق القاطعة :

1ـ الوثائق التي نشرها محمد علي بك ناظر الداخلية السابق في أوروبا...

2ـ الأثر المهم والمدهش الذي حُظر نشره في الدولة، ونُشر في مصر لصاحبه مصطفى صبري المشهور بأخلاقه وتدينه بين شيوخ الإسلام، على حد وصف وحيد الدين له...
3ـ شهادة علي نوري بك الياور السابق.
4ـ مذكرات كاظم قره بكير.
5ـ الخط الهمايوني الذي قُدم لمصطفى كمال باشا على غير المعتاد.

القرائن التي في قيمة الوثيقة :

6ـ التخطيط الجيد للسلطان وحيد الدين في تلك الأثناء، فقد قام بإعادة القادة الشباب المجتمعين في استانبول بعد أن تركوا وحداتهم، إلى الأناضول ليكونوا على رأس وحدات الجيش الموجودة هناك، وحدد لهم المهام الواجب القيام بها، دون أن يعرف الجميع ما الذي سيفعله هؤلاء...
7ـ بعد بداية حركة المقاومة الشعبية أخذ وحيد الدين يتابعها دون أن يبدو أن له علاقة بها، مخفياً حبه وقلقه وأمله واضطرابه.
8ـ ما رواه الأمير محمود شوكت أفندي...
9ـ شهادات بعض المؤرخين...
"ما رويته أنا شخصياً، وهو في قيمة الوثيقة، ويتضح صحته عند مقابلته بالوثائق الأخرى. والقارئ حر في تصديقه أو عدم تصديقه، فهى مسـألة ثقة"
10ـ ما سمعته من المارشال فوزي چاقمق...
11ـ ماروا‌ه لي رفعت باشا...
وسيتضح عندما نقوم بتحليل هذه الوثائق، الواحدة تلو الأخرى، في معمل الإثبات أنه لولا محمد وحيد الدين السادس أخر سلاطين آل عثمان، ما كانت هناك حرب استقلال.

في معمل الإثبات

الدليل الأول، وهو الوثيقة التي نشرها محمد علي بك وزير الداخلية السابق في أوروبا كما قلنا. كان محمد علي بك ضمن قائمة الـ 150. كان واحداً من أصدقاء مصطفى كمال باشا المقربين في البداية. وكان يفعل ما بوسعه من أجل أن يحظى بتقديره. وهذه حقيقة واضحة في بعض الكتابات التي في شكل مذكرات. وبعد أن تحقق النصر لحركة المقاومة الشعبية، تم وضع القائمة السوداء، قائمة الـ 150 شخص الذين كانوا بعيدين عن الحركة، أو كانوا معارضين لها. وكان محمد علي بك ضمن هذه القائمة. وذهب إلى باريس ليعيش هناك، وأصدر صحيفة باسم "زنجيره فورولمش جمهوريت" أي الجمهورية المقيدة بالأغلال. في هذه الصحيفة نشر وثائق قيمة مثل بعض الادعاءات والاتهامات الثقيلة التي ساقها ضد مصطفى كمال باشا. أحد هذه الوثائق تقول أن وزارة الداخلية قدمت لمصطفى كمال باشا، بأمر وحيد الدين 25 ألف

ليرة "كمخصصات سرية" في لحظة ركوبه السفينة. والآن إليك هذه الوثيقة من الكتاب الذي تناولناه من قبل، كأحد المصادر المناهضة لدعوتنا، وهو كتاب "احتلال الأناضول" لصباح الدين سالاك الذي يُعتبر خصماً لوحيد الدين، وهو ينتمي لحزب الشعب. يقول في صفحة 117:

"عندما جاء مصطفى كمال إلى أنقرة بعد مرور سبعة شهور ونصف على مغادرته استانبول، كان معه 1200 ليرة. وقام المفتي رفعت أفندي بجمع 6 ألاف ليرة من تجار أنقرة وقدمها إلى الباشا."

والكاتب سجل أنه أخذ هذه المعلومة عن حسن فهمي بك، من وكلاء مالية الحرب القومية، ويوصل حديثه على النحو التالي:

"لم يكن مع مصطفى كمال نقوداً. وبينما كان يغادر استانبول من أجل المشروع الكبير، هل كان يفكر إنه سيحصل في الأناضول على ألف ليرة؟ لا نعرف. لكن المعلومات التي دققنا النظر فيها تُظهر أن مصطفى كمال باشا سعى كثيراً من أجل أن يأخذ مخصصات كبيرة جداً، بالإضافة إلى مرتب ثلاثة شهور لضباط هيئة القيادة، في اليوم الذي سيتحرك فيه من استانبول. ويقول خصومه السياسيون الذي قام بتصفيتهم بعد الانتصار، إنه ذهب إلى الأناضول ومعه نقوداً كثيرة منحها إياه السلطان. لكن ليس هناك دليل حتى الآن ولو صغير يدلل على صحة هذه الرواية. ونشر محمد علي بك - الذي كان وزيراً للداخلية عند مغادرة مصطفى كمال باشا استانبول والذهاب إلى سامسون- في الصحيفة التي أصدرها في باريس باسم (زنجيره فورولمش جمهوريت) صورة الإيصال الذي بقيمة 25 ألف ليرة المقدمة إلى رئيس مفتشية الجيش التاسع، مصطفى كمال باشا، في لحظة رحيله عن استانبول. وهكذا فإن النقود التي أحضرها مصطفى كمال معه من استانبول، كانت عبارة عن هذه النقود."

انظر إلى درجة التناقض، فمصطفى كمال الذي بدا مفلساً بلا نقود، يتضح أنه كان معه 25 ألف ليرة، وهى تساوي 4 مليون ليرة بالنسبة لقيمة النقود في هذه الأيام إذا كانت بحساب النقود الورقية، ويُستخف من هذا بالقول: "وهل هذا شيء ذا قيمة!". وبعد ذلك يقال إنه كان معه 1200 ليرة فقط.

فالحساب واضح: في ذلك الزمان كانت الليرة الذهب تساوى 4 ليرة ورقية، أما بقياس هذه الأيام فإن الليرة الذهب تساوى 175 ليرة ورقية... وبهذا يكون مبلغ الـ 25 ألف ليرة التي أخذها، تساوي اليوم ما لا يقل عن 4 مليون ليرة ورقية... إذاً كيف صرف مصطفى كمال هذه النقود التي مُنحت له للصرف على الاحتياجات الخاصة والسياسية؟ وكيف يمكن نفاد هذه النقود في سبعة شهور ونصف؟

ونحن هنا لم نشِر إلى حساب الـ 30 ألف ليرة التي خرجت من يد وحيد الدين، ومن خزينته الخاصة على إنها هى المخصصات السرية التي منحتها وزارة الداخلية لمصطفى كمال، لأننا إذا فعلنا ذلك فسيكون هناك فرق واحد مليون ليرة. إذ أن 120ألف ليرة بقياس ذلك الزمان تساوى 22 مليون ليرة ورقية بقياس هذه الأيام، والمبلغ كله

سيصير 26 مليون ليرة ... ونحن هنا أخذنا أقل حد قيل عن المبلغ الذي دفعه وحيد الدين وهو 30 ألف ليرة.

بعد ذلك يقول الكاتب المنتسب إلى حزب الشعب كالببغاء، كيف تم منح مصطفى كمال الذي بدا مفلساً، 25 ألف ليرة:

"إن محمد على باشا وزير الداخلية أعطى مصطفى كمال باشا بنفسه هذه النقود كمخصصات سرية لحظة تحرك السفينة التي أقلته إلى سامسون، وكان معه راضي بك بوصفه أحد مديري شعبه الأمن، وهو الذي كتب الإيصال الذي نشر صورته."

وعندما ندقق النظر في تلك النقطة نستطيع أن نقول إننا أمام وثيقة توضح أن مصطفى كمال مأمور من جانب السطان للقيام بمأمورية معينة، وإنه منحه هذه النقود لهذا الهدف فقط، وليس كما يُزعم إنه لمصاريف مصطفى كمال باشا الشخصية، وليس في سبيل هدف ما. وبعد أن تم دفع مخصصات، وراتب ثلاثة شهور لكادر مقر القيادة، إلى قائد مرسل لمهمة القضاء على مقاومة وحدات الجيش التي في الشرق، وإعادة الأمن إلى سامسون وحواليها، كيف لا يكون هناك سبباً آخر لمنحه هذا المبلغ الكبير. وهكذا فإن النقود تُعد دلالة على أن هناك مهمة كبيرة، وإنها مُنحت من أجل ضمان إشعال حركة كبيرة تشمل الدولة كلها، هذا التحليل قاطع عند هذه النقطة، ومهما كانت الوجهة التي صُرفت فيها هذه النقود، ونظراً لأنه ثبت أنه أخذ فعلاً مبلغاً من المال لهدف خاص بالسلطان الذي أرسله إلى الأناضول، يثبت أيضا أن هذا الهدف ليس سوى تشكيل جبهة المقاومة الملية.

والأثر الذي لا أتذكر اسمه، والمطبوع في مصر، والخاص بشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، يُعد من أهم الوثائق[480].

هذا الأثر لم أراه بعيني، ولم أرى محتواه الأصلي أو المترجم، ولكني أعرف الرسالة التي يحملها هذا الأُثر الذي كُتب في مكان بعيد، ومُنع من دخول الدولة. وبعيداً عن الأفكار الشخصية التي في الأثر، وعن رأيي في هذه الأفكار، أحب أن أقول بناءً على ما أخبرني به القارئين لهذا الأثر، أن ما جاء فيه يشبه ما نشره محمد علي بك وزير الداخلية السابق في باريس، وهى بعض المعلومات المهمة التي تهمنا في بحثنا هذا. إنني لاأميل إلى الأراء الشخصية حول مصطفى كمال، ولا أستند عليها، أو أشارك فيها، لأنني ليس في حاجة إليها. لكن غرضي هو تقييم الوثائق التي تشير إلى أن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة الإنقاذ الوطني.

وقيل لي بشكل مؤكد، إن هذا الأثر يوضح بالوثائق أن وحيد الدين هو الذي أرسل مصطفى كمال إلى الأناضول من أجل بدء حركة الإنقاذ. كما يوضح مقدار الليرات الذهبية التي أعطاها له السلطان، ونوع الهدية والغرض منها.

---

480 - يقصد الكاتب هنا كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) تأليف مصطفى صبرى، شيخ الإسلام للدولة العثمانية.

هذا الأثر الذي أشرنا إليه، يعد مصدراً مهماً للمؤرخ الذي يحب إظهار الحقيقة في المستقبل، وإنني أعتبره - بصرف النظر عن الأفكار التي يحويها- بمثابة مستودع وثائق.

والوثيقة الثالثة، هى رأي علي نوري بك أفندي ابن الصدر الأعظم توفيق باشا، وياور السلطان الراحل الذي كان يعرف كل شيء عن وحيد الدين، وهو شخصية أبعد ما تكون عن تحريف الحقيقة بأي شكل حيث قال: "إن السلطان أقنع مصطفى كمال بالذهاب إلى الأناضول"، واستند في كلامه على ناجي بك، باش ياور السلطان، ويسمى أيضا "جنرال أل دانيز". فهذا الرأي يثبت أن السلطان هو صاحب فكرة الثورة الملية، وأن مصطفى كمال باشا كان متردداً في البداية، ولامجال للشك في هذا.

أما الوثيقة الرابعة، فهى الأثر الخاص بكاظم قره بكير باشا، وهو من الشخصيات الهامة والعظيمة في الحرب القومية. تم جمع هذا الأثر وطبعه في بداية عهد إينونو بعد تعرضه لعدة معوقات، ثم تم إعادة طبعه بعد إجراء بعض التعديلات عليه. في هذا الأثر دليلاً - كما أوضحنا في النموذج الذي أوردناه له فيما سبق- على أن مصطفى كمال باشا لم يكن يفكر في شيء في فترة الهدنة والاحتلال سوى دخول الوزارة، وأن قره بكير باشا بذل ما في وسعه حتى يغير مصطفى كمال باشا من نيته تلك. فهذا دليل في حكم وثيقة قاطعة، يشير إلى أن مصطفى كمال باشا لم يكن يسعى إلى تزعم حركة قومية في البداية. وهنا يصبح من الضروري، من أجل الحق والحقيقة، أن نقول إنه أخذ هذه الفكرة من السلطان.

والوثيقة الخامسة ربما تكون أقوى من كل الوثائق إذا تناولناها بالطبع بالتحليل العميق، وهى "الخط الهمايوني" الذي مُنح لمصطفى كمال باشا.

ولننشر أولاً هذا "الخط الهمايونى" أمام العين كلمة كلمة:

"من ياوران السلطان إلى اللواء أركان حرب مصطفى كمال باشا:

بالنظر للوضع السياسي الحاصل الآن، والذي أصبح في صالح حلفاء الحرب الكبيرة، وبسبب تعرض ملك أجدادنا العظام، ومقام الخلافة، للمشاكل وللمخاطر المهلكة، فإني أصدر قرار حكومتي السنية بتعيينكم لتقوموا بتشكيل حركة موحدة تضم الأهالي والموظفين والجنود من أجل تأمين الأمن في المنطقة. وبذل الجهد لمنع وقوع أشياء ضد رغبة السلطان. والعمل على دعم حماية الدولة، وتخليص سلطنتنا من أيادي المعتدين. ولتبلغوا سلامي السلطاني للجميع هناك.

محمد وحيد الدين"

هذا الفرمان أو الخط الهمايوني هو برهان قاطع، لايدع مجالاً للشك، على أن السلطان وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة الإنقاذ الوطني.

الواقع أن طيلة التاريخ العثماني لم يتم منح فرمان كهذا لأي شخص. وهذا الفرمان لا يبدو فيه صراحة وعلى نحو مباشر، أمر إعطاء دور منقذ الوطن لمصطفى كمال، بل فيه أمر لمصطفى كمال بتشكيل حركة موحدة تضم الموظفين والشعب والجيش، وذلك لإخفاء هذه الغاية، وهى مهمة إنقاذ الوطن.

والحقيقة أن هذا الفرمان لم يلفت انتباه أى شخص لدلالته الواضحة، ومعناه الحقيقي. ولعدم كونه وثيقة، ظل مجهولاً حتى الآن. يعني شيء ظل مجهولاً في داخل شيئاً معلوماً. ولعل عدم كتابته على نحو صريح، كان بناءً على رغبة السلطان، حتى لا يفهم العدو السبب الحقيقي لإرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، ولذلك كُتب هذا الفرمان على نحو مبهم وغامض، وظهر في بدايته السبب غير الحقيقي للتعيين. أما تلك الجمل التي في أخر الفرمان فهى تكشف عن فحوى الفرمان كله:

"إنني أصدر قراري بضرورة إعلام الشعب والجيش والموظفين بأن يتحدوا ويعملوا كرجل واحد من أجل عدم سقوط أمتنا، وإنقاذ سلطنتنا من أيدي المعتدين! وبلغهم سلامي السلطاني."

وهكذا أمكن إعطاء فرمان للباشا الذي أُرسل إلى الأناضول من أجل القيام بعمل أمني.

وهذا الفرمان، بعد أن جاء فجأة إلى الجزء المهم، غير لافتاً الإنتباه إليه، مما يدل على دقة التكتيك، يقول:

ـ أيها الشعب والجنود والموظفون، اتحدوا كرجل واحد من أجل إنقاذ الأمة والوطن الذي ضاع استقلاله!

الحقيقة إن هذا الفرمان ليس سوى مجرد أمر بالتخطيط لشن مقاومة شعبية، وهو يشكل سنداً قاطعاً على أن هذه الدعوة كانت أول تلقين لمصطفى كمال من جانب السلطان.

قد نتخيل أن من الممكن أن يكون مصطفى كمال باشا قد أملى هذا الفرمان على وحيد الدين، فإذا قيل هذا الكلام فالجواب بسيط:

في هذه الحالة نقول إن وحيد الدين متفق مع مصطفى كمال باشا، وهذا لا يتناسب ولا يتفق مع معاملة مصطفى كمال باشا للسلطان بعد ذلك، ولابنعته بصفة خائن الوطن. فإذا كان مصطفى كمال قد رأى أنه لابد أن يأخذ فرماناً مهماً من السلطان بهذا الخصوص، فلابد إنه كان يعتمد عليه، ويحتاج إليه في أثناء المهمة، لكن أن يخفيه، ولا يطلع عليه أحداً ـ وهذا مافعله مصطفى كمال- فهذا معناه أنه لم يأخذه بناءً على طلبه،وأن ذهابه إلى الأناضول كان بصفته مجرد ممثلاً لرغبة السلطان وإرادته المستقلة.

انظر ماذا يقوله كاتب معارض، وهو صباح الدين سالاك، في كتابه (احتلال الأناضول) في صفحتي 190 و191، بخصوص هذا الخط الهمايوني:

" ـ أرى إنه احتمال ضعيف أن يكون الخط الهمايوني الذي بدا في حالة نص، ملفقاً. لكني أرى ما فيه عبارة عن تعليمات تتفق مع المهمة التي قام بها مصطفى كمال باشا، ومحقق إنه لم يستغلها في أي مكان، حتى أن رفعت بك (بالا) الضابط الذي ذهب إلى مقر قيادة الفرقة الثالثة التي في سيواس، والتي صارت تتبع قيادة الباشا، قال لنا إنه لا يعلم شيئاً عن هذه المعلومة. وإذا كان هذا الخط الهمايوني صحيحاً، فلا يمكن أن يجعلنا نعطي للسلطان نصيباً من الشرف. فالكلام المبهم الذي قاله السلطان، لم يكن يقصد به ما قام بعمله مصطفى كمال باشا بالفعل."

في رأينا أن كون مصطفى كمال باشا لم يُظهر هذا الفرمان لأحد كما اتفقنا، ولم يستخدمه في أي مكان، فإن هذا يدعم من بحثنا ولا يضعفه. إذ يدل عدم إظهار فرمان السلطان على أنه قد جاء بالفعل من السلطان، وعلى وجود هذا الفرمان فعلاً. فإذا كانت الفكرة الأولى والقرار الأول قد جاء من السلطان، وبينما هذا يكفي لأن يكون للسلطان نصيباً من الشرف، لا يصح أن نحجب عن السلطان جميع الحقوق، وننحاز إلى مصطفى كمال باشا، وندافع عنه، ونعطيه جميع حقوقه.

إن الفرمان الذي أخذه مصطفى كمال باشا في يده على غير العادة والأصول من أجل أن يحقق رغبة السلطان، وهى إثارة حركة مقاومة شعبية، يُعد بمثابة حُجة لاتدعنا نتشكك في أن إرساله إلى الأناضول كان من طرف وحيد الدين. ويشرف أي انسان أن يكون طرفاً في هذا العمل العظيم.

وبعد عرض الوثائق الخمس الهامة، نأتي إلى الوثائق، السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة التي هى في ماهية قرائن، وتدعم الوثائق السابقة.

الوثيقة السادسة:

قيام وحيد الدين كما ذكرت من قبل، بتعيين الشباب الذين اجتمعوا في استانبول تاركين وحداتهم متفرقة، قادة للوحدات في أنقرة. وقوله المهم: "لابد أن يكون هؤلاء القادة على رأس وحداتهم من أجل عمل شيئاً، وإلا سنصبح مثل الأندلس!" وهذا يمثل قرينة محكمة على بداية تخطيطه في ذلك الوقت للحركة الشعبية.

الوثيقة السابعة:

هى المعلومة الصادقة والقاطعة التي قالها الياور السابق علي نوري بك أفندي، الخاصة بأداء وموقف وحيد الدين أثناء حركة الأناضول، إذ يقول:

"ــ عندما كانت تبلغ وحيد الدين أنباء انتصارات حركة الأناضول، لم يكن يعرف ماذا يفعل من شدة سعادته. وعند تحقيق انتصار (دوملوبينار) تم عمل استقبال رسمي في جامع السلطان سليم بدلاً من جامع يلديز بأمر السلطان، وذهب هو إلى هناك وقرأ الفاتحة على الشهداء. وعندما كان يحدث انسحاباً أو فقداً للأراضي، كان يحزن حزناً شديداً، لا أستطيع أن أوضح مدى الألم الذي كان يشعر به... وبرغم إنه لم يكن ضليعاً في الأمور والثقافة العسكرية، لم يكن يتقبل في تلك الأثناء أي تفسير لهذه الأمور بإنها لا تدعو إلى القلق. وقد بلغ به الحزن أقصى حد أثناء الدفاع عن صقاريا والانسحاب، فقد كان خوفه من احتمال سقوط أنقرة يبلغ حد الجنون. واستدعاني وحيد الدين وطلب مني أن أوضح له الأمر. كنت أقوم بتوضيح الوضع على خريطة مطبوعة طباعة حجرية وأقول له إن أنقرة بعيدة كثيراً عن مرمى العدو، وإنه ليس وضعاً مقبولاً من الناحية العسكرية، وإن اليونانيين، عاجلاً أم أجلاً، سيدفعون غالياً ثمن تهورهم ولا داعي لوقوعه فريسة للإحباط. كان يزداد قلقاً ويقول: (الآن فقدنا نصف الأناضول، وسوف

يأتي اليونانيون بأسرهم ويستقرون هناك، لا أستطيع تحمل هذا. إن هذا يضعف أملي، إن هذا شئ فوق الاحتمال!) وحتى عندما كنت أجيبه بقولي، إن الجيش اليوناني ليس جيش عشيرة، فجميع عناصر الجيش قد تركت أطفالها في اليونان ولم تصطحبهم. وعندما يبتعدون عن قاعدتهم الأساسية يزداد ضعفهم يوماً بعد يوم، وعندئذ تستفيد بالقطع قواتنا الوطنية من هذا الوضع، وتتقدم إلى الأمام، كان هذا لا يهدأ من روعه ويطمأنه. أي خطأ صغير يحدث كان يحزنه ويجرحه. وأي نجاح صغير يتحقق كان يجعله يطير من السعادة. لا يمكن أبداً أن يكون وحيد الدين ضد من قاموا بالحركة الشعبية، فقد كان في أشد خوف واضطراب لاحتمال أن يخسر هؤلاء المحاربين حربهم. وشعوره هذا كان صادقاً إلى أقصى درجة. فالألم الذي تحمله لم يتحمله أي حاكم في التاريخ. لا بد أن نقارن بين المواقف الإيجابية إلى أقصى حد للسلطان وحيد الدين، والمواقف السلبية التي اتخذتها الزمرة الحاكمة ضد الحركة الشعبية."

الوثيقة الثامنة:

يوضح البيان الخاص بالأمير محمود شوكت أفندي المنشور في الكتاب الذي كتبه وطبعه (قدير مصر أوغلو) المسمى بـ (صارقلي مجاهدلر) أي المجاهدون المعممون، أن القصر منح مصطفى كمال باشا مساعدة عند تحركه من استانبول، من أجل المقاومة الشعبية، وأن ما تبقى معه بعد ذلك، كان من جملة المبالغ التي أُمر بمنحها لمصطفى كمال، والتي بلغت مئات الآلاف عند بداية الحركة، واقتربت من نصف المليون. ويقول إن هذا المبلغ يعادل اليوم مائة مليون، وهو يربط الحركة الشعبية في مرحلتها الأولى، بقرار مباشر من السلطان.

الوثيقة التاسعة:

هى قرينة بسيطة، عبارة عن الأراء والقناعات الشخصية لبعض المؤرخين، والأحكام العامة، والانطباعات التي أبداها رجال فكر راحلين...

سألت أنور بهنان شابوليو- المؤرخ الذي روى له مصطفى كمال باشا شخصياً مذكراته- في مبنى مطار أنقرة، في حضور بعض الشباب العاملين في جريدة (بيوك دوغو) أي الشرق الكبير:

ـ هل توافق على أن وحيد الدين هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول للتمهيد لحرب الاستقلال؟ وهاهو رده!

كان رده من كلمتين، كالآتي:

ـ نعم أوافق!

وقال الكاتب (تكين أرار) ما يلي:

ـ هذه حقيقة يعلمها كل شخص!... إنني كتبت في هذا أيضا!

وهناك الكثيرون من رجال الفكر والعلم منهم من ذكر اسمه ومنهم من لم يذكر، ومن بينهم أساتذة في التاريخ، كلهم على اقتناع بهذه الحقيقة.

ومن حقنا أن نجمع معاني خاصة من هذه القرينة العامة.

وبينما كل واحد له الحرية أن يصدق أو لا يصدق صحة هذا، فإن مطالعة الوثيقة السابقة والقرائن معاً قد جاءتا بدليلين عظيمين، يؤكدان صحة بواعثي الشخصية، وتحرياتي عند بحثهما.

الوثيقة العاشرة:

ما سمعته من المارشال فوزي چاقمق...

كنت قد كتبت أنني تعرفت على المارشال عن طريق (برهان طوپراق) صديق الدراسة في باريس وهو صهر المارشال. وعندما كنت أقوم ببحثي كان هو مصدر ثقة كبير، ومعه استطعت أن أناقش كل شئ مما سبق. فقد تلاقت روحانا، وبلغت الثقة بيننا حداً عميقاً لدرجة أنه ذات يوم عند بداية الحرب العالمية الثانية، ذهبت إلى مكتب القائد العام، وأنا أرتدي زي ملازم أول فرقة السواري (الفرسان)، وقلت للمارشال ما كتبته في الفقرة التالية، مما جعل الخوف يسيطر عليه:

ـ إن عدم دخول الدولة الحرب، سيهوي بها إلى هاوية الأزمة الروحية والأخلاقية والإدارية والاقتصادية! إن الصحف الأوروبية تفيد أن وضعنا هذا يُعتبر من "الجنون"، ويُعد استكمالاً لشروط الاحتلال كلها وانعزالنا، فلماذا في هذه الحالة لا تدفعون الجيش إلى الحركة؟ ولماذا لا تحثونه على النهوض والعمل؟

بعد أن تنهد المارشال تنهيدة عميقة قال ما يلي:

ـ لست إنكشارياً!

ـ سيدي! من أجل القضاء على الإنكشارية، نحن مضطرون أن نكون ولو للحظة واحدة إنكشاريون.

ـ بعد عدة سنوات من هذا النقاش الذي رويته من أجل أن أوضح مدى التقارب بيننا، التقيت بالمارشال ذات يوم في (چانقايا) وكان معنا صهره برهان طوپراق... قلت للمارشال ما يلي:

ـ أنا لا يمكن أن أقول أن وحيد الدين خائن للوطن، بالعكس إنني أراه سيء الحظ، بل أسوأ حظاً من أي إنسان في العالم، وأنا مقتنع إنه مظلوم. بما إنك كنت في ذلك العهد رئيس أركان الحربية العامة، فإنك كنت في موقع العارف ببواطن الأمور. هل كان وحيد الدين منذ بداية الحركة الشعبية حتى أخرها خصماً وعدواً للحركة، أم كان على العكس، هو الشخص الذي دفع بمصطفى كمال، وحرضه على هذا العمل؟

حملق المارشال بعينيه، وركزهما تجاهي، وقال بصوت جهوري:

ـ من قال لك إن وحيد الدين له دور في هذه القضية؟

كان سؤال المارشال هذا ينم على إنه يقبل إلى حد ما هذه المسألة، لكنه كان غير قادراً على التصريح صراحة. أجبته قائلاً:

ـ هناك رواية تقول هذا، رواها أناس اقتربوا من أحداث ذلك الزمان. حتى قيل إنه قد طُلب منك إعداد قائمة بالقادة الشباب المناسبين للقيام بتلك المهمة...

ـ هذا صحيح، فعلاً طُلب منى قائمة بهذا، لكنهم لم يخبروني بالغرض منها. فقط طلبوا أن أسجل أسماء القادة الشباب الذين لديهم استعداد كبير، وقدرة فائقة.

ـ أليس هذا يشكل قرينة على أن السلطان كان يبحث عن قائد من أجل شن حرب استقلال قومية؟

ـ لا أعرف.

ـ هل كان مصطفى كمال باشا موجوداً في القائمة التى قدمتها للسلطان؟

ـ نعم كان موجوداً في رأس القائمة...

ـ ماذا كتبت بجانب اسمه؟...

ـ ما لزوم ذلك.

ـ إذا أخفيت هذا فلا جدوى من الاستمرار في التساؤل!

ـ يووه! فلتسأل!

ـ من اقترح في البداية فكرة قيام حركة مقاومة شعبية؟

ـ كنت موجوداً مع مصطفى كمال وجواد باشا في منزلي الذي يقع في منطقة (باي كوز) ذات يوم، وطُرح هذا السؤال: كيف يمكن إنقاذ الوطن؟ كان رأيي الاستمرار في المقاومة عن طريق حرب "العصابات"، وإبلاء العدو في حروب جادة، ثم إصابته بالضجر في النهاية. لكن لم نكن نعتقد إنه يمكن حل القضية بفتح جبهة ضد العدو، وإعداد تشكيلات عسكرية منظمة. وكنا نرى أن أخر ما يمكن أن نلجأ إليه، هو شن حرب جادة لاسترجاع الوطن كله. أما مصطفى كمال باشا، فكان يرى أن تكون هناك مقاومة سياسية من داخل الحكومة، ويمكن بمواقف مذهلة وجادة من جانب الحكومة أن نصل إلى نتيجة، وكان يرى أن ذلك، إن لم يؤدِ إلى شيء، فقد يؤدي إلى تخفيف شروط الصلح على أقل تقدير.

ـ إذاً لم يكن مصطفى كمال ينوي من قبل إثارة حركة شعبية شاملة.

ـ قبل ذلك أو بعد ذلك، فالحركة قد تمت وانتهى الأمر.

ـ هذا يهمني لأثبت هل الفكرة الأولى والحملة الأولى جاءت من وحيد الدين، أم من مصطفى كمال؟ وهل كان السلطان هو فعلاً الشخص الذي حث على هذه الحركة، ودعى إليها، أم إنه كان ضدها وكان خائناً للوطن، وراضخاً للعدو؟

صمت المارشال، وعندما ضيقت عليه الخناق وحاصرته، اضطر إلى قول الحقيقة، وفي مواجهة الأسئلة التي تشبه الحصار، قال كلمته الأخيرة، وأغلق الموضوع:

ـ أنا لا أوافق على أن وحيد الدين كان خائناً للوطن!

هذا كل ما لدي من كلام... ولا أستطيع أن أقول أي شيء آخر!

وأضاف صهره برهان طوپراق قائلاً:

ـ إن المارشال قال كل ما عنده، ولنقطع كلامنا في هذا الموضوع عند هذا الحد!
وبعد كلام المارشال نأتي إلى تلك الوثيقة حسب الترتيب، وهى الوثيقة الحادية عشرة.

11ـ ما سمعته من رفعت باشا...

تعرفت على رفعت باشا - الممثل الأول لحركة المقاومة الشعبية، ذلك الجنرال ذو الروح الأصيلة، الظريفة الذي شاهد الحركة رؤية العين- بينما كنت طالباً في الجامعة في سن العشرين عام 1924. كنت في ذلك الوقت أعمل لفترة قصيرة كمراسلاً لصحيفة (وقت) في أنقرة. وذات يوم كنت أركب في إحدى القطارات التي لا أعرف إن كانت تعمل بالفحم أم بالحطب، إذ وصل القطار استانبول بعد 30 ساعة. كنت جالساً بمفردي في مقصورة في الدرجة الأولى ذات الكراسي القطيفة الحمراء الممزقة، وفجأة بينما انتظر ساعة تحرك القطار، فُتح الباب، ودخل شخصاً ضئيل البنية، حلو الوجه، يرتدي قلنسوة من الفرو اللامع. نهضت من فوري لأصافحه بكل احترام لأنني كما ذكرت، كنت قد تعرفت عليه بصفة شخصية، عندما جاء إلى استانبول لإلقاء محاضرة في قاعة (جامعة دار الفنون)، وقدمت له نفسي قائلاً:

ـ مراسل صحيفة (وقت) في أنقرة...

قابلني بوجه باسم يبدو عليه الرضا والسعادة وقال:

ـ إنني سعيد لمقابلتك! ويسرني أن أرافقك وأتحدث معك خلال الرحلة. وهى فرصة لكي أفضفض لصحفي مفكر مثلك عن مكنون نفسي!

في تلك الأيام التاريخية، كان رفعت باشا مع بعض المفكرين زملائه مثل (رؤوف بك وعلى فؤاد وكاظم قره بكير) من أركان (الحزب الجمهوري التقدمي) الذين أسسوه، ثم انقلب هو على الحزب، وأصبح من معارضيه، كمن انقلب من النقيض إلى النقيض.

تحدثنا سوياً في القطار لما يقرب من 12 ساعة، ووجهت أسئلتي للجنرال حول موضوع وحيد الدين، فتحدث رفعت باشا مباشرة، فقد كان أحد كوادرالحزب الذي أفرزته حركة المقاومة الشعبية، والذي بدأ بداية طيبة، وبعد الانتصار تردى. وكان هو على وشك أن يتولى زعامة ذلك الحزب المستغل.

قال ما يلي:

ـ إن مصطفى كمال نفذ هذه المهمة في خطة مثالية حقيقية حتى النصر. ولا شك في إنه كان مثالاً للقائد والزعيم. لكن بعد تحقيق النصر التف حوله جماعة من الوصوليين وأثروا عليه، ووجود هذه الجماعة من حوله كان السبب في فساد النظام، وانصب كل غضبي على مجموعة الوصوليين تلك. وفي أحيان كثيرة كنت أُذكِّره وأنقده...

وبينما يدخل القطار إلى محطة (أسكي شهر) قال مشيراً إلى خلو المحطة من الناس:

ـ إنني أتذكر في أثناء حركة المقاومة الشعبية، كانت تُقام لي في هذه المحطة الخاوية الآن، مراسم استقبال كبيرة، يالها من عبرة لتقلب الزمان لمن يعتبر، فلن تدوم هذه الدنيا ولا قيمها الزائفة لأحد!...

ثم فجأة أضاف قائلاً:

ـ انظر إلى حال وحيد الدين الذي اضطر للرحيل إلى إيطاليا! هذا السلطان سيء الحظ، فقد فعل كل ما بوسعه من أجل إنقاذ الوطن، وفي النهاية يكون وضعه هكذا. كأنه لم يفعل أي شيء إنه سيء الحظ، فقد وصفوه بإنه خائن الوطن. أنا أعرف عن قرب إنه الرجل الوحيد الذي حث مصطفى كمال ودفعه إلى هذا العمل، ومؤكد هذه الحقيقة سيظهرها التاريخ ذات يوم.

في تلك الليلة روى رفعت باشا أشياء أخرى كثيرة، ليس في إمكاني تسجيل أي منها...

بعد ما يقرب من 30 عاماً التقيت به مصادفة في فندق (أنقرة بالاس)، وكان هذا العجوز يتمتع بنفس الروح الظريفة، كنا نجلس على المائدة وكان معنا بضعة أشخاص، وطلبت منه كتابة مذكراته لمجلة (بيوك دوغو)[481]، وأن يتناول فيها موضوع وحيد الدين، فأجاب قائلاً:

نجيب فاضل!... أنا قدمي في القبر... وليس في أيام عمري الأخيرة أعتنق قضية لا تناسب سوى أن يتناولها شاب... استمر أنت في الطريق الذي بدأته وحملت رايته! أما مني فلا تنتظر شيئاً! أنا أعرف موضوع بحثك، وأعرف ضباط المجلس الذين بدأوا في النشر حول هذا الموضوع في أعداد مجلة (بيوك دوغو) في عام 1951. إن كلامي حول هذا البحث هى عبارة عن جملة واحدة وهى: إن السلطان وحيد الدين، بعد الحرب العالمية الأولى كان يشعر بمدى الكارثة أكثر من أي شخص آخر، ومن أجل إنقاذ الوطن قام بإرسال القادة الشبان إلى الأناضول، وأبدى تضحيات مادية ومعنوية كبيرة من أجل تحقيق هذا الإنقاذ، وهو الذي اختار مصطفى كمال وأرسله إلى الأناضول. إن التاريخ هو العلم الذي يجعل العدالة الإلهية تنجلي وتُظهر حقائق الوقائع، وذات يوم عندما يحين الوقت، ستظهر الحقيقة بعد التحقق من كل الأشياء من دفتر مذكرات أناس مثلي، أما الآن، اتركنا نذهب إلى قبورنا بلا جدال أو قضية!

وهذا الكلام الذي ألقى به صاحبه دون أن يريد أن يظهر في الصورة، والذي كان بمثابة شهادة خرجت من فم شخص كبير ومؤهل كهذا الشخص، نجد تأييداً له في كتاب (احتلال الأناضول) المعروف الذي نُشر في عام 1965. يحكي الكتاب عن رفعت باشا في صفحة 130 فيقول:

---

[481] - بيوك دوغو: تعني الشرق الكبير، هى مجلة سياسية، أدبية، دينية، أسبوعية، صدرت في استانبول في الفترة 1943 – 1971، ومؤسسها هو نجيب فاضل قيصه كورك. كانت هذه المجلة إيزاناً بالعودة إلى أصالة الشرق التي افتقدها الأدب التركي. فقد كان نجيب فاضل يرى أن الإسلام هو طريق الخلاص، لذا كان الإيمان بالله هو أساس مجلته بيوك دوغو. فهى ليست مجلة أدبية فحسب بل مدرسة أرست مفهوم الإسلام في تركيا في مجال الفكر والأدب والسياسة. وقد ظهرت في الوقت الذي حاول فيه الزعماء الأتراك إبعاد الأمة التركية عن الإسلام. وقد أدت هذه المجلة دوراً فعالاً في الحملة على الأفكار الغربية والشيوعية، وساهمت في نشر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي في تركيا. وعملت على إصلاح الروح الإسلامية، وتنشئة مواطن تركي مرتبط بالمقدسات والقيم الإسلامية. انظر عزة عبد الرحمن الصاوي، "الاتجاه الإسلامي في أدب نجيب فاضل قيصه كورك"، مرجع سبق ذكره، ص 278 ، 279

"أُدرج رفعت بك ضمن زعماء الحركة الشعبية بعد أن وافق على المهمة، وعلى الذهاب إلى الأناضول مع مصطفى كمال باشا، و"التوقيع على قرارات آماسيا"، وإن كان بادياً أنه لا يرغب في هذا. كان لا يريد معارضة الحكومة. لكن خرج السهم من القوس فجأة. وبرغم التفكير العميق لم يستطع أن يتراجع. ولهذا السبب رأيناه بعد عدة شهور خلال أحداث الأناضول، بدا متردداً ومرتاباً. لم يكن يعتقد أن العمل الذي بدأه مصطفى كمال باشا كان هو طريق الخلاص، هذا بالإضافة إلى إنه كان لا يثق في الباشا".

ويقول في صفحتي 131 و 132:

"بعد الانتصار العظيم مُنح رفعت باشا شرف أن يصبح أول قائد يدخل استانبول، لأن مصطفى كمال لم يكن يريد أن يختار قائداً غيره يمكن أن يسبب له كارثة.

فقد كان رفعت باشا يفهم مقتضى الأمور، ويتمتع بإدراك ووعي كاملين، وكان رئيسه يعرف كيف يستغله. وفي هذا السياق، فإنه عند تقييم فترة الحرب القومية نجد أن فعالية رفعت باشا كانت من أسباب النتائج الإيجابية لهذه الحرب.

إن علاقة رفعت باشا بمصطفى كمال باشا تشبه العلاقة بين كاظم قره بكير باشا ومصطفى كمال باشا. هذه العلاقة التي استمرت حتى النصر، سنلخصها في إنها لم تكن علاقة رفض رئاسة رئيس، لكن علاقة عدم الثقة بالرئيس، مع الاجتهاد دائماً في عدم جعل الرئيس يشعر إنه بالنسبة له ككابوس. كان يراه لائقاً بمقام الرجل الثاني لا الرئيس.

سألنا رفعت باشا عن المسألة التي أدت إلى وقوع أول سوء فهم بينه وبين مصطفى كمال باشا، فأجاب قائلاً: (إنه لم يكن بيننا أبداً أي تفاهم).

يقول رفعت باشا: إنه نصر رخيص وقع مصادفة خلال رحلة كاظم قره بكير إلى الشرق. فهو لايعجبه الباشاوات: قره بكير ولا على فؤاد أو رؤوف بك ويحتقرهم، ويحط من شأنهم. ويصرح قائلاً: إن سبب كتابة مذكراته هو (لأوضح كيف يمكن إسقاط الأبطال الكاذبين؟ فلن أضرب بالطبع كل واحد لأسقطه...) ورغم إنه في معرض كلامه يصف مصطفى كمال باشا بإنه (كان رجلاً فظاً) فهو لا ينقصه حقه، ولا يغتصب منه نصيبه الكبير في شرف تحقيق النصر في الحرب القومية."

هذه السطور التي أخذناها من كتاب كاتب مخالف لوجهة نظرنا العامة، لا تقدم حكماً ذا قيمة يثبت عن طريق القياس العكسي أن الكلام الذي قيل، والذي سمعناه من رفعت باشا، قد وقع بالفعل. وعندما نجيء إلى درجة حقيقة هذا الكلام، فإن تقدير ذلك يعود في رأيي، بعد الوثائق والقرائن التي عرضناها، إلى القاريء وإلى التاريخ.

ومن بين الشخصيات التي قدمت لي الأسرار والبيانات الواقعية، يوجد شخص واحد كان مبعوث (ميرسين) في المجلس الأول، وكان عضواً في (المجموعة الثانية) وهو شخص معروف بالأخلاق العالية والفضيلة، واسمه (شولاق صلاح الدين) وهو من القادة السابقين، وأحد الأبطال الكبار الذي لم يفقد أصوله وصفاءه بعد حرب الاستقلال، ولم يسقط في مستنقع الطمع النفسي مطلقاً، وظل بلا اسم ولا نيشان، برغم إنه واحد من

القادة الكبار. وهو في هذه اللحظة في قبره، وبقيت الحقيقة لمؤرخ يأتي في المستقبل ليظهرها وفق شعار إن النسيان خاص بأحباء الله.

عندما قمت بزيارة هذا القائد الراحل في منزله في (حربية) من أجل نشر مذكراته في مجلة (بيوك دوغو) في عام 1949، أدهشتني شخصيته الراقية، وهذا الكلام الذي سمعته منه كلمة كلمة،إذ قال :

"ـ أنا مندهش من شجاعتك وأدعو لك بالتوفيق في قضيتك. لكني لا أملك نفس شجاعتك. وإنني لكوني أعرف كل شيء عن الحركة الشعبية من أولها إلى أخرها، أريد منك نشر مذكراتي بعد وفاتي حتى لا أتعرض للمضايقة في أثناء حياتي!".

وبعد وفاته، كان رأي إحدى بناته المحترمات – كنت قد تشرفت بمعرفتهن عند زيارة والدهن قبل وفاته- هو أن أترك مهمة عرض هذه المعلومات الشخصية الهامة للتاريخ، من أجل خاطر أفراد أسرته الذين تركهم خلفه.

والعمل الآن بعد الـ 11 وثيقة والقرائن التي تثبت الحقيقة، هو أن نستند على الوثيقة الأخيرة التي جاءت على لسان مصطفى كمال باشا نفسه، وهى وثيقة في غاية الأهمية من حيث دلالتها وقيمتها.

ورأيت أن أفضل ما يناسبها أن أسميها بوثيقة الوثائق. وبعد الاطلاع على جميع عناصر الإثبات بالإضافة إلى هذه الوثيقة، أستطيع أن أصدر حكماً قاطعاً.

وثيقة الوثائق والحكم

هى وثيقة تُعد الأهم من ضمن الوثائق التي عددناهم "11" وثيقة. ولم ندرجها معهم بل انتظرنا لتكون بمثابة مفاجأة. إنها البرقية التي أُرسلت للقصر، وهى في حد ذاتها بمثابة اعتراف بأن السلطان هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول من أجل إثارة حركة المقاومة الشعبية. وهى عبارة عن نص البرقية التي قُرأت في المجلس الوطني الأول، ثم وُضعت في مضبطة المجلس بعد ذلك.

هذه البرقية محفوظة في "جريدة مضبطة مجلس الأمة التركي الكبير" (مجلد -1- الطبعة الثانية ـ عام 1940).

تقول البرقية في السطرين الرابع والخامس:

"إنني مستمر في أداء مهمتي بعزم وإيمان، ملهم برغبة الذات السلطانية صاحب الملك والمملكة."

هذه السطور هى جملة بسيطة من البرقية الطويلة التي أرسلها مصطفى كمال باشا إلى القصر بعد مدة قصيرة من خروجه إلى سامسون،بعد استدعاء (شوكت طورغود باشا) ناظر الحربية له إلى استانبول، وشك الإنجليز فيه. وهى ليست جملة صريحة واضحة، ولكنها تحمل في داخلها كل شيء...

في 24 ابريل عام (1336هـ - 1920م) في الساعة العاشرة صباح يوم السبت، يجلس مصطفى كمال باشا على كرسي المجلس، ويبدأ أول حديث مفصل يسجله في جريدة المضبطة قائلاً:

"خطاب مصطفى كمال باشا، مبعوث أنقرة، حول الأحوال السياسية التي وقعت في الماضي حتى افتتاح مجلس الهدنة".

وها هو ما يختص بالأناضول في هذا الخطاب:

" عُينت مفتشاً للجيش بناءً على تكليفي بالاضطلاع بمهام عسكرية ومدنية، واعتبرت هذا التعيين بمثابة مشيئة إلهية عظيمة من أجل إنقاذ الأمة والدين."

(جريدة المضبطة ـ صفحة 9 ـ سطر 8،7،6،5،4)

وبعد هذه الديباجة، يلقي بياناً بوقائع الفترة من 19 مايو 1919 إلى 24 ابريل 1920، أي 11 شهراً.

في أنقرة في بداية شارع المحطة يوجد مقرمجلس الأمة القديم، وهو عبارة عن بناء حجري فسيح على الطراز المعماري التركي القديم، يبدو إنه قد تم بناؤه أيام الاتحاديين... في هذا المبنى كان المجلس الأول يعقد جلساته، وكان من بين أعضائه من يرتدي العمامة. وكانت تُذبح الأضاحي في عيد الأضحى أمام هذا البناء، وترتفع الأيدي إلى السماء بالدعاء. وفي 24 ابريل عُقد في هذا المبنى الاجتماع الثاني لمجلس الأمة التركي الكبير الذي ضم كوكتيل من القبعات الأستراجان السوداء، والعمامات البيضاء، وبعض الطرابيش الحمراء. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد تم رفع راية العصيان ضد السلطان بل على العكس كان الباشا الشاب، زعيم حركة المقاومة الشعبية، يجلس ويستمع على أساس أن كل شيء مرتبط بغاية إنقاذ السلطنة والخلافة.

إنه الباشا الذي، كما أوضحنا سابقاُ، قد ذهب إلى الأناضول بعد أن وافق على القيام بالمهمة، وتحمل المسئولية في سبيل الدين والأمة، تلك المهمة التي وُكلت إليه بناءً على رغبة السلطان وإلحاحه...

فالباشا الذي يخبر السلطان في البرقية إنه إذا اضطر للعودة إلي استانبول بناءً على طلب الحكومة، وليس السلطان، فإنه سيقدم استقالته، ويبقى على رأس الأمة، ويسير بمفرده في طريق الثورة الشعبية، يقول في نفس هذه البرقية:

"ـ حتى يتم استقلال الدولة، وحماية السلطنة المعظمة والخلافة من السقوط، فأنا عبدكم الصادق الذي يبدي دائماً جسارة في سبيل تحقيق رغبتكم السلطانية".

وهنا يمكن أن يُقال:

إن كلمة "رغبة" التي استخدمها مصطفى كمال باشا في البرقية، لا توضح معنى أمر صادر من طرف السلطان لبدء حركة الأناضول، ولا توضح شيئاً سوى رغبة مجردة في سبيل العزم والإيمان. فنظراً لسياسة تلك الأيام، كان مضطراً لمخاطبة السلطان بهذه الطريقة. لكن إذا كانت هذه الرغبة قد اتخذت شكل قرار سلطاني، وفرمان منح لمصطفى كمال، فلن تكون هناك قضية.

أليس كذلك؟

ونأتي هنا لنعرض الإثبات المطلق على أن إرسال مصطفى كمال باشا إلى الأناضول وقبوله المهمة، كان بناءً على قرار وفرمان:

نشرت صحيفة "إرادة يي ملية " في تاريخ 24 سبتمبر (1335هـ – 1919م) صورة البرقية موضوع البحث، قبل سبعة شهور بالضبط من قراءتها في المجلس الأول، وكان بها لفظ "إلقاء" بدلاً من كلمة "إلحاح". وكلمة إلقاء تعني طرح فكرة ومحاولة بث معنى ما في روح الفرد.

وهذا ليس خطأ متعمداً، فكلمة إلقاء التي استخدمها مصطفى كمال، تجعلنا نفهم أن وحيد الدين قد ألقى إليه، بفكرة الذهاب إلى الأناضول. وهذه الفكرة ليست شيئاً سوى مهمة التحضير لثورة شعبية.

وبعد بسط الـ (11) وثيقة، والوثيقة الأخيرة، نأتي إلى الحكم الذي هو عبارة عن تأكيد نتيجة المعطيات التي أوضحناها سابقا. والحكم هو:

لولا وحيد الدين ما كانت هناك حرب استقلال ولا تحقق التحرير...

والمعطيات المرتبطة بهذا الحكم هى:

ثمة عمل في شكل إنقاذ الوطن، أول من فكر فيه هو السلطان، وثمة نصر تحقق بعد إنجاز هذا العمل. وهنا المنطق يقول إن هذا النصر يعود إلى من قام بإنجاز هذا العمل... أما قيمة العمل نفسه فتصبح من حق السلطان، بوصفه أول من فكر فيه. ولهذا لا يجب أن تقتصر قيمه العمل على من قاموا بالعمل فقط، واستثناء العمل نفسه، فلابد أن يُظهر التاريخ نصيب كل واحد من هذا العمل.

ما بعد هذا العمل

قد تسألون عن الباعث الذي ألهم القلم باستكمال هذا الكتاب بعد أن انتهيت من كتابته... فقد وصلنا إلى النتيجة، وهذا يكفي. فمن السهل أن يقال إننا أثبتنا زاوية المثلث برسم خطين، فما لزوم أن نرسم الخط الثالث؟ لكن توجد أمور عديدة قيمة تحتاج إلى توضيح، مثل الحكايات والوقائع التاريخية، وخاصة تهم الخيانة التي وجُهت إلى وحيد الدين، والتي أميل إلى كشفها برسم الخط الثالث. لكن بعد البحث الأساسي الذي كشف جميع الأحداث، وبعد النتيجة التي أثبتت أن وحيد الدين هو صاحب فكرة حركة المقاومة الشعبية، ما بعده لابد وأن يبقى للخطة الثانية برغم ما فيه من ثراء. فعندما نفتح جبهة إثبات تنصف وحيد الدين، نجد أن موت مصطفى كمال وأصدقائه يطمس أكثر على الحركة الشعبية التى حث عليها السلطان. لكن ربط الأحكام القيمة بإيضاحات قصيرة عن وقائع مثل مغادرة الوطن على ظهر سفينة حربية إنجليزية، سيجعل كل فرد يرى بعينيه الافتراءات التي تحرف الحقيقة والتاريخ. وبهذا نواصل تعقب نتيجة هذا العمل، لكن بأسلوب مختصر، بدلاً من التحليل المستفيض، وسريع كأننا نستعرض شريط فيلم سينمائي.

الـذهـاب

الشائعات التي ترددت حول تعقب طوربيد إنجليزي للسفينة القديمة التي ركبها مصطفى كمال باشا عند ذهابه إلى سامسون، وكاد أن يغرقها، كلها كاذبة.

ويُثبت هذا الكذب (علي نوري) بك أفندي، داخل إطار منطقي تماماً، إذ يقول:

"ـ كيف يمكن هذا؟ إن مصطفى كمال باشا كان معروفاً للإنجليز، وإنه خرج إلى سامسون بحجة إنه سينزع سلاح جيش الشرق. وخرج أمام جميع العيون، وذهب بمنتهى الهدوء، وإذا كان الإنجليز يريدون فعلاً الإمساك بالسفينة القديمة التي ركبها، كان يمكن أن يمسكوا بها بأي ناقلة تسير بسرعة 5 ميل في الساعة، وليس بطوربيد يسير بسرعة 35 ميل، أليس كذلك؟".

مجلس شورى السلطنة

بعد عشرة أيام من تحرك مصطفى كمال باشا إلى سامسون، عُقد مجلس كبير في القصر ضم كبار رجال العلم والسياسة والفكر في الدولة باسم "مجلس شورى السلطنة"، تم فيه مناقشة التدابير التي يجب أن تُتخذ في سبيل إنقاذ الوطن.

افتتح وحيد الدين الاجتماع ببعض العبارات الحزينة جداً، وبعد أن أحال رئاسة المجلس إلى الصدر الأعظم، ترك صالون الاجتماع وانسحب إلى جناحه الخاص.

لنستمع لما يقوله باشكاتبه:

"ـ غادر المشار إليه (السلطان) المجلس متأبطاً ذراع عبد المجيد أفندي، وكان يقول له، بعد أن تساقطت الدموع من عينيه، وهو ينزل من سلم الخدم حزيناً، ليعود إلى جناحه الخاص الذي في الدور الأوسط، إنني أبكي مثل المرآة."

(انظر كتاب ما رأيت وما سمعت ـ صفحة 216)

وبعد هذه الصورة الواضحة المؤلمة التي تنم عن اضطراب كبير، حيث كان السلطان يبكي وهو ينزل من سلم الخدم في مجلس شورى السلطنة، ليس هناك ما يمكن قوله بعد ذلك. الحقيقة أنه في ذلك اليوم، لم يكن هناك أحد آخر في تركيا يشعر مثل السلطان وحيد الدين بألم الأمة. فهو يصيح قائلاً: "إنني أبكي كالمرآة"، بينما ينزل من السلم الخاص بخدم القصر المهيب.

مؤتمر الصلح

تمت دعوتنا في بداية عام 1919 في شهر يونيو رسمياً، لحضور مؤتمر الصلح المنعقد في باريس. اعتبر السلطان والصدر الأعظم هذه الدعوة بمثابة اعتراف بأننا موجودين كأمة. وتلقوها بفرحة وبشرى. فقد كانوا يخشون ألا تتم دعوة تركيا إلى المؤتمر، ويستمر تقسيمها الفعلي.

وبعد نقاش وجدال مستمر حول الوفد الذي سيمثل تركيا، يتم تشكيل وفد برئاسة الصدر الأعظم فريد باشا، ويتجه هؤلاء إلي مارسيليا بسفينة حربية فرنسية.

كانت ثقة السلطان بفريد باشا ضعيفة، وبرغم ذلك اضطر إلى الاعتماد عليه لأنه ليس هناك أحد غيره من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ضغط العدو شديداً مما جعله لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الامتثال للواقع وترك الأمور تجري في مجراها. ولكن بعد اسبوع من هذا يقوم بإرسال توفيق باشا الذي سافر بسفينة حربية إنجليزية في إثره لمراقبته.

يمكن أن نطلق على وضع هذين الشخصين اللذان يراقبان بعضهما البعض في فرنسا تعبير "شر البلية ما يضحك".

لنستمع لما يقوله الياور السابق علي نوري أفندي بن توفيق باشا، عن هذا الوضع الذي لم يُسجل في أي مصدر تاريخي حتى الآن:

فقد روى الياور السابق عن إرسال توفيق باشا والده في إثر فريد باشا، وعن المشهد الغريب الذي شهدته باريس قائلاً:

"ـ اتجه الوفد التركي برئاسة فريد باشا في 6 يونيو 1919 إلى مارسيليا على ظهر مدرعة فرنسية تسمى (لا ديموقراسي). وبعد اسبوع سلكت أنا ووالدي نفس الطريق في إثره على ظهر طوربيد إنجليزي. وفي باريس حدثت لنا واقعة غريبة. احتجزونا في (شاتو) يسمى (مونتكلين) بالقرب من (فرساي) وكنا كالمسجونين فيه. وكُلف ضابط فرنسي يدعى (هنري) بمراقبتنا. قالوا لنا: (يوجد هنا وفد رسمي تركي يقوم بالعمل، أما أنتم فضيوفنا). لكن فريد باشا توجس خيفة من أبي، وقدم في حقنا مذكرة رسمية غريبة إلى حكومة فرنسا، ويبدو إنه طلب منهم إبعادنا عنه... أشار في هذه المذكرة إلى بعض المسائل الداخلية الخاصة بنا، ومنها إعلان القومية العربية والألبانية، وهو شيء لا معنى ولا مناسبة له... هل أقول لك شيئاً؟ فريد باشا أيضا ليس خائناً للوطن. لكنه رجل غير موزون، ولا يعرف ما يفعله. وعندما عاد إلى وحيد الدين لم يوجه إليه أي قول يدل على معنى إنه خائن للوطن."

أما كيف مضى مؤتمر الصلح في طريقه، وكيف تم رسم خريطة تركيا، وكيف تم التوقيع عليه، فهذه وقائع معروفة للجميع من واقع المعلومات الكثيرة التي خطتها الأقلام حول هذا المؤتمر...

لـوحــة

في تلك الأثناء وقع حادث في القصر، كانت الدلالة التي أبرزها هذا الحادث عميقة للغاية حيث كان من القوة بحيث كشف لنا بمفرده عن الحالة المعنوية لوحيد الدين، وموقفه من حركة المقاومة الشعبية.

قال (علي فؤاد توركجالدي) الباشاكاتب في كتابه باسم (ما رأيت وما سمعت) في ص 226: "في أحد أيام رمضان اندلع حريق في جناح الحرم في قصر يلديز ظل مشتعلاً حتى الصباح. يصحو الباشكاتب ورئيس موظفي القصر اللذان كانا يقيمان في (نيشان طاشي) من النوم ويُخبرون بالحادثة. يسير الاثنان على الأقدام جنباً إلى جنب حتى قصر

يلديز لعدم وجود وسيلة نقل تربط بين القصرين، فالطريق إلى القصر يستغرق ساعة بالسير السريع... يالها من مهزلة! اثنين من ذوي المقام الرفيع في القصر، وهما أيضا مسنان، يهرولان إلى القصر على الأقدام لعدم وجود وسيلة نقل تربط بين قصرين كبيرين كهذين القصرين!...

يصلون!... إلى الآن لم يخبرا الحكومة، ولم يخبرا البلدية، ولم يتخذا أي إجراء... ليس هناك موظف مسئول عن إطفاء الحرائق في المنطقة. وإزاء هذا الوضع يهرول جهاز الإطفاء الموجود في أسطول العدو الذي يقف في مواجهة القصر، على الفور لإنقاذ القصر عندما رأوا النيران، ويتدخلون بمنتهى الفعالية لإطفاء الحريق.

ياله من مشهد مؤسف! ويالها من مهزلة مسيئة في حقنا واسمنا!

يخرج السلطان وهو يرتدي جلباب النوم وفوقه بالطو مطر، ويشاهد الحريق بعيون تكشف عما بداخله من اضطراب شديد. كان الحريق قريباً منه، وكانت الشرارات - طبقاً لما سمعناه من مشاهدين آخرين- تسقط على شاربه. في تلك الأثناء بدأ أحد حراس القصر يبكي بشدة، ويطلب السماح من السلطان.

عندئذ يقول السلطان هذا القول الذي يُعلق كالقناديل في سماء الوطن كله، والذي يوضح رؤيته المختلفة لهذا الحادث الذي كان عبارة عن حريق قصر يسرع العدو إلى إطفائه، بينما من هم في معيته يبكون بدموع زائفة:

" إذا كان الوطن كله قد احترق، فما أهمية أن يحترق قصري وبيتي!"

وهكذا ترى كيف تعبر هذه الجملة عن شعور وحيد الدين، فكل شيء يحترق أمام عينيه، حتى نياشينه وثيابه، وعندما يتحول كل شيء إلى رماد، يفكر، بينما تهطل الشرارات على شاربه، كيف يطفيء حريق الوطن.

هذا و ذاك

من ناحية كانت الحركة الشعبية في طريقها نحو النضج، ومن ناحية أخرى- وبينما ينكوي وحيد الدين يومياً بشرارات شروط الهدنة - كان يتم إجراء تعديلاًت في الحكومة التي تعاقبت الواحدة تلو الأخرى في استانبول ...

اجتمع مجلس المبعوثان، الذي سيضع "الميثاق الوطني" بعد ذلك، في 12 يناير 1920. وفي يوم 16 مارس أعلنت قوات الحلفاء احتلال استانبول رسمياً، وكأنهم يسجلون سندات نصيب اللص من الوطن الذي سرقوه. فقد وضعوا أيديهم على النقاط الحيوية. ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يضغطون على المجلس، فيبقوا على المبعوثين الذين يرغبون فيهم، ويغيرون ويبدلون وفق هواهم. وبسبب ذلك فر الكثير من المبعوثين إلى الأناضول الواحد تلو الآخر.

وعندما لم تقبل حكومة صالح باشا - وهى تُعتبر أخر الحكومات التي تخبطت بين المعاهدة والحركة الشعبية- تكليفات دول الحلفاء المناهضة للأناضول، وبعد ممارسة ضغوط مستمرة، تولى فريد باشا الحكومة للمرة الرابعة. وبتشكيل هذه الحكومة الأخيرة

أصبحت استانبول- رغماً عن رغبة السلطان الداخلية- جبهة ضد الحركة الشعبية. واضطر السلطان أن يخضع، ويوافق على أن يتولى الصدارة شخصاً مناهضاً للحركة الشعبية، كما اضطر أن يتحمل الأزمة، وألا يبدو معترضاً على ذلك. ولم يكن أمامه سوى أن يدعو من كل قلبه للحركة بالنصر. فماذا عساه أن يفعل غير ذلك؟

فريد باشا

جاءت حكومة فريد باشا الرابعة في وقت كان فيه وحيد الدين يساند حركة المقاومة الشعبية في الأناضول سراً، ولكن ظاهرياً يتخذ موقفاً معارضاً للثوار، ويحاول منعهم على أساس إنهم متمردون، وهو موقف لا مهرب منه. وبينما كان السلطان وحيد الدين، سيء الحظ، يتخذ موقف المناهض للقوة الشعبية ممتثلاً للعدوالذي لم يكن يعرف المدى الذي وصلت اليه الحركة حتى ذلك الوقت، كان في حالة معنوية تجعله مستعداً للتضحية حتى بروحه من أجل نجاح هذه الحركة، وإنقاذ الدولة والعرش. وهذا الموقف المتناقض الذي عذبه لأقصى درجة - حيث كان ممزق القلب والعقل- لم يواجهه قط رئيس أي دولة في التاريخ. وهكذا اضطر وحيد الدين، من أجل سحق العدو الذي وضع قصره تحت الحصار، ومن أجل إنقاذ الأمة، أن يذعن لذلك العدو.

وبسبب صدارة فريد باشا الرابعة، وخصومته الواضحة لحركة المقاومة الشعبية في الأناضول، اهتمت الأمة كلها بتلك الحركة. والمجلس الذي تم فسخه بمعرفة فريد باشا، قام بتشكيل المجلس الوطني الكبير بممثلين جدد في أنقرة. وهكذا حصلت حركة الثورة الشعبية على حقوق أساسية.

في سطور قصيرة

بعد أن قمت بإثبات بحثي الأساسي، والتوصل إلى نتائج سجلتها بسطور قليلة في هذا الكتاب، سوف أرد على اتهام وحيد الدين بإصدار حكم الإعدام ضد مصطفى كمال باشا وأصدقائه، وتشكيل قوة مضادة باسم مختلف من أجل القضاء على الحركة الشعبية، بأسلوب بسيط وقصير، أسلوب"سهل ممتنع" كما يقولون في لغة الأدب:

فقرار الإعدام كان قرار فريد باشا، وصدر بناءً على فتوى شيخ الإسلام دري زادة. وهنا وحيد الدين -الذي يواجه عدواً متعقباً للأحداث باهتمام-لا يستطيع أن يقول ببساطة:

ـ لا، لا تنفذ هذه الفتوى، ولا تتحدث عن مشروعية حركة الأناضول!

فإذا كان يتعين على السلطان أن يذهب هو بنفسه إلى الأناضول ويقدم العون للحركة، كان هذا أمراً سهلاً لكن ثمنه باهظ، فقد كان سيفتح الطريق أمام قوات الحلفاء للقضاء على الحركة الشعبية، وهذا أشرت إليه من قبل في كتابي هذا. ولكن وحيد الدين ظل في استانبول معطياً الأمل للعدو، وبذلك ضمن نهوض الحركة الشعبية، ونجاحها، متحملاً هو التضحية بأن يبدو مثل الخائن للوطن. فهو إنسان حرمه القدر من أن يبدو على حقيقته الخالصة، وظهر على غير حقيقته تماماً.

ويالها من منزلة سامية في قدرة الحق!...
في هذه النقطة يبدو مدى الظلم الذي تعرض له وحيد الدين.فقد كان ظلماً لامثيل له.
أما التشكيلات المختلفة التي باسم (قوة الانضباط) وغيرها من الأسماء، فهى لخزي العيون كما يقولون، أو إنها كانت من قبيل "التمويه"، فلم تستطع واحدة من هذه التشكيلات أن تتشابك مع الحركة الشعبية، بل إنها انضمت إليها. ولعل هذا كله - كما يتضح من سير الأحداث- كان بناءً على تعليمات سرية من وحيد الدين.
وعندما نأتي لعصيان الأناضول الذي اندلع في كل الأرجاء، نجد إنه من الأشياء التي ظهرت بنفسها نتيجة للوضع المتناقض للقصر. ويكشف لنا سير الأحداث أيضا أن القصر كان موقفه عبارة عن مجرد إنه أشار بقوله: "ليتوقف هذا العصيان"، ولكنه لم يتدخل بالفعل، ولم يأمر صراحة بضرورة وقفه، كما لم يعلن انضمامه للعصيان ودعمه بقوله: "استمروا في عصيانكم". إنني لا أرى حاجة لالتماس العذر لوحيد الدين، طالما إنه لم يكن هناك هدف سوى إنقاذ السلطنة والخلافة، فهو عندما أمر الأمير عمر فاروق أفندي بالعودة من (إينابولي) وعاد مناهضاً للقصر صراحة، كان ذلك في ضوء هذه الوقائع أمراً واقعاً، لأن الحركة التي بدأت بالاتفاق مع القصر صارت ضده.
لكننا نجد أن عذره فقط في محاولته إسكات الإنجليز، وفي بطولته العظيمة في اجتهاده لضمان إنقاذ الوطن رغم سياسة أن يبدو في صورة خائن الوطن.
ولابد أن الكلمة التي قالها للمقربين له في منزله في "سان ريمو" بعد مدة قصيرة من استقراره هناك تبرز بشكل مختصر صحة ما أثبتناه وحللناه:
"إذا كان القصر والسلطنة قد هُدما، فما يعزيني أنه تم إنقاذ الوطن والأمة!..."

الانتصار الوطني والعرش المنهار

والأحداث التي جرت بعد ذلك حيث كاد الشعب الغاضب أن يسقط اليونانيين المحاصرين، في البحر، معروفة للجميع من خلال المعلومات الكثيرة عنها، بالإضافة إلى إنها خارج نطاق موضوعنا...
في تلك الأثناء بينما تتزايد الأدبيات المنفرة من وحيد الدين، ويزيد ادعاء الخيانة من الغضب الشعبي يوماً بعد يوم، كان وحيد الدين - وفقاً لما سمعناه من الياور السابق علي نوري بك أفندي بن توفيق باشا- يسجد شكراً لله عند سماعه خبر انتصار للحركة، ويكاد يطير من شدة سعادته. لكن سر هذا الموقف الذي أُتخذ ضده لايعلمه سوى الله، وبعض الشخصيات التي رحلت، بينما ظل مستوراً أمام عيون الشعب.
وتحول هذا النصر ضد اليونانيين إلى نصر ضد السلطان والسلطنة، وصار السلطان محمد وحيد الدين السادس أخر سلاطين العثمانيين، قربان هذا النصر الذي كان السبب فيه، بجانب علم اليونان الذي تمزق بالحراب التركية. وكأن الجيش اليوناني كان من قواته الخاصة، وأن وحيد الدين هو الذي دفع به بعد ستره بالطين لمحاربة الشعب التركي.

ويتحدث مصطفى كمال باشا الذي أعطى شكلاً لحركة المقاومة الشعبية، والذي ظهر على السطح مثل الغواصة عندما تحقق النصر، وبعد أن توقف طوربين المراقبة الذي كان على سطح المياه حتى تلك اللحظة، قائلاً:

"ـ جاءني رؤوف بك ذات يوم في حجرتي التي في المجلس، وقال إنه يريد أن يتحدث معي في بعض الأمور الهامة، وقال لي إنني إذا أتيت إلى منزل رفعت باشا الذي في (كاشي أوران) سيمكننا الحديث على نحو أفضل. فوافقت على اقتراح رؤوف بك. واستأذن أن أوافق على حضور فؤاد باشا أيضا. فرأيت أن هذا مناسباً. اجتمعنا نحن الأربعة في منزل رفعت باشا. وهذا هو خلاصة ما سمعته من رؤوف بك، وهو أن المجلس يشعر بالأسف والقلق لرأيي ضرورة إلغاء مقام السلطنة وربما الخلافة... وأنه يتشكك في الموقف الذي سأتخذه بعد ذلك. وبناءً عليه لابد أن أقوم بطمأنة المجلس ومن ثم تهدأ وساوس الأمة.

سألت رؤوف بك ما مدى اقتناعه بالسلطنة والخلافة، وها هو ما صرح به، حيث قال: (أنا مرتبط وجدانياً بمقام السلطنة والخلافة، لأن والدي تربى في نعمة السلطان، وتوجد أثار تلك النعمة في دم جميع رجال الدولة العثمانية، وفي دمي أنا أيضا، وأنا ليس جاحداً بالنعمة ولن أكون كذلك! إن المحافظة على السلطان دين حقيقي في عنقي! أما ارتباطي بالخليفة فهو نتيجة لتربيتي. وعدا ذلك فإن لدي وجهة نظري الخاصة. إننا نواجه صعوبة في أن نسيطر نحن على الوضع بصفة عامة. لكن يستطيع ضمان هذا، مقاماً مألوفاً يبدو عالياً لدرجة لا يستطيع أي شخص الوصول إليه. إنه مقام السطنة والخلافة. والغاء هذا المقام، واستبداله بنظام آخر سيؤدي إلى الكارثة والخسارة. كما إنه أمر لا يجوز أصلاً!)

وبعد أن تحدث رؤوف بك، سألت رفعت باشا الذي كان يجلس في مواجهتي عن رأيه. وكان هذا هو جواب رفعت باشا: (إنني اشترك تماماً مع رأي رؤوف بك. في الحقيقة إن أي شكل للحكم غير السلطنة والخلافة ليس موضوع بحث، أو جدال في رأينا!)"

(نطق ـ 1927 ـ صفحة 418)

ذلك هو رؤوف بك الذي استطاع أن يضمن لنفسة أكبر مقام في حركة الإنقاذ الوطني رغم إنه الذي وقع على هدنة موندروس التي أصبحت بمثابة وثيقة السجن الملية، وبدا خلال فترة كأنه يحافظ على السلطان، ذلك السلطان الذي وُصف بخيانة الوطن، بالرغم من إنه هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول من أجل إثارة الحركة الشعبية، وهو الذي قاوم حتى النهاية، ورفض التوقيع على معاهدة سيفر.

ولنستمع مرة أخرى إلى مصطفى كمال باشا، لنرى كيف تغيرت أفكار وأقوال الشخصيات التي كانت في موقع أبطال الحركة الشعبية بسرعة:

"ـ عندما أصدرت قراري بفصل السلطنة عن الخلافة، ثم إلغاء السلطنة أولاً، كانت أحد الأشياء التي قمت بها في البداية هو استدعاء رؤوف بك بسرعة إلى حجرتي التي في المجلس. وبدوت كأنني لم أطلع قط على الأراء التي استمعت إليها حتى الصباح من

رؤوف بك في منزل رفعت باشا، ووجدتني أقول له وأنا واقفاً على قدمي: سوف نلغي السلطنة بعد فصلها عن الخلافة! وسوف تجدون هذا في البيان الذي سألقيه من منبر المجلس! وقبل أن يخرج رؤوف بك من حجرتي، جاء كاظم قره بكير الذي دعوته لنفس الهدف. وطلبت منه أيضا أن يحضر إلي المجلس، ويستمع إلى البيان الذي سألقيه هناك.

أيها السادة، وفقاً لما بدا في جريدة المضبطة الخاصة بذلك التاريخ، فإن رؤوف بك كان موجوداً أثناء إلقائي البيان من منبر المجلس، حتى إنه أشار إلى أن يوم إلغاء السلطنة وافق يوم العيد."

(نطق ـ 1927 ـ صفحة 419)

ولنترك لقرائنا تقييم كلا الطرفين.

وها هو ما حدث في المجلس حتى تم في النهاية إلغاء السلطنة:

بينما يناقش مجلس الأمة التركي الكبير مسألة السلطنة في اجتماع مشترك، وبينما يبدي بعض المبعوثين مقاومة شديدة لمسألة الإلغاء، ينهض مصطفى كمال باشا الذي كان يستمع للمناقشات، فجأة على قدميه.

ولنثبت هذا المشهد بلسانه هو شخصياً:

"ـ صعدت فوق الصف الذي أمامي، وقلت بصوت مرتفع هذا البيان: أيها السادة، يجب أن يعلم الجميع أن الحاكمية والسلطنة لا تُقَدم من شخص إلي آخر بالمباحثة والمناقشة، بل تؤخذ السلطنة والسيطرة بالقوة والقدرة. إن ابناء عثمان قد وضعوا أيديهم على السلطنة، وحكموا الأمة التركية بالقوة. واستمر هذا التسلط ستة قرون. والآن يأخذ الشعب التركي بالفعل السلطة والسيطرة في يده معلناً عصيانه، وواضعاً الحدود لهذه التجاوزات. إن هذا أمر واقع. والمسألة ليست هى هل نترك السلطة للأمة أم لا نتركها. بل هى عبارة عن الإفادة بحقيقة الأمر الواقع. فالأمر سيحدث على أي حال. فالمجتمعون هنا، سواء من المجلس أو من خارجه، إذا رأوا أن هذه المسألة طبيعية، سيكون هنا متفق معي في الرأي. وإذا رأوا عكس ذلك، فالقاعدة أن يفيد بذلك في دائرته. لكن من المحتمل أن بعض الرؤوس سوف تُقطع!".

(نطق ـ 1927 ـ صفحة 422)

ويحني الجميع رؤوسهم.

ومن نفس الفم نرى شكل القضاء على السلطنة:

"ـ وتم تحديد لائحة القانون بسرعة. وقُرأت في الجلسة الثانية للمجلس في نفس اليوم. وصعدت على المنبر معارضاً للرأي الذي يقول بضرورة ترشيح أسماء، وأخذ الأصوات. وقلت لا حاجة لنا لذلك. أظن نحن متفقون على إنه من أساسيات المجلس الكبير، المحافظة على استقلال الدولة والأمة. وارتفعت الأصوات قائلة: (فلنأخذ الأصوات!). وفي النهاية أخذ الرئيس الأصوات، وقال: (موافقة!). لكن سُمع صوت معارض يقول: (أنا أعترض)، لكنه خُنق بصدى الأصوات التي تقول (سكوت). هكذا أيها السادة جرت أخر صفحة لمراسم انقراض وانهدام السلطنة العثمانية."

(نطق ـ 1927 ـ صفحة 422)

وأُعلن انهدام العرش، وقيام الجمهورية بإطلاق 101 طلقة مدفع...
ولنأتي لرأي مصطفى كمال باشا في وحيد الدين:
"ـ سافل حصل على مقام عالي، ولقب محتشم نتيجة نظام متوارث سقيم..."
(نطق ـ 1927 ـ صفحة 423)
إشارة مصطفى كمال باشا إلى ضرورة مغادرة وحيد الدين البلاد:
"ـ في الحقيقة إن وحيد الدين ستتعرض حياته وحريته للخطر لأي سبب، وبأي صورة كانت، إذا فكر أن يعيش بين الشعب كإنسان عادي. أما إذا فكر أن يعيش كرئيساً لهذه الأمة، ولو لدقيقة واحدة، فياله من إنسان تعيس! فسوف يلقى الشكر الذي يستحقه، هذا الذي يريد أن يبقى ليواصل دناءاته، بعد أن أسقط الشعب هذا الدنيء من مقام السلطنة الموروث."
(نطق ـ 1927 ـ صفحتي 423، 424)
وهكذا فجأة يلقى وحيد الدين هذه المعاملة، بعد تحقيق النصر الذي أسعده لأقصى درجة. ويندهش ولا يعرف ماذا يفعل، عندما يرى أن العرش العثماني قد أصبح هدفاً لـ 101 طلقة.
ووجد أمامه نموذج علي كمال الذي تم اقتياده إلى (إزميت) ممزقاً إرباً لأنه حاول الإمساك بطرف الخلافة، وإعلان نور الدين باشا، بإنه سيفعل نفس الشيء لوحيد الدين.
وربما يلقى مصير "گـنچ عثمان" الذي جروه من فوق حصان أجرب مثل أفراخ الحمام إلى (يدي كوله)، وهو يجر ساقيه بصعوبة، ثم داسو عليه وقتلوه!... أو مصير سليم الثالث!... ولويس السادس عشر... هناك أمثلة كثيرة،مثل قيصر روسيا، نيكولاي الثاني الذي امتلأ جسده بالثقوب من جراء طلقات الرصاص التي أمطروه بها مع أسرته في أحد المخازن التي صارت أشبه بالسلخانة... أمام وضع كهذا ماذا يجب عمله؟
هناك طريقان...
إما البقاء في البلاد وانتظار ما سيحدث له، أو الرحيل خارج الوطن بوصفه إنساناً عادياً، فقد صفة السلطنة...
لكن هناك أيضا لقب الخلافة، فهو يهم مائة مليون مسلم، وهذا يتطلب ماهية تفوق القرارات المحلية... فهؤلاء المسلمون هم الذين من حقهم المطالبة بالمنصب، بشرط ألا يكون أداة لتحقيق أمل الأنجليز، فقد كان جزء كبير من الأمة الإسلامية في ذلك الوقت تحت السيطرة الإنجليزية. ولذلك فالدولة الوحيدة التي يمكن أن تهتم بالخلافة هى إنجلترا.
وبعد حساب طويل مع النفس يتخذ قراره الأخير: "سأغادر الوطن"، لكن كان هناك صوت داخله يقول!
ـ لا لن أرحل عن الوطن! سأبقى حتى إذا تعرضت للموت!
ولكنه لا يقولها.
ليته استطاع أن يقولها.

من أجل توضيح معيار تقييمنا، سأقول إنه لا يوجد في قلب وحيد الدين هذا القدر الكبير من الشجاعة، وليس من حق أي شخص أن يطلب منه هذا القدر من الشجاعة.

كان وحيد الدين يستطيع أن يمكث في وطنه عالي المقام، رافعاً الرأس، لكن رحيله عن وطنه لا يحط من قدره، لأن لديه العذر.

كما عرفنا أن وحيد الدين رجع إلى الإنجليز، وطلب منهم باقتضاب أن يساعدوه على الخروج من تركيا.

وها هو خطابه الذي يحمل عنوان "البلاط الهمايوني السلطاني":

"إلى جناب الجنرال هارينجتون، قائد جيوش احتلال دار السعادة:

إنني ألجأ إلى فخامة دولة الإنجليز، لأنني أرى أن حياتي في استانبول أصبحت معرضة للخطر، ولذلك أطلب منكم نقلي من استانبول إلى مكان أخر.

16 تشرين ثاني 1922

خليفة المسلمين

محمد وحيد الدين"

وكان هذا هو رد الجنرال هارينجتون:

ـ سوف أحضر بنفسي غداً إلى القصر الهمايوني، واصطحب الذات السلطانية، وأساعده على الرحيل عن استانبول على ظهر سفينة حربية إنجليزية!

ظل وحيد الدين ساهراً طوال الليل... يفكر في القصر الحزين الساكن سكون القبر، وفي الحجرة الصغيرة التي ستكون سكنه في مالطا. وظل ممدداً على كنبة شيزلونج بسيطة فاتحاً عينيه ناظراً إلى السقف بلا حراك مثل المومياء. إنه سلطان واجه سوء حظ واضطراب لم يواجهه أي سلطان آخر في التاريخ...

أمر بتجهيز حقائب السفر، ولم يسحب شيئاً من الخزينة الخاصة. حتى الطرة الماسية، هدية والده له، وصندوق صغير من الذهب الخالص، تركهم في الخزينة الخاصة مقابل إيصال إستلام. هنا لابد أن نتخيل مدى حس التضحية والقناعة التي في روح هذا الحاكم. حتى الهدايا الشخصية يعيدها إلى الخزينة الخاصة، بينما كان في إمكانه - وهو السلطان الذي سيرحل، وفي معيته جيش من أسرته وأهله إلى عالم مجهول- أن يفرغ هذه الخزانة تماماً حيث إنها خزانته الخاصة ولكنه لم يفعل...

كان كل ما معه من مخصصات السلطنة عبارة عن 50 ألف ليرة ورقية، كان يستعد للرحيل بهذا المبلغ البسيط، ومعة معية ضخمة، وإلى بلاد غربة.

بعد بزوغ النهار بقليل جاء خبر إلى وحيد الدين:

ـ سيدي وصلت أمام باب القصر العربات التي أرسلها الإنجليز... وينتظرون تشريفكم الهمايوني في واحدة من عربات القيادة العليا!

نهض السلطان من الشيزلونج، وكان قد استعد تماماً، وجهز كل شيء، ومر إلى الحرملك ماسكاً بيده ابنه محمد أرطغرل الذي أحضروه ليكون بجانبه.

الوداع... صرخات جريحة من نساء القصر. إن القصر العثماني الذي اعتاد على هذا الصراخ بداية من قصر (طوب قابي)، صار ساحة لتبادل المزيد من صرخات أصحابه

الأخيرة. ولن نسمع في هذا المكان مرة أخرى صوت هؤلاء، بل ستملأ المكان أصواتاً، ومعاني أخرى...

خرج وحيد الدين حاملاً مظلة سوداء اللون، مرتدياً ملابس مدنية، وعلى رأسه طربوش، وعلى أنفه نظارته، ودخل إلى العربة الأولى التي انطلقت بسرعة تجاه (دولما باغچة).

وبعد الانتظار من 5 إلى 10 دقائق أمام قصر (دولما باغچة) الحزين، الصامت كالقبر، أومأ الجنرال الإنجليزي إلى السلطان وقال:

ـ ينتظر قارب بخاري خاص بالأسطول الإنجليزي عند الرصيف، لتوصيل الذات السلطانية إلى المدرعة (مالايا)!

قفز وحيد الدين من كرسي العربة منطلقاً خارجها، وسار بخطى ثابتة، وصعد إلى قارب بخاري أبيض اللون، ذو مدخنة صفراء، ثم صعد إلى المدرعة (مالايا) ذات اللون الرمادي، والمدافع التي تشبه أفواهاً عملاقة تقرأ فرمان للأفق المفتوح. وصعد وراءه الجنرال (هارينجتون) من الرصيف إلى سطح السفينة، وكان أمامه الأميرال (دروك) قائد الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض، والمفوض الإنجليزي فوق العادة السير (نافيل هندرسون)...

وأطلق سلاح البحرية - بالمدافع الإنجليزية وليس البنادق التركية المنتصرة- تحية للسلطان البائس.

وبعد وهلة انطلقت المدرعة (مالايا)، وفي داخلها قصر عثماني استمر 6 قرون، مارقة من أمام قصر طوب قابي العريق، إلى بحر مرمرة.

والآن لا يوجد شيئاً في الأفق سوى دخان رقيق رمادي، يتصاعد من السفينة الرمادية، دخان يعلن عن انتهاء كل شيء.

ويذهب وحيد الدين!

هل هو يهرب؟ هل هو يترك وطنه كالخائن؟

ونطلب من علي نوري أفندي، الياور السابق، أن يفسر لنا معنى هذا الذهاب الذي قيمناه سابقاً:

يقول علي نوري بك:

"ـ وحيد الدين لم يهرب، لم يهرب بصفته السلطان! لكنه رحل بوصفه فرداً عادياً. فقد أُلغيت السلطنة في أنقرة بإطلاق 101 طلقة مدفع. إن وحيد الدين خُلع عن عرشه. وبعد أن جردوه من كل صفاته، لم يتبق له سوى نفسه. وبعد أن أصبح فرداً عادياً فمن حقه أن يرحل!".

ولأوضح نقطة لعل علي نوري بك أفندي قد نسيها، أو إنه لم يرَ لزوماً ليقولها:

ـ إن وحيد الدين ذهب ليبحث عن حيلة في رأسه بلقب "خليفة المسلمين" الذي لم يستطع أحد أخذه منه حتى ذلك الحين، فقد أراد من إنجلترا التي تسيطر على جزء كبير من العالم الإسلامي، المحافظة على حقه بصفته الخليفة، دون أن يقدم لها أي مقابل لقاء ذلك.

ويتجه وحيد الدين بالمدرعة الإنجليزية من بحر إيجا إلى البحر الأبيض في اتجاه جزيرة مالطا... وقبل أن نغلق فصل (حركة المقاومة الشعبية) وبحث (العرش المنهدم) لنلقي نظرة أخيرة على الوضع الأخير في استانبول...

ونظراً لأن أخر صدر أعظم في ذلك العصر كان توفيق باشا، لذلك نستمع مرة أخرى إلى ابنه علي نوري بك أفندي:

"ـ بعد انتصار الأناضول، وإلغاء السلطنة قال والدي: هذا انقلاب وبداية هوية شرعية جديدة، ولابد أن أستقيل من منصبي!

إنكم تعرفون أن والدي كان أخر صدراً أعظم لأخر سلطان. اجتمع مجلس وزرائه في الشقة التي هي الآن قسم البار في مبنى فندق (بارك) الذي ترونه، وترك والدي منصبه بقرار مشترك اتخذه المجتمعون. واحتفظ والدي (بالمهر الهمايوني) أو (المهر الشريف) الخاص بالسلطان. هذا المهر التاريخي لا يزال حتى تلك اللحظة عند أخي حقي بك. في تلك الأثناء استدعاني رئيس موظفي القصر، وأبلغني ذلك القرار: قولوا لوالدكم ليخرج من البلاد، وليذهب إلى أي مكان أخر، الريفيرا مثلاً ليستريح! ... أبلغت والدي بهذا القرار فقال: إنني أشكر اهتمامهم بي، لكن أنا صحتي جيدة، وليس بي حاجة إلى الاستراحة في أوروبا! إنني أرجح البقاء في وطني!

أخبرت القصر بذلك الوضع، فخاطبني رئيس موظفي القصر قائلاً: خذ هذه الرسالة وقدمها لوالدك، وستعرفون منها سبب طلبي منك إخبار والدكم بضرورة خروجه من البلاد!

وأعطاني رسالة مطبوعة في يدي. كانت تلك الرسالة عبارة عن قانون الخيانة الوطنية. أعطيت الرسالة لوالدي فطلب مني أن أقرأها له. كانت المادة الأولى في هذا القانون تبحث في مسألة مراعاة حرب الاستقلال لغاية المحافظة على السلطان والخليفة، وأمام هذا قال والدي: إذا كان ذلك هو السبب الذي يدعوا لخروجي من الدولة، على العكس إذ يجب على أن أبقى هنا ولا أذهب إلى أي مكان آخر، فالذين كانوا يريدون إنقاذ السلطان والخليفة ماذا عساهم أن يفعلوا سوى تقديم الشكر للصدر الأعظم الذي كان يسعى هو أيضا لنفس هذه الغاية؟...

ولهذا مكث والدي في استانبول. وكان هنا حين استرداد استانبول، ولم يعامله أي أحد معاملة سيئة، بل على العكس لقي احتراماً كبيراً. وعند وفاته أُرسلت فرقة سواري للسير في جنازته."

عند وصول المدرعة (مالايا) بكل حمولتها آتية بالسلطان الذي كان كبده يحترق في طريقه للغربة. وبينما يصبح يتيماً من الوطن، يتذكر كلمة كان قد قالها لباشكاتب القصرذات يوم في الماضي:

" ـ إنني أشعر في كل وقت بفراق والدي. وعندما أرى يتيماً في أي وقت أتذكر في الحال شفقة الأب. فالحرمان من الأب أليم جداً."

ويتذكر المزيد من الذكريات:

"ـ كان في أسرتنا كافة أشكال الرجال، الثمل والظالم والمجنون والأبله، لكن لم يكن في أسرتنا أبداً الملحد الذي لا يعرف دينه! حتى عبد العزيز الذي كان أكثر منا جميعاً حرية ولا مبالاة، كان حتى أخر نفس، وهو يسلم الروح محتضناً القرأن. لقد رأيتم أنتم أيضاً بأعينكم في مكتبة يلديز "المصحف الشريف المغطى بالدم!".

هذه الكلمات التي أخذناها من الباشكاتب علي فؤاد توركجالدي، توضح مدى قوة وإيمان هذا السلطان - الذي ظل يتيماً من الوطن أي من الملايين من شعبة- ولم يعد يملك شيئاً بعد رحيله عن الوطن، سوى هذه القوة.

إن صاحب العرش الذي حُكم عليه بعذاب معنوي مخيف، عذاب يفوق الدفن في القبر حياً، لم يحقد يوماً على أحد، ولم يكن عداوة لأحد. والإحساس بالحقد أو بالثأر إحساس غريب عليه، انظر، ماذا قال ذات يوم لباشكاتبه:

"ـ إنني لا أكن حقداً لأحد، ولا أشعر بإني أريد الثأر من أحد. حتى أنني كنت إذا غضبت ذات يوم على أحد وجاءني هذا الشخص لاجئاً إلي تزول حدتي، لكن هناك اثنين لم تزولا حدتي معهما. أحدهما والدة السلطان عزيز، والأخرى الوالدة الكبيرة، والدة سعيد باشا..."

وهناك أيضا ثلاثة أشخاص آخرين ينفر منهم السلطان الذي لا يحمل ضغينة لأحد في الأصل، إذ يقول:

"ـ في هذه الدنيا ثلاثة ملاعين، أحدهما أختي، والثاني فريد باشا زوجها، والثالث سامي ابنهما..."

فذلك كان حكمه على فريد باشا الرجل رقم (1) في الجبهة المعارضة لحرب الاستقلال، وبرغم ذلك كان مضطراً لأن يبقيه في مقام الصدارة العظمى!...

والسلطان لم يحمل ضغينة لأحد خاصة مصطفى كمال باشا، ففي نهاية طريق الرحلة التي قطعها بالمدرعة (مالايا)، وفي فيلته في إيطاليا سأله رجل، ماذا ستفعل مع مصطفى كمال باشا إذا آل الأمر إليك مرة أخرى؟ فروى له منقبة عن السلطان سليم (ياووز) قائلاً ما يلي:

"ـ إذا كان الياووز قد عفى عن الجندي الذي نهض لقتله، وقال له اذهب فقد عفوت عنك؛ لأنني محتاج لشجاع مثلك، يملك الجسارة التي دفعته لقتل الياووز. وكذلك أنا محتاج لشجاع مثل مصطفى كمال ليكون في جيشي، لذلك فإني سأعفو عنه، وأرسله لخدمة الأمة!".

لكن بينما كان وحيد الدين سيعفو عن مصطفى كمال، صار هو نفسه غير مُعفى عنه، و طُلب منه أن يرحل بذنب لا يقبل التاريخ العفو عنه.

الوثيقتان الأخيرتان

بينما كنت في كتابي على وشك الوصول إلى النقطة التي أتعقب فيها السلطان وحيد الدين في المدرعة (مالايا)، جائتني رسالة من صحيفتي على التليفون في منزلي تقول:

ـ يوجد شخص يريد رؤيتكم ويقول إن لديه معلومات في غاية الأهمية! في تلك اللحظة وهنا...

سألت هذه الأسئلة حتى أطمئن عن شخصيته، هل هو موزون أو غير موزون؟ جاد أم غير جاد؟

ـ من هو؟ وما الموضوع الذي يريد التحدث فيه؟

ـ لا يقول أي شيء! لكنه يقول إنه يريد فقط أن يتحدث معك!...

ـ دعه يكلمني على التليفون!...

سمعت صوت على التليفون جعلني أشعر بالاطمئنان، قال:

ـ لدي وثيقة متعلقة بسلسلة مقالاتك، أريد أن أعطيها لك؟... لا أستطيع أن أتحدث عنها في التليفون ولا آمن أن أرسلها مع أي أحد. لابد أن أقابلك...

لا أعرف لماذا قلت له ما يلي:

ـ تفضل إلى منزلي لنتحدث سوياً! هل كان ذلك لإحساسي بالاطمئنان لنغمة صوته؟ أم من إحساس تولد بداخلي تجاه هذا الشخص المجهول؟ لا أعرف.

ثم أمليت عليه العنوان.

كان أبيض الشعر، أسمر الوجه ، يبدو في سن الـ 65، محترماً... تشعر إنه واحد من الطبقة الشعبية. فهو يكاد يقرأ ويكتب، ولكنه منظم في حديثه، ولا يخفى عن الأذن قدر الثقافة الضئيل الذي يحمله.

بدأ حديثه على الفور قائلاً:

ـ إنني أقرأ باهتمام، سلسلة مقالاتك عن وحيد الدين، وثمة مسألة تبحث فيها وهى أن السلطان وحيد الدين هو الذي أرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول، ليبدأ حرباً شعبية... إنني الإنسان الذي سمع أتاتورك وهو يقول هذه الحقيقة بنفسه إلى كاتب مذكراته... الله موجود... وأريد أن أشهد بهذه الحقيقة للتاريخ، والله شاهداً.

ـ أولاً عرفني بهويتك، وما علاقتك بأتاتورك؟

ـ اسمي جمال جراندا... من مواليد عام 1910، في حي (صالحلي) في إزمير، ونشأت في استانبول. والآن أنا على المعاش من مؤسسة (دنيز يوللري) أي الطرق البحرية. وأسكن في إحدى قرى (يالوفا). فيما بين أعوام 1927 ـ 1938 كنت في خدمة أتاتورك لمدة 11 عاماً بالضبط، حيث عملت لديه كسفرجي. كنت على رأس من كانوا يعملون في خدمة تقديم الطعام له في القصر. وبوصفي كنت قريباً من حياته كل لحظة في القصر، كنت أرى عصبيته وفرحته، كما أُتيحت لي فرصة أن أستمع لما يقال بينما أقوم على خدمة تقديم الطعام. إن ما سمعته ومارأيته على مدى الـ 11 عاماً التي عملت فيها لديه يكفي لملئ كتاب.

ـ أي شيء مما شاهدته له علاقة بوحيد الدين؟

ـ كان ذلك في عام 1928ـ 1929، كان كاظم قره بكير يلقي بعض البيانات والتصريحات، وكان يدّعي أن شرف حرب الاستقلال يعود إلى أتاتورك وإليه هو شخصياً، ولم يعطِ الآخرين أي نصيب من هذا الشرف. فغضب أتاتورك من هذا الكلام

غضباً شديداً. وخاصة عندما ادعى كاظم قره بكير إنه صاحب الخطة الأولى... وذات يوم كان يجلس أمام الكاتب توفيق بك، وكان يناقش معه هذا الموضوع بعصبية شديدة. وقد استمعت إلى حديثهما في هذا الخصوص بينما كنت أقوم بخدمتهم، حيث كنت أدخل وأخرج، أحضر القهوة، وسائر الأصناف التي أقدمها لهم، كان يقول:

"إذا كان قد أنقذ هذه الدولة رجلين فقط ،كما يدّعي كاظم قره بكير، فوأسفاه على هذه الأمة... كيف يتفوه بشيء كهذا؟ لابد من عرض هذا الرجل على دكتور أمراض عقلية ولابد من علاجه!... هل إلى هذه الدرجة حريص على إبداء عجزالأمة؟" ثم يقول فجأة وبصورة مباشرة لتوفيق بك: "إن وحيد الدين اختارني أنا من بين العديد من الباشاوات من أجل بدء الحركة الشعبية، وهو الذي أرسلني إلى الأناضول. فإذا لزم البحث عن الشخص الذي أنقذ هذا الوطن، فلابد إنه هو وحيد الدين!". لقد سمعت هذا الكلام بأذني. ولم أنسى حتى هذه اللحظة موقف أتاتورك، أو أي شيء مما قاله. وأرجو أن تكتب هذا الكلام كما قلته، وسوف أوقع على ماتكتبه. وأنا لا أنتظر من وراء هذا سوى إظهار الحقيقة، وأن أنال رضاء الله!

وها هى الوثيقة ومكتوب تحتها:

هذا هو البيان الموقع من جمال جراندا، سفرجي مصطفى كمال الذي أثبت به بحثنا في أن فكرة حركة المقاومة الشعبية هى فكرة السلطان محمد وحيد الدين السادس.

وأمليت على ابني ما أفاد به جمال جراندا، وأخذت توقيعه، كما ترون في الصورة التي أعرضها في ص 251 من هذا الكتاب[482].

وهذه الوثيقة تعد من ناحية البحث العلمي التاريخي، أوثق وثيقة. فهى عبارة عن شهادة لا غرض من ورائها، أو انتظار فائدة منها، وشهادة جاءت صادقة، وبحسن نية. فإن من شهد بها شخصاً عادياً. ونظراً لأنها تثبت ما أثبتناه بنفسنا في قضيتنا، فإنني أقوم بتقييم ما أثبته السفرجي، بإنه شيء كبير وقيم، برغم إنني لم أكن بحاجه إليه. لكن مع ذلك فهى تعد بمثابة وثيقة.

كان جمال جراندا لا يزال عندي عندما جاء ساعي البريد، وأحضر معه صحيفة. كانت صحيفة (دنيا) بتاريخ 19 مايو 1957، أرسلها لي أحد القراء... تتصدر الصفحة السادسة لهذه الصحيفة خواطر بتوقيع (فالح رفقي) بعنوان رئيسي: "أتاتورك يذهب إلى سامسون"، وعنوانها الفرعي، كان عبارة عن ذلك الكلام الذي سجلته من قبل، وقيل لمصطفى كمال بلسان وحيد الدين وهو:

"ـ أيها الباشا، أيها الباشا! إنكم خدمتم الدولة كثيراً حتى الآن! وكل هذا قد مضى وانتهى! وما ستقدمه الآن هى أهم خدمة تؤديها! إنك أيها الباشا تستطيع إنقاذ الدولة!".

وبالنظر إلى أن إنقاذ الدولة لا يكون بالعمل على استتاب الأمن في سامسون، يأتي هنا تأييد بقلم مثل قلم فالح رفقي، للسبب الأساسي لأرسال مصطفى كمال باشا إلى

[482] - يقصد الكتاب الأصلي

الأناضول. وهذا الاعتراف يتفق عليه كثيرون من أعداء وحيد الدين، لكن عندما نأتي للمغزى الحقيقي لهذا العمل المكلف به، يفر الجميع من الحقيقة.

لقد أرسل وحيد الدين مصطفى كمال باشا إلى الأناضول مباشراً، من أجل إنقاذ الشعب التركي ودولته. وبعد إنقاذ الدولة نصب مصطفى كمال الظروف اللازمة لإبعاد صاحب فكرة إنقاذ الدولة، وأول من عمل في سبيل ذلك، عن الوطن داخل مدرعة العدو. وبينما يقترب وحيد الدين من شبكة الظروف المنصوبة له، وهو لا يدرك إنها الموت، تسقط الشبكة على البطل العظيم الذي يقف صامتاً، وبذلك يصعد أخر درجة في سلم سوء حظه، بل وتصبح هذه الظروف مستنداً ضده، قدمه بنفسه مجاناً للذين أظهروه خائناً للوطن.

خـليـفة في الغـربـة

مالـطا ومكـة

هاهو وحيد الدين - الذي أُطلقت المدافع تحية له، وهو يصعد إلى المدرعة الإنجليزية عند رحيله عن استانبول التي من أسمائها أيضا "دار الخلافة"، والذي رُفعت له الراية على السفينة، وعومل معاملة سلطان مظفر بينما، هو في غاية القلق والاضطراب- يتم استقباله في مالطا بمنتهى البساطة، فلم يشهد أي مراسم عند وصوله. عندما اقتربت المدرعة من سواحل مالطا، ألقت مرساتها، وجاء الحاكم الإنجليزي اللورد (بلومير) إلى السفينة، وسلم على وحيد الدين باسم ملك انجلترا، وقال له إنه يشرفه نزول الخليفة ضيفاً على الجزيرة. وأمر بأن تُنفذ كل أوامر الخليفة بسرعة.

وأمر الضابط الإنجليزي بتخصيص جناحاً واسعاً في مبنى هادىء وفخم كان في الأصل معسكراً قديماً للجنود محاطاً بالأسوار، لوحيد الدين ومعيته. ظل وحيد الدين في هذا المكان الذي يشبه القصر، في جناحه لا تفارق عيناه الأفق البعيد للبحر اللانهائي، ولايشاهد سوى منظر السفن الحربية ذات اللون الرمادي في ذهابها وإيابها.

كان من بين معيته قائمقام يُدعى زكي بك الذي كان أشد ما اُبتلي به الخليفة في غربته... كان رجلاً وقحاً غير مهذباً ، فظاً لأقصى درجة، نفعياً ومقامراً وسكيراً... تُرى ماذا سيكون العمل الذي يليق بهذا الرجل، فقد كان "قائد الموسيقى الهمايونية"، ومن الياوران الفخريين للسلطان وحيد الدين... وهو شقيق إحدى زوجات وحيد الدين التي طلقها، وتركت القصر منذ زمن طويل. وبرغم إنه لم يعد هناك أي علاقة له بوحيد الدين بعد طلاق أخته، فقد ظل زكي بك ملتصقاً كالحشرة بالسلطان، منتظراً لعب دور رجل السلطان الخاص.

كان هدف هذا الرجل استغلال قربه من السلطان، ولذلك ذهب معه في غربته لاستغلال هذا الخليفة المضطرب، المظلوم، كأنه صديق، ولكنها في الحقيقة كانت صداقة لا يريدها السلطان هذه المرة. كان هذا الرجل - الذي سنرى بعد ذلك ما سيفعله في وحيد الدين في إيطاليا- خبيثاً وشريراً. لم يكن يرى وجه السلطان، ولم يستأذن منه قط. وبطبيعته هذه كان لا يعرف أي شيء سوى استغلال صبر السلطان وأصالته وموقعه ونفوذه. وقد تسبب هذا الرجل في فضيحة في جزيرة مالطا بالخمر الذي كان يحتسيه صباحاً ومساءً.

أما وحيد الدين فهو إنسان لم يعرف طعم الخمر طيلة عمره، باستثناء نقطة واحدة رشفها عندما كان في رحلة ألمانيا التي قام بها عندما كان ولياً للعهد. فقد اضطر في إحدى الولائم الرسمية إلى أن يرفع كأس الشمبانيا إلى فمه، ويرشف نقطة واحدة، ثم

أنزلها بسرعة... لكن طبعه العاجز عن طرد الذباب الذي يحط عليه، يحكم عليه بالابتلاء بشخص كهذا.

كان القائمقام زكي مكلفاً بإحضار الخطاب الذي كتبه الجنرال هارينجتون إلى السلطان، ثم أخذ الرد منه ليسلمه لهارينجتون، لترتيب خطة الرحيل عن الدولة. أثناء تواجده مع السلطان لأداء هذه المهمة، لم يتوان عن الاقتراح على وحيد الدين بأن يأخذ معه الأمانات المقدسة الخاصة بمقام الخلافة التي في قصر طوب قابي. وهنا يرد عليه السلطان قائلاً:

ـ لن أخذهامعي! إنها أمانات وهدايا أجدادي إلى الشعب التركي.

أما الآخرين الذين كانوا في معيته، فهم رفاقه في الصلوات الخمس. الياور باشا "رئيس موظفي القصر"، ورشاد باشا الدكتور الخاص للسلطان وغيرهم من الشخصيات الجيدة، لكنها شخصيات باهتة.

وكان أسلوب حياته في مالطا، لايختلف عن أسلوب حياة نابليون في منفاه في (سانت هيلانة)... فقد كان لا يهتم سوى بأخبار استانبول والأناضول، وكان أمله وشوقه كله لتركيا.

كان شغله الشاغل هو قراءة الصحف بنفسه، أو تكليف آخرين بالقراءة...

في إحدي المرات، كان يوجد في الصحيفة سباب واتهامات ضده، لم يستطع الذي يقرأ له أن يقولها تأدباً، فقال له وحيد الدين:

ـ هذا حقك إنك لا تستطيع أن تقرأها، أنا أفهم ذلك، إذاً فلتترك الصحف، وتترك هذه المنضدة، وأنا سأقرأها بنفسي!

وعندما علم بخبر اختيار عبد المجيد أفندي، ولي العهد، خليفة وجلوسه على عرش ياووز الزمردي، أخذ يقهقه على غير العادة، ثم يصمت ليقول بعد ذلك لمن كانوا بجانبه:

ـ أي عرش؟... هل بقي هناك عرش؟... هذا الأفندي كان يرتدي قلنسوة الفاتح علي رأسه عندما كان ولياً للعهد، وكان يقوم ببعض الحركات الغريبة، وقد وبخه على ذلك أخي الكبير رحمه الله السلطان عبد الحميد. أرى إن طبعه لم يتغير! هكذا كلهم أبناء عبد العزيز... وهذه الحقيقة عبر عنها السلطان عبد الحميد أجمل تعبير بقوله: "إذا تركتهم لرؤوسهم الفارغة، فإنني أعرف إلى أي درجة سيهبطون بنا!". كيف يرضى هذا الرجل أن يصبح ألعوبة غير ذات قيمة، مغلفة بعظمة جوفاء؟

ثم جاء هذا البيان الذي نشره عبد المجيد بعد ذلك في حق وحيد الدين في الصحف، إذ قال:

"ـ هذا الخائن لم يخن وطننا فقط، بل لعب بشرف أسرتنا السلطانية. إن هذا الرجل الذي خرج من الوطن، يجب أن يخرج أيضا من سجل أسرتنا! للأسف إن أبي يُعتبر عم هذا الرجل الذي لم يفكر حتى في هذا!".

ولا لزوم لوضع أي تفسير لهذه الكلمات التي تنم عن حمق، وضعف عادي، يتسمان به طبع عبد المجيد.

وتقول المعلومات التي حصلنا عليها من نشريات الياور السابق (طارق ممتاز گوز تپه)، إن وحيد الدين بعد قراءة هذا الهجوم الأخير، توقف عن قراءة الصحيفة.

في ذلك الوقت جاء حاكم مالطا اللورد (بلومير) إلى وحيد الدين ذات يوم، بوصفه ممثلاً عن حضرة ملك إنجلترا. وأبلغه ببرقية جاءت من الملك حسين الأول، ملك الحجاز. وتلك هى البرقية التي كُتبت باللغة الإنجليزية، وبشفرة المقام العسكري الإنجليزي:

"خليفة الدنيا وإمام المسلمين جميعاً، حضرة سيدنا أمير المؤمنين، يتشرف عبدكم الملك حسين، باسم رابطة الصداقة والإيمان،بدعوتكم لزيارة الكعبة المشرفة، لتسعد العين برؤياكم البهية."

وكان ذلك هو رد وحيد الدين:

"ـ إن ذهابي إلى الحجاز هو من أجل الاقتراب من الأجواء الروحانية لنبينا وليس بناءً على دعوة الملك حسين، بل بدعوة نبينا وسيدنا الشريف الذي أمثله، واعتبرها بشرى لا مثيل لها ".

وهكذا فإن وحيد الدين كان لايزال يعتبر نفسه، خليفة المسلمين وسلطان الأتراك. ولهذا نجده يقول ذات مرة: "لا يستطيع عزلي من مقام الخلافة، سوى موكلي المقدس!"

والبرقية التي أرسلها الياور باشا، رئيس موظفي القصر، إلى الملك حسين، هى بمثابة وثيقة عظيمة، توضح مدى قناعة السلطان بعلو منزلته:

"ـإن خطابكم المرسل إلى عتبة مقام الخلافة المقدس، فلكي المقام، أسعد السلطان لأقصى درجة. وقد تفضل بالقرار بسرعة التحرك، تلبية لدعوة موكله ذو الشأن، ولتكحيل العين برؤية الروضة النبوية. كما أمرني بإبلاغكم شكره لشخصكم الكريم. وسوف نبلغكم بيوم السفر."

قام الحاكم اللورد (بلومير) بنقل وحيد الدين ومعيته إلى المدرعة (بارهام) بكل احترام واهتمام. وسلكت المدرعة المخصصة لوحيد الدين، والتي تشبه مقر أميرال، طريق السويس.

وفي السويس قوبل وحيد الدين بحفاوة من جانب عبد الله بن الملك حسين ومعيته، ولدهشته كان من بينهم الفيلسوف رضا توفيق الذي تعرف السلطان عليه بصعوبة، حيث كان في استقباله مرتدياً زي شيخ عربي.

وحيد الدين الذي ساءه أن يذهب إلى (جدة) وهي ميناء الأراضي المقدسة، على ظهر مدرعة إنجليزية يتدلى علمها حتى البحر، عندما علم أن الملك حسين قد أحضر سفينة لإحضاره هو ومعيته، فرح فرحاً شديداً كالطفل، وشكره على اهتمامه.

وصلوا إلى جدة بالباخرة (زمزم) يتدلى علم إيران على صاريها الخلفي، وترفرف راية السلطنة العثمانية على صاريها الأمامي.

لم يكن يبدو هناك أي دليل على وجود مراسم استقبال... وعلى سطح المياه المفتوحة إلى (جدة) بدا منظر المراكب الشراعية الصغيرة والكبيرة وكأنه حقل زهور... وامتلأ الساحل بقبائل الحجاز المختلفة التي جاءت من كل مكان ... وفي اللحظة التي صعد فيها

السلطان إلى الزورق البخاري، دوى التصفيق من البحر ومن الساحل... فهذه كانت المرة الأولى التي ترى فيها الحجاز، سلطان الأتراك وخليفة المسلمين برغم إنه كان مخلوعاً عن عرشه.

ونظراً لأن وسائل السفر وأحوال الطريق في تلك الأيام لم تكن جيدة، ركب وحيد الدين داخل عربة حنطور مكشوفة هو وابنه الذي يبلغ من العمر 12 عاماً، وركبت معيته فوق الجمال، وتحركوا نحو مكة.

ذهب السلطان - الذي خُلع عن العرش بإطلاق 101 طلقة مدفع التي تُطلق عادة عند اعتلاء السلطان العرش وليس عند خلعه - إلى البلد المقدس الذي يبعد عدة كيلومترات عن جدة وهو على رأس قافلة. وهناك لقي نفس الاستقبال ودوي التصفيق الذي بلغ عنان السماء...

عندما رأى وحيد الدين بيت الله نزل من العربة، وذهب سيراً على الأقدام إلى الكعبة وانحنى مرتين احتراماً للمكان، و"كحل عينه ووجهه برؤية الحجر الأسود"، لكنه لم يُقبله، ثم طاف بالكعبة....

وخصص الملك حسين له - باعتباره لا يزال يعد أحد السلاطين العثمانيين- مقراً يشبه القصر. وكان الإكرام والاحترام لوحيد الدين مبالغاً فيه لدرجة تجعلنا نظن إن ورائه غرض أو هدف. وفطن وحيد الدين لهذه المبالغة، وقال للقريبين منه ما يلي:

"ــ إن إصرار الرجل على إكرامي لهذه الدرجة بدأت تزعجني. فهو يعتبر زيارتي له وكأن النبي قد زاره..."

أُصيب وحيد الدين في مكة بالحمى الصفراء، وهو مرض خطير، وظلت حرارته مرتفعة لمدة 15 يوماً ثم تحسنت صحته. ويعلق على شفائه من المرض على النحو التالي:

"ــ إذا كان الله قدر لي ألا أحيا وكتب علي الموت حتى ألقى حسابي، كنت لا أنجو من هذا المرض الخطير، ولا كانت روحانية موكلي ذو الشأن قد أدركتني وساعدتني."

وبعد شفائه من المرض، انتقل وحيد الدين إلي الطائف، وهو إقليم في الحجاز يتمتع بأجمل مناخ. وهناك استقر في قصر عبد المطلب المهيب. وكان السبب المعلن لنقله إلى الطائف هو أن مناخها مناسب لصحته، أما السبب الحقيقي فهو للمحافظه عليه تحت يد الملك حسين كرهينة.

بالنسبة لهذه النقطة، فقد علمنا أن الدعوة الكريمة والاحترام الشديد، كان لهدف وحيد وهو اقتناص الخلافة من وحيد الدين. فحتى يحقق الملك حسين هذه الأمنية، كان عليه إما كسب ود وحيد الدين بالذهب، أوبالاحتفاظ به حتى لا يصير عائقاً، عند اعتزامه القيام بأي تحرك... فقد أعلن عن رغبته في الخلافة بعمل بعض الترتيبات في أنحاء سوريا وفلسطين وعمان، داعياً زعماء العالم العربي إلى الحجاز، ونادى بالاتحاد. كان كل همه أن يبايعه وحيد الدين، وبهذا يكون أول تصديق على خلافته من الخليفة نفسه...

وفجأة يقول وحيد الدين - الذي ينظر بعين الخليفة، ولا يقبل عزل وإسقاط نفسه- لمعيته بعد أن سقطت الأقنعة، وظهرت الوجوه الحقيقية:

ـ استعدوا، سنرحل غداً عن الطائف - البلدة الجميلة بحراً وجواً- وبعد ذلك نغادر الحجاز!

وكانت مغادرة وحيد الدين الطائف رحمة إلهية، فقد هجم الوهابيون على الطائف في اليوم التالي، وأخرجوا الكثيرين من أهلها، وحرقوا وشنقوا وقتلوا الكثيرين.

وتصاعدت الحركة المناهضة للسلطنة الهاشمية، وانهزمت قوات الملك حسين، ودخل ابن سعود كقائداً رومانياً مظفراً إلى البلدة المقدسة. لكن عندما دخل مكة كان أداؤه السياسي حذراً لأقصى درجة، فقد توجه جنوده إلى الكعبة وهم يهللون: "لبيك اللهم لبيك، دعوتنا فجئنا، وإليك أنبنا!". وأبدى اهتماماً كبيراً بالدين.

لكن برغم سقوط مكة، انضمت المقاومة هناك لبعض الضباط الأتراك، وظلوا يقاومون ويدافعون عن المدينة، وتخلى الملك حسين – الذي ذهب إلى جدة في تلك الأثناء- عن الخلافة والسلطنة وكل أحلامه، وترك عرشه لابنه الأمير علي. وبعد هذه النهاية التي تحققت بضغط من الإنجليز، حمل ثروته الضخمة وشد رحاله إلى قبرص التي كانت تابعة لإنجلترا، وظل هناك حتى مات.

وفي النهاية انكسرت المقاومة في جدة، بعد استمرارها لفترة طويلة بقيادة الضباط الأتراك، واستدعى ابن سعود إلى حضوره اثنين من الضباط الأتراك الذين قادوا المقاومة، وباركهم وضمهم إلى صفه.

أما وحيد الدين الذي خرج من الطائف أثناء الاستيلاء الوهابي عليها، واستطاع أن يصل إلى جدة بصعوبة، لم يذهب إلى مصر؛ لأنه حتى إذا كانت لديه الرغبة في الذهاب، فلم يكن الملك فؤاد يقبل ذلك. ولذلك سلك وحيد الدين طريق إيطاليا بوصفها دولة بعيدة عن الضغوط، ولأنها مناسبة له أكثر، حيث يحمل على كتفيه لقب الخليفة والسلطان اللذان يجب عليه المحافظة عليهما دائماً، دون أن يصبح ألعوبة في أيدي الإنجليز مطلقاً.

وهنا نأتي لنقطة دقيقة تشير إلى مدى علياء وحيد الدين. فهو وإن كان يحمل لقباً جافاً فهو يحمل صفة عظيمة، ولا يريد أن يبيع لقبه مقابل أية منفعة، ولايريد أن يصبح موضوع الخلافة لعبة في يد الإنجليز مقابل استفادته من السفينة الحربية. ومن أجل ألا يصبح ألعوبة اختار هذا الإنسان العظيم إيطاليا - وهى دولة لا علاقة لها بموضوع الخلافة- ليعيش فيها.

وكان أول مكان في إيطاليا يطأه بقدمه هو ميناء جنوة...

ما هذا؟

في هذا الميناء وجد استقبالاً فوق العادة!... من بين من كانوا في استقباله، ملك إيطاليا (فيكتور إيمانويل)[483]والديكتاتور (موسوليني)[484]... وكان هناك (فريد باشا) الصدر الأعظم وزوج أخته، وبعض المنتسبين للقصر...

483- ولد في عام 1869م في مدينة نابولي هو فيكتور إيمانويل الثالث آخر ملوك إيطاليا، وابن الملك أمبرتو الأول، العالميتين الأولي والثانية، إضافة إلي صعود في إيطاليا. شهد طوال فترة حكمه الطويلة (1900-1946) الحربين بلاده. أصبح تاريخيا آخر ملوك مملكة إيطاليا عقب استفتاء شعبي جاء بنتيجة وسقوط الفاشية، و انتهاء الملكية في

تم تخصيص قطار خاص لوحيد الدين ومعيته، وذهب إلى المكان المقرر أن يستقر فيه وهو (سان ريمو)...

إيطاليا... شجر الورد والفاكهة والصنوبر، شمسها الدافئة التي تلتف برائحة مياه بحرها. مدينة (سان ريمو) من أجمل المدن الساحلية وبها أجمل شاطيء...

وهذا الشعر والموسيقى والمدينة الجميلة، لن تُخرج مملكته من قلبه، فهى ستظل بداخله حتى يتمدد على فراش الموت.

كانت كل النقود التي مع وحيد الدين عبارة عن 35 ألف جنيهاً استرلينياً، وفقاً لما قاله (طارق ممتاز گوز تپه)، أما نحن فنقول طبقاً لمصادر أخرى إنها كانت عبارة عن 50 ألف ليرة تركية ورقية. والحقيقة لا أعرف أي المصادر أصدق، وخاصة أنه لم يكن هناك فرق كبير بين الـ 35 ألف جنيه إسترليني ، والـ 50 ألف ليرة تركية، وفقاً لسعر العملة حينئذ. هذه النقود سواء 50 أو 100 أو 150، تعد مبلغاً ضئيلاً جداً لا تفي بنفقات سلطان، فقد وضعها في داخل حقيبة، وحملها رشاد باشا رئيس الأطباء، والمسئول عن عملية الإنفاق.

وهكذا وضع القائمقام زكي بك، شقيق زوجة السلطان السابقة، عينيه على هذه الحقيبة، وهو رجل أخبرناكم من قبل من أي نوع هو... كان يريد أن تكون الحقيبة في يده هو، ويقوم هو بالإنفاق، وليصل إلى هذه الحقيبة ارتكب كل أنواع السفاهات حتى يصرفها على القمار... هذه الحقيبة كانت تمثل مسألة حيوية للقائمقام زكي، فهى لم تلعب دوراً كبيراً في مالطا والحجاز، لكن الآن في إيطاليا سيبدأ السلطان ينكوي بعدوه، خاصة في هذا المكان الممتليء بالمجون. وسنرى بعد قليل كيف انتقلت هذه الحقيبة إلى

توفي فيهاعام1947 م. لصالح تحويل إيطاليا إلي جمهورية. لجأ الي مصر وأقام في مدينة الأسكندرية التي % 54 ودفن بها خلف كاتدرائية سانت كاترين بالمدينة. انظر.

بتاريخ http://en.wikipedia.org/wiki/Victor_Emmanuel_III_of_Italy

2010/2/18

إيطالي أسس الحركة الفاشية، وحكم إيطاليا 21 عامًا تقريبًا. هو بنيتو موسوليني (1883 – 1945م)، سياسي- 484 الحرب إلى إلى العالمية الأولى دفع إيطاليا إيطاليا إمبراطورية كبرى، وعندما نشبت الحرب حاول أن يجعل من الفاشي الوطني عام 1919م أنشأ الحزب وفي.م، وجُرح عام 1917م1915 واشترك في الحرب عام. جانب الحلفاء عام 1922م كلفه الملك فكيتور موسوليني الشعب الإيطالي على إعادة بناء أمجاد روما القديمة. وفي المتطرف. وحث فألغى كافة الأحزاب السياسية ما عدا إيمانويل الثالث بتأليف وزارة. وبدأ موسوليني في تكوين نظامه الديكتاتوري، كانت سياسته استعمارية حيث أعلن الحرب على أثيوبيا، وتدخل في الحرب الأهلية الإسبانية(1936- .الحزب الفاشي 1939) وضم ألبانيا عام 1939. وعقد تحالف مع هتلر، ودخل الحرب العالمية الثانية عام 1940. وغزا جنوبي إيطاليا نفسها. وانقلب عليه مجلس الفاشست الأعلى عام فرنسا. ثم لاقت جيوشه الهزائم في أفريقيا، واليونان، وفي ولكن الجنود المظليين الألمان أنقذوه، وأصبح موسوليني حينئذ رئيسًا لحكومة 1943م ، فأُطيح به وأودع السجن، في شمالي إيطاليا. وفي 1945 انهارت القوات الألمانية في شمالي إيطاليا. وهرب موسوليني مع بعض أتباعه. اسمية . وأُعدم موسوليني وأتباعه بعد ذلك رميًا بالرصاص واعتقلتهم الشرطة السرية الإيطالية، بتاريخ 10/ 2/2010 http://en.wikipedia.org/wiki/Benito_Mussoliniانظر

يد "قائد الموسيقى الهمايونية"، الياور الفخري، شقيق زوجته السابقة، القائمقام زكي السكير، المقامر، بعد موت رشاد باشا بشكل غامض، وما أدى إليه الباب الذي فتحه.
ونلقي نظرة على وحيد الدين في إيطاليا...

وحيد الدين في إيطاليا

بعد إلغاء الخلافة تم طرد عبد المجيد ابن عم وحيد الدين وولي عهده، صاحب الشخصية الضعيفة الذي توهم إنه سيستفيد من النظام الجديد، وأخذ يتحامل على وحيد الدين بشكل سيء لأقصى درجة، هو وأفراد أسرته كلها من تركيا. فرحلوا إلى أوروبا. واحتشد عند وحيد الدين في إيطاليا جميع من تركهم أمانة لدى عبد المجيد في استانبول من السيدات، وسائر أقاربه. ولذلك ترك وحيد الدين الفيلا الصغيرة التي كان يسكن فيها، واستأجر قصراً باسم (فيلا مانيولي). وكان عبارة عن قصر حديث تحيط به غابة كبيرة مزدانة بأشجار زهور المانيولا والبرقوق المالطي والليمون والبرتقال... ومليئة بالورود والأزهار من كافة الأنواع التي تنتشر رائحتها المدهشة بالجو... وكان أمام الفيلا جناح للأطفال يشتمل على عدة غرف... هذا الجناح الصغير الجميل كان مأوى لرذائل القائمقام زكي بك صهره السابق.

والنقود المحدودة التي مع السلطان، تُرى كم من الوقت ستكفيه للإنفاق على نساء القصر، ورئيس الخدم، وعلى رئيس الأطباء، والياور، والمصاحب، والكاتب، والمسئول عن الملابس، والموظف المسئول عن صب المياه على أيدي السلطان، ورئيس الحلاقين، وغيرهم كثيرون ممن يشكلون طاقم القصرالذين شغلوا 40 حجرة في فيلا مانيولي، بالإضافة إلى الجناح الصغير الذي بجانبه، مع وجود ماجن مثل القائمقام زكي على رأس هؤلاء جميعاً؟

وبدأت رذائل القائمقام زكي بعد فترة قصيرة من الاستقرار في (سان ريمو) تأخذ منعطفاً خطيراً. كان لدى وحيد الدين بنت إيطالية صغيرة تقوم على خدمته، حملت من زكي بك، ووقع السلطان وخزينته ضحية فسوقه.

انظر إلى الحياء والتحمل والتوكل والصبر الذي يتميز به بعض أفراد الأسرة العثمانية، فلم يقم وحيد الدين بدفعه من رأسه والتخلص منه!

وفي تلك الأثناء حدث شيئاً عجيباً:

فقد جاء ممثل عن ملك إيطاليا إلى الخليفة يعرض عليه قيام الملك بالتكفل بدفع كافة مصروفاته هو وجميع أفراد أسرته وخدمه، ويترك له حرية اختيار المكان الذي يرغب الإقامة فيه.

انظر إلى هذا الرد الرائع من خليفة المسلمين، وسلطان الأتراك، على ملك إيطاليا الذي رافقه بوصفة ولياً للعهد، عندما جاء ضيفاً لزيارة خرابات (تروفا) التي في (چناق قلعة)، عندما كان هو أيضا ولياً للعهد:

ــ أبلغوا شكري لحضرة الملك المحترم! فأنا في غاية السرور لكرمه وشعوره الرقيق وذوقه! لكن اللقب الذي أحمله وهو "خليفة المسلمين" يمنعني من قبول هذه المساعدة! "هذه المعلومة أدين بها للمحرر (رفيع جواد أولون) ولمئات الأشخاص الذين واصلوا إقامتهم في (فيلا مانيولي)".

كان الملك (فيكتور إيمانويل) هو والديكتاتور (موسوليني) يقومان برحلة في شمال إيطاليا، ومرا من هناك على (سان ريمو) والتقيا في أحد المطاعم هناك بوحيد الدين، وتولد بين السلطان و(موسوليني) شعور بالارتياح المتبادل. ويمتدح الخليفة ديكتاتور إيطاليا على الانقلاب الذي قام به دون هدم الفاشية.

في سالف الزمان كان الباشاوات والباكوات والأغاوات الذين في معية وحيد الدين يأخذون راتبهم من القصر، والآن أيضا يأخذون راتبهم من وحيد الدين بينما هو في الغربة التي تُعتبر منفى السلطان، وعلاوة على ذلك يتناولون وجباتهم الأربعة، ويشربون ثم يتنزهون. وهذه المصروفات كلها تُصرف من خزينة السلطان المعلومة والمعهودة . وبنمط الحياة هذا، تُرى هل ستكفي النقود عاماً أم عامان؟... لكن السلطان نظراً لأصالة نسبه لم يقصر ولم يتخل ولو ذرة واحدة عن كرمه السلطاني. والتدبير الوحيد الذي اتخذه هو حرمان نفسه من كل شيء والحياة كفرد عادي.

أما زكي بك فقد كان مسلكه انتهازياً... كان كل همه أن ينثر نقود وحيد الدين في كازينو (سان ريمو)، وهو عبارة عن حانة قمار على غرار (مونت كارلو)... وتسبب هذا في إنذارات مؤلمة للسلطان الذي بث ألمه إلى رشاد باشا، رئيس الأطباء الذي كان أيضا تثيره تصرفات هذا الرجل ...

وذات يوم كان وحيد الدين يجلس في الطابق الأسفل من الفيلا وسمع صوت طلق ناري... وصرخات مرعبة. وفي الخارج سمع صوت ارتطام جسد على الأرض أمام باب الغرفة... على الفور فتح وحيد الدين الباب ووثب من المفاجأة... ويا هول ما رأى! محافظ خزانته، الرجل المقرب له، رشاد باشا رئيس الأطباء، ممدداً على الأرض غارقاً في دمائه... وأمام يده المفتوحة على الأرض يوجد مسدس... سقط وحيد الدين على رشاد باشا الذي لم يقل له سوى: "سيدي، إنني أموت!". ويموت رشاد باشا في المستشفى فور وصوله إليها.

وبسبب عدم كفاية الأدلة، استبعدت الشرطة الإيطالية أن يكون الحادث جريمة قتل مع سبق الإصرار، وقيدت الحادثة على إنها إنتحار. لكن الكثيرون يقولون أن من فعلها هو القائمقام زكي.

وفي (فيلا مانيولي) بحر زهور المانوليا، ينظر وحيد الدين إلى خزانته التي رآها تنفذ يوماً بعد يوم، ودرجة درجة حتى الصفر، مثل الترمومتر، فنهج حياة أشبه بحياة الزاهد، ومال إلى حياة العزلة لدرجة إنه لم يعد يهتم بأي شيء في الخارج، ولا حتى اهتم بأمر انتقال الخزانة إلى يد القائمقام زكي.

وبعد مدة مات صهره فريد باشا في فرنسا، وقبل مرور عام على وفاته ماتت أخته الأميرة مديحة وتبعت زوجها، وكان هذا من ضمن الهموم التي أثقلت كاهل الخليفة...

الأيام الأخيرة لوحيد الدين

غادر تركيا مع وحيد الدين الكثيرون ممن يعولهم، بالإضافة إلى قائمة الـ "150" المعروفة. ومنهم من عاش معه في (فيلا مانيولي) التي صارت مثل قصر يلديز، ومنهم من عاش في الفنادق. وهؤلاء صاروا عبئاً على خزانة السلطان الخاصة التي أخذت في النفاذ مثل عمره. ومن بين هؤلاء من خدعوا السلطان بإمكان قيامهم بتدابير سياسية... مثلاً قامت جماعة على رأسها واحد يُدعى (جومولجينالي إسماعيل) بالاستيلاء على 1000 ليرة إنجليزية من وحيد الدين، قدمها لهم من نقود ابنه (محمد أرطغرل أفندي) بحجة إصدار مجلة باسم (إنطاق الحق) في باريس، ثم ذهبوا واقتسموا النقود فيما بينهم واختفوا. وتأثر السلطان بشدة بهذه الخدعة التي تبدو عادية في شكلها، ولكن مدلولها كان قوياً. فالنقود التي استولى عليها الخادعون بسيطة، ولكنها كانت أخر ما يملكه السلطان من نقود، فتأثر نفسياً بالأمر، وأحس إنه يعيش في عالم ملوث، أخلاقياً ومعنوياً، لا تعرف فيه الصديق من العدو، ولم يعد يقابل أحداً.

وهكذا يُسحب ماء خزينته ويبدو قاعها فارغاً. ويرى وحيد الدين إنه لابد من تقليل نفقاته، لكن الإجراء الذي اتخذه في سبيل هذه الغاية، يبدو مضحكاً، وطبقه علي نفسه فقط. فقد غير نوع السجائر التي كان يشربها وعددها. نعم، كان يشرب الكثير من السجائر. كان يشرب من 4 إلى 5 علب في اليوم، وكثيراً من القهوة... هذا كان كل ما يستهلكه السلطان في اليوم... وهو نوع من الاستهلاك يسرع به الخطى نحو الموت، فيوفر ماينفقه على نفسه هو شخصياً...

وهاهو القائمقام زكي، صهر السلطان الذي تحدثنا عنه من قبل، يبعثر في ليلة واحدة في صالة القمار في كازينو (سان ريمو) نقود السلطان الذي جعله أميناً عليها بعد وفاة الباشطبيب رشاد باشا. وهكذا يصبح الخليفة العظيم، وجميع من حوله، لايملكون ثمن الخبز، يالها من فضيحة كبيرة! تُرى ماذا سيفعل تجار سان ريمو الذين فتحوا اعتماد مالي لفيلا مانيولي؟ وماذا سيكون رد الفعل في أوروبا، وتركيا، عندما يعلمون أن نقود السلطان نفدت، وأن نقوده نُثرت على مائدة القمار؟

أوشك وحيد الدين الذي صارت أصابع يده صفراء من أثر سجائر العسكري (اللف)- وهو نوع رديء من السجائر صار يدخنها- على الموت قهراً، ومع ذلك لم يحمل على هذا الرجل الشرير، ويطرده، بل جلس مع أخته الأميرة مديحة يبحث عن حلاً للوضع. وفي الحال تخلع أخته الشجاعة من أصابعها خاتم زمرد، كان قد أهداه إليها والدهما السلطان عبد المجيد الأول، وتعطيه لأخيها. لكن الخاتم ليست له قيمة في إيطاليا، وفي النهاية يشتريه جواهرجي في لندن بـ 8 ألاف ليرة إنجليزية. وبهذا ضمن وحيد الدين نفقات عدة شهور، وليس سنة كاملة. لكن عندما تنتهي هذه النقود ،ماذا سيفعل؟

ويبدأ القلق من جديد بسبب هذه النقود التي وزع جزءً كبيراً منها على الدائنين، كما يستمر القائمقام زكي في نفس الطريق، ويأخذ أيضا في بعثرة مال السلطان، ويمتنع الباعة عن تمويل (فيلا مانيولي) عندما رأوا حالة الإفلاس التي صار عليها الخليفة.

وفي تلك الأثناء لم يستطع الملك فؤاد في مصر أن يخرج بشيء من مؤتمر الخلافة الذي نظمه، حيث واجهه عالماً مصرياً بقوله، إن الخليفة لا يكون ممثلاً لدولة لم تحصل على استقلالها التام.

ويجلس عبد المجيد الثاني أيضا في الزاوية التي عاش فيها، مرتبطاً بشدة بلقب الخلافة، ولايريد أن يتخلى عنه لوحيد الدين، ولا يبالي بالتفاهم بين أفراد الأسرة.

وفي وسط هذا العالم كله، لا يستطيع المرء تصور مدى اضطراب وحيد الدين. كان وحيد الدين ينظرإلى حلقات الدخان الأزرق لسجائر العسكري التي يدخنها، والتي بطعم البارود، ويفكر كيف صارت السلطنة التي دامت ستة قرون - وإعتلى العرش فيها بصفته السلطان محمد السادس- دخاناً. ويفكر أيضا في قدره الحزين، قدر جعله يحمل على عاتقه فجأة كل شيء سواء ماكان هو سبباً فيه، أو ماكان متعلقاً برجال الدولة المتشددين، أو بالدولة نفسها، أو حتى بالتاريخ. تُرى هل هناك في التاريخ من هو مثل وحيد الدين، وسوء حظه؟ ذلك السلطان الذي حمل عبء عصور طويلة للدولة العثمانية التي سقطت في مذبحة السياسة مثل فيل ضخم مجروح، لحظة جلوسه على عرشها وبعد ذلك، عندما يتحقق النصر بعد ترتيباته وخططه الشخصية لإنقاذ الدولة، يصير هدفاً لانتقام الأمة!

الكلمة الرائعة التي أوضحت درجة سوء حظ وحيد الدين، قالها في حقه (عوني باشا) ناظر البحرية السابق، ورئيس الياوران الذي لحق بالسلطان في (سان ريمو)، بوصفة واحداً من الذين خرجوا من الوطن:

"ـ ليس من بين جميع البشر من هو أسوأ حظاً من وحيد الدين، إنك لو بحثت في علم الأدب والتاريخ كله، لن تجد من هو أسوأ حظاً منه."

وهكذا كان سوء حظه، حيث أُبتلي بالفاسق الذي اسمه زكي بك الذي تسلط عليه، وعلى عرشه، وشرفه، ولم يمنحه الله قدرة على مقاومة أو مواجهة أي شخص، حتى أشقياء الفكر الكثيرون الذين حرفوا حقيقته ومعناه، بل وهبه بدلاً من ذلك قدرة على التحمل والصبر على كل شيء بأصالة ووقار سلطاني. وهكذا وحتى يحتفظ بالسر الذي تناولناه قبلاً، صار هذا الرجل الأصيل، البريء مثل الوعاء الذي امتلأ بالذنوب، والعيوب الخاصة بكل شخص وكل ظرف، عيوب العدو والصديق، وأخطاء الماضي والحاضر، لدرجة أن الماجن الذي اسمه زكي خاطبه ذات يوم من تليفون الفيلا الداخلي بقوله: "يا غلام" فماكان منه، هذا الخليفة العظيم، إلا أن ترك الجريدة التي كان يقرأها، وقام بقطع سلك التليفون الداخلي. وكان هذا رده على حقارة هذا السافل. هذه السمة الشخصية، سمة الأصالة الموجودة في أولاد عبد المجيد الأول ولا نجدها في الكثير من الممالك الأوروبية مثل (البربون) و(الفالوا) و(الهابسبورج) و(الهوهنزو) و(الرومان)، كانت بداية ضعف الدولة الشديد.

فإذا كان السلطان عبد الحميد لم يأمر جيشه الخاص المكون من جنود الأناضول بدهس جيش الحركة الغاصب مادة ومعنى، والذي حمل أجواء (دونمة) سلانيك إلى استانبول، فهذا كان بسبب هذه السمة، سمة الأصالة...

ونحن مدينون بالكلام قليلاً عن (أحمد عوني باشا) ناظر البحرية السابق، وكان يلقب بـ "الياور الأكرم":

هذا الشخص الذي سهل لمصطفى كمال باشا في استانبول كل شيء، وجهز له السفينة (باندیرما) التي أقلته إلى سامسون، وُضع بعد ذلك في قائمة الـ"150 "المشهورة بمعرفة إحسان بك، وكيل البحرية السابق، وبطل قضية (يافوز– هافوز)[485].

وتوجد كلمة قالها عوني باشا عن مصطفى كمال باشا، بخصوص أطماعه السياسية، وهى كلمة رائعة:

"– إنه إنسان خرج من أواخر صفوف الجماعة، ووثب على المحراب..."

وفي هذا السياق أوضح معلومة لمؤرخي المستقبل، بشأن قائمة الـ "150" التي ذكرناها:

تم وضع تلك القائمة بناءً على طلب لندن واللورد (كرزون)، وليس أنقرة. ففي لندن طلب (كرزون) من (عصمت باشا) قائلاً: " يجب أن تتخلصوا من جميع من يخالفونكم" وسأله: "ما عددهم"، فيجيب عصمت باشا - الذي بلغ به الأمر أن يهدم أساس المقدسات التركية، ويجعلها ثمناً للفوز في لوزان!- على هذا السؤال بقوله: "عدد من يخالفوننا 150 شخصاً". حتى ذلك اليوم، كان العدد 70 شخصاً فقط، ورقم 150 لفظ به عصمت باشا من أجل أن يبدو كريماً أمام اللورد الإنجليزي. فيطلب اللورد منه أن يأتي له بأسماء هؤلاء خلال أسبوع. أرسل عصمت باشا برقية بالشفرة إلى أنقرة يطلب منهم زيادة عدد الأسماء التي في تلك القائمة السوداء إلى 150اسماً. ووفقاً لما هو معروف عن أخلاقنا السياسية مثلما بدت في حركة 27 مايو 1960، يتم جمع 150 اسم هكذا عشوائياً، في بيئة حقيرة، حيث أخذ كل واحد يشي بالآخر، ثم قام عصمت باشا بتقديم هذه القائمة إلى سيده اللورد (كرزون).

هذه الحكاية رواها لنا "طارق ممتازگوز تپه " ضيف فيلا مانيولي والياور السابق، وقد رواها في حضور البروفيسور (عثمان طوران) في حجرة الرئاسة (بيت الأتراك) في أنقرة.

كان من عادة السلاطين العثمانيين أن يطلقوا لحاهم عند اعتلائهم العرش ، لكن وحيد الدين لم يفعل ذلك، مثله مثل السلطان سليم الياووز الذي كان يقول لمن يذكره بذلك: "لن أعطي لأحد فرصة أن يمسك بلحيتي". لكن وحيد الدين أطلق لحيته في إيطاليا، وكان عندما يقوم بشدها بيده شعرة، شعرة يحاسب نفسه محاسبة وجدانية، وكان هذا هو حكمه الأخير على نفسه.

– قد أكون ضعيفاً، لكني بريء من كل إثم!

كان الخليفة يتمتع بثقافة موسيقية عالية، ويملك حساً موسيقياً مرهفاً. كان يستمع بإحساس إلى الألحان الإيطالية التي تتصاعد ملتفة بالجو الدافيء، ومحاطة بالنخيل

---

485 - هى قضية فساد مالي أُتهم فيها إحسان بك وكيل البحرية السابق، بالعمل بالتجارة والتربح والرشوة، وحُكم عليه بالسجن لمدة عامين في 16 ابريل 1928. لمزيد من التفاصيل انظر بتاريخ http://www.radikal.com.tr/haber.php?haberno=1550312011/3/30

وأزهار المانوليا، ويتذكر مارش السلطنة العثمانية الذي طلب والده السلطان عبد المجيد الأول من "دونيزيتي" أن يلحنه، ولم يغيره من جاءوا بعد والده. وفي ظل هذه الذكرى يسمع صهيل الخيل، وأصوات حدوات خيول الخيالة الخاصة ذوات الجاكت الأحمر، والبنطلون الرمادي، والقلنسوة الأستراجان، والرمح القصير.

وحيد الدين الذي يمر ماضيه من أمام عينيه في أشد لحظات الضيق والاضطراب المادي والمعنوي، كان أحياناً يدخل حجرته، ويغلقها عليه، ويبدو مشغولاً بعمل سري. كان يتجسس عليه البعض ليروا بأعينهم ماذا يفعل داخل حجرته. كانوا يرون السلطان والخليفة العظيم يضع على ركبتيه نيشان آل عثمان، ويحاول أن ينزع بمقص الأظافر الصغير، فصوص الألماس منه... لقد بلغ به الحال إلى إنه يخلع فصوص الماس من النيشان العثماني لإطعام معدة سرب الطامعين فيه، ويفعل ذلك خفية لأنه كان يخجل من وصوله إلى هذه الحالة، سواء ممن هم معه في داخل الفيلا أو من هم خارجها.

إن هذا الخجل الذي كان يشعر به محمد وحيد الدين السادس، سلطان الأتراك وخليفة المسلمين، لوصوله لهذه الحال، لا يجب أن يشعر به هو وحده، بل لابد أن يقاسمه فيه كل تركي وكل مسلم.

وفي مايو عام 1926 اعتكف وحيد الدين بسبب هذه الأحوال كالدرويش، في حجرة في الدور الأرضي في (فيلا مانيولي). صار ضعيفاً، هرماً ومريضاً، ومعتل الصحة. يخبره طبيبه الخاص البروفيسور (فافا)- ولا أعرف كم مرة أخبره بذلك - بأن يتوقف عن شرب السجائر، وعن ابتلاع الأسبرين الذي كان يتناوله كثيراً.

لكن من الذي سيسمع الكلام؟

يرد وحيد الدين على الطبيب بقوله:

ــ إن مزاجي الوحيد يا دكتور هو السيجارة! لقد تعود عليها جلدي وعظامي ودمي... إن تركتها ماذا أفعل؟...

فيقول له الطبيب:

ــ على الأقل يجب على سموك أن تقلل من التدخين! إنك بذلك ستفقد حياتك. كما انصحك بأن تتوقف عن إدمان الأسبرين، فهو يضر بقلبك الضعيف.

لا يهتم وحيد الدين.

وهاهي كلماته في وصيته:

ــ عندما أموت أوصيكم بدفني في الشام، في ضريح صلاح الدين الأيوبي!...

ــ أوصيكم ألا تقيموا جنازتي في بلاد الصليب!...

ــ أوصيكم أن تؤدوا الصلاة عند رأسي، وأن تقرأوا القرأن، ولا تنقصوا شيئاً من الشعائر التي تتم عند الموت!...

لكنهم أمام هذه التوصيات، يردون عليه بكلمات العزاء الواهمة:

ــ ليمد الله في عمركم يا سيدنا! إن شاء الله تعود إلى استانبول وإلى "عرشك عالي البخت"!

هذا الأمل كان يغزي خيال وحيد الدين دائماً، وصار حقيقة، ولم يتخلّ عنه حتى في لحظات الإحباط، فوحيد الدين برغم كل شيء، صار قانعاً بإنه ذات يوم سيعود إلى تركيا بصفته السابقة، وبكل الأبهة.

وذات مرة تطرق الحديث مع أسرته عن عودته إلى تركيا، وكانوا يلومونه بشدة، ويقولون له ماكان يجب عليه أن يرسل مصطفى كمال باشا إلى الأناضول، فقال ما يلي كلمة بكلمة:

"ـ احترقنا نحن، ولكننا أنقذنا الوطن بإرساله إلى الأناضول!"

ويستمر في كلامه متنهداً تنهيدة عميقة قائلاً:

"مصطفى كمال لايفعل هذا بي، مصطفى كمال لا يفعل هذا بي."

في 14 مايو دوى عبر الأفق في (سان ريمو) صوت انفجارهائل... عاصفة شديدة... صاحبتها صواعق وبرق، وسرعان ماهطلت أمطار شديدة.

في تلك الليلة جمع وحيد الدين جميع الحريم في الفيلا، وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث، وكان سعيداً. أخذوا يتذكرون استانبول والقصور خاصة قصر چنگل كوي وهنا وهناك... أه يالها من أيام ... يا لها من أيام!...

كان وحيد الدين شبه ممدداً على الأريكة (الشيزلونج)... ووسط هذه الأحاديث الحلوة جلس على الشيزلونج وأمر حريمه بالآتي:

ــ هيا اذهبوا لتأدية صلاة العشاء، وبعد ذلك تعالوا لنستكمل حديثنا. فيخرجون جميعاً. وقال لزوجته الأخيرة - التي بقيت بجانبه ولم تفارقة أو تتوانى عن خدمته- السيدة (نافزت):

ــ عندي غثيان. احضري لي وعاء!

تذهب السيدة (نافزت) لتحضر الوعاء ثم تأتي، وتميل على السلطان الذي يتقيأ قليلاً ثم يقول لها:

ــ هيا اذهبي افرغي الوعاء ثم تعالي!... هيا لا تمكثي في المكان!...

تذهب السيدة لتفرغ الوعاء وتعود، لترى الأتي، السلطان ممدداً على الشيزلونج وكأنه قطعة حجر...

تصرخ... ويهرول جميع من في الحرملك... وعندما يمسكون بيد السلطان تسقط متراخية بجانبه، فيعلوا الصراخ فوق الصراخ... الجميع على قدم وساق...

مات السلطان محمد وحيد الدين السادس، أخر سلاطين العثمانيين بهذا الشكل غير المفهوم. مات بعد سبع سنوات مرت على لحظة قوله لمصطفى كمال باشا: "اذهب وانقذ الوطن!".

برق، رعد، صواعق، أمطار غزيرة...

الجميع عند رأس السلطان، كل من في الفيلا وفي الجناح الصغير... وكان هناك أيضا البرنس سامي ابن أخت السلطان... وقد عاوده جنونه، وأخذ يصيح في النساء:

ــ ماذا فعلتم بخالي؟

كان السلطان ممدداً وعلى ظهره فراء السمور، عينيه مغلقة، ولا يبدو على وجه إنه ميت، كان وجهه يبدو نضراً، مبتسماً، سعيداً، وكأنه يسمع كل هذا الضجيج الذي حوله ولا يريد أن يرد...

ويستمر هطول المطر حتى اليوم التالي، وتحيط قوات الشرطة الإيطالية - التي يرتدي أفرادها الطربوش على شكل زورق مقلوب- بفيلا مانيولي... فقد علمت الحكومة الإيطالية على الفور بوفاة السلطان، فأرسلت إلى الفيلا الدكتور الخاص، البروفيسور (فافا) مع ممثلين رسميين عن الحكومة الإيطالية... ورأوا أنه لابد من تشريح جسد السلطان.

ولمعرفة سبب الوفاة، يتم تقطيع جسد الخليفة الذي مات في الغربة ثم إخاطته... وهو عمل لا يتفق والمعايير الإسلامية... ولكنها مسألة أخرى...

يقوم بالتشريح البروفيسور (فافا) بنفسه في الفيلا، وتستمر العملية لفترة قصيرة. ويخرج الدكتور مرتدياً قميصاً أبيض، وفي يده شيء صغير يشبه العظمة، ويُطلع عليها الذين ينتظرون في الخارج ويقول:

ــ هذا هو سبب الوفاة!... هاهو الشريان الذي يغذي القلب! أصبح كقطعة الحجر... هذا بسبب كثرة تدخين السجائر، وابتلاع عدد كبير من الأسبرين مرة واحدة، فحدث الانسداد ثم الوفاة... ولا داعي للبحث عن سبب آخر!...

يرى (عوني باشا) كبير الياوران، أن السلطان قتل نفسه عندما نفدت نقوده... يعني انتحر... فقد ابتلع بعد تناوله طعام العشاء 7 أو 8 أقراص أسبرين، ثم تمدد على الشيزلونج في انتظار نتيجة ما فعله...

إن تناول الخليفة لعدة أقراص من الأسبرين بعد الطعام، لايُحتمل أن يكون بقصد الانتحار؛ لأن هذا السلطان ذو الإيمان القوي، العميق، لا يرتكب ذنباً كهذا. إن هذا أقرب إلى الظن والخيال والتلفيق...

إن موته في اللحظة التي نفدت فيها نقوده، مجرد لطف من الله، ولا يُفسر سوى إنه رحمة من ربه، ودعوة له للتمتع بنعيم الآخرة.

يتم تحنيط جسد الخليفة أي (مداواته)، ويوضع في تابوت من خشب الجوز الخالص، أعده له البرنس سامي ابن أخته بمبلغ كبير من ماله الخاص.

وكُتب هذا فوق التابوت:

"ــ حضرة السلطان محمد السادس، خليفة المسلمين وسلطان الأتراك"...

ثم نرى هذا المشهد الذي يُعتبر أسوأ مشهد:

يأتي دائنو فيلا مانيولي، البقال والجزار والفكهاني وغيرهم، فجأة ويحجزون التابوت.

هذه حادثة لم نرَ مثلها في الدنيا. إذ يتم حجز جسد السلطان، تابوته بسبب الدين، ويُحرم من حقه في الدفن في التراب.

يوضع التابوت مفتوحاً، فوق مائدة عالية مفروشة، في فناء (فيلا مانيولي) المرمري لعدة أيام لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، ثم يأتي الزائرون من مصر وسوريا والعراق ومعهم مساعدات، ويتم الإفراج عن التابوت، وإنقاذ الموقف.

وإذا كانت حكومة إيطاليا لم تقم بدفع ديون الخليفة، فإنما فعلت ذلك حتى لاتهين الحكومة التركية.

جاء كثيرون من العالم الإسلامي لحضور الجنازة، ويتم قراءة القرآن على رأس التابوت، وإلقاء الأدعية... وجاء رجل عجوز وفتاتان ترتديان الملابس السوداء، جثوا على الأرض المرمرية، وأخذوا يبكون ويلقون أدعية مسيحية. هذا العجوز هو الرسام المشهور الذي كان يقوم برسم السلطان عبد الحميد الثاني واسمه (زونارو)...

وعندما تم فتح الصندوق الخاص بالسلطان وحيد الدين الذي يحتفظ فيه بنقوده وأوراقه الهامة، وجدوا هذا المشهد المدهش...

وجدوا عدد (17) ربع ليرة ذهب، ونيشان (أسرة آل عثمان) المنزوع منه أحجاره الكريمة... أي ماوجدوه كان عبارة عن 4 ليرة ذهب وربع ليرة، ونيشان يشبه فماً بلا أسنان... الحقيقة إن السلطان مات فعلاً في اللحظة التي نفدت فيها نقوده.

تم توصيل الجنازة إلى الشام، وهناك تمت مراسم عادية، قيل إنها رسمية، ونظراً لعدم وجود مكان في قبر صلاح الدين الأيوبي، تم دفنه في فناء جامع السلطان سليم.

وبعد فترة تم إزالة المقابر التي في جامع السلطان سليم، وتسوية الأرض وتحويلها إلى حديقة[486].

ويمكن القول إنه اليوم ليس هناك حتى أي أثر مادي لوحيد الدين خليفة المسلمين وسلطان الأتراك...

لكن هناك أثر معنوي... هذا الأثر إذا تم تعقبه دون النظر إلى لافتات الطريق الرسمية، يمكن الوصول إلى أحد النقاط التي عندها نجد المفتاح الذي يفتح الباب على صناع التاريخ والعلم الكاذب الذين يشبهون من يقومون بتزييف النقود، والذي يؤدي إلى تسليمهم لعناية العدالة الإلهية.

فلنفكر في المقام الروحي لوحيد الدين، ذلك الإنسان الذي تعرض لظلم كبير، وقيل عنه أسوأ ما قيل، رغم إنه إنسان جيد، وهو هنا يشبه السلطان عبد الحميد الثاني الذي ظُلم أيضا. إذ لابد أن وحيد الدين الآن في أعلى درجة عند الله!...

إن السلطان محمد وحيد الدين السادس ليس خائناً للوطن، بل صديق[487] كبير للوطن...

---

[486] - يقول الكاتب قدير مصر أوغلي: "إن إدعاء أن مزار وحيد الدين الذي في الشام قد تمت إزالته، غير صحيح. انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.17,18

[487] - فيما يتعلق بعنوان الكتاب، والذي أورده الكاتب في نهاية كتابه ليختم به، يرى الكاتب قدير مصر أوغلي أن كلمة صديق للوطن لا تنطبق على السلطان وحيد الدين، لأنه صاحب الوطن باعتباره السلطان وليس صديق غريب على الوطن. فكلمة صديق تنطبق على شخص يكون من خارج الوطن. انظر Kadir Mısıroğlu, "bir mazlum Padişah, Sultan vahideddin", a.g.e. s.18